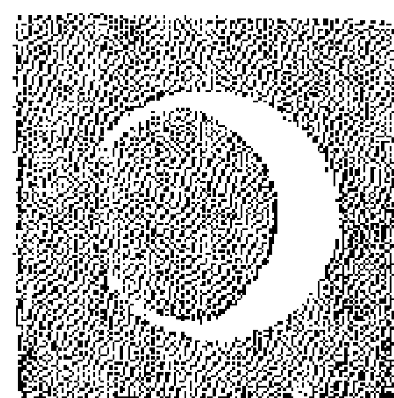


كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

حقائق الإسلام وأباطيل خصومه

١٦٩

عباس محمود العقاد

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

العدد ١٦٩ — ذو الحجة ١٣٨٤ — أبريل ١٩٦٥

No. 169 — Avril 1965

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى — فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا — في بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم — في الامريكتين ٥ دولارات ونصف — فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنــة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليماً ، الجزائر ١٧٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا



كتاب الهلال



لة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

حقائق الإسلام

وأباطيل خصومه

•

بقلم

عباس محمود العقاد

•

دار الهلال

تقـديم

بقلم : أنور السادات

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ..

أما بعد ، فقد طال التصدى للاديان ، بقصد النيل منها ، وبغير قصد ، واستمرأ الكثيرون التخفف من أحكامها ، بدعوى يدعونها وبغير دعوى . وهان على بعض الهيئات أن تشكك فيما فرغ منه العلم . وحار بين هؤلاء وهؤلاء كثيرون ، حتى أصبح أمر الدين شكا وتظنينا . وهذه ظاهرة من شأنها ان تشغل بال المؤتمر الاسلامى ، وتبلغ من عنايته واهتمامه مبلغا بعيدا ...

حدث هذا بدعوى حرية الفكر ، وحرية البحث . ومادرى هؤلاء جميعاً أن حرية الفكر تتطلب غزارة معرفة ، واتساع أفق ، وعمق بحث ، وسلامة منطق ، ونصوع حجة ، وايمان قلب ، وانصاف رأى ، واستقامة مذهب ، وتنزها عن الهوى ..

ولما كان محل اتفاق ان الاستاذ عباس محمود العقاد موفور النصيب من هذا كله ، كان طبيعيا ان يتجه التفكير اليه ، وكان طبيعيا ان يرتاح هو الى هذا الاتجاه ،

---

* هذه المقدمة كتبها السيد أنور السادات حينما كان الامين العام للمؤتمر الاسلامي . وقد طبع المؤتمر هذا الكتاب طبعته الاولى باتفاق مع مؤلفه سنة ١٩٥٧ م

لما أخذ نفسه به من مؤازرة الحق وتأييده ، ومقاومة الباطل وتفنيده . .

وها هو ذا كتابه « حقائق الاسلام واباطيل خصومه » يخرجه المؤتمر الاسلامى لكل معنى بالثقــافة ، راغب فى تمييز الحق من الباطل ، راج ان يقف على أصول الاسلام ومبادئه ، ليحقق به المؤتمر غرضا من أغراضه ، هــــو نشر الثقافة الدينية خالصة مما يشوبها من شبهات ، ويعلق بهــــا من ريب

هذا ، والنية ان يترجم الكتاب الى اللغة الانجليزية ، واللغات الأسيوية ، ليعم نفعه ، وليكون له الاثر المرجو . .

والله سبحانه هو المستعان ، وهو ولينا ، وهو نعــــم المولى ونعم الوكيل . .

أنور الســـادات

فاتحة

بقلم : المؤلف

بسم الله ، وعلى هدى من الايمان بالله ..

وبعد فهذا كتاب عن فضائل الاسلام وأباطيل خصومه، يتقاضانا التمهيد له أن نقدم بين يديه بكلمة موجزة عن فضل الدين كله أو فضل العقيدة الدينية فى أساسها ..

اذ لا محل للكلام على فضل دين من الأديان ما لم يكن أمر الدين كله حقيقة مقررة ، أو ضرورة واضحة ، ولامعنى كذلك لأن نقصر الخطاب على المؤمنين المصدقين ولانشمل به المتشككين والمترددين ، بل المنكرين والمعطلين .. لأن المتشكك والمعطل أولى بتوجيه هذا الخطاب من المؤمن المصدق ، ولا فضل لدين على دين ما لم يكن للدين كله فضل مطلوب تتفاوت فيه العقائد كما يتفاوت فيه من يعتقدون ومن لايعتقدون .. هل للدين حقيقة قائمة ؟ . هل للدين ضرورة لازمة ؟ ..

سؤالان متشابهان ، بل سؤال واحد فى صورتين مختلفتين ، ولسنا نزعم ان الصفحات القليلة التى نقدم بها هذا الكتاب كافية للاجابة عن هذا السؤال الذى يجاب عنه كل يوم بما يتسع بعد الجواب الواحد لألف جواب . ولكننا نزعم ان هذه الكلمة الموجزة كافية لموضعها المقدور من هذا الكتاب ، لأنها تكفى لهذا الموضوع

اذا تركت شكوك المترددين والمنكرين مضـــعوفة الأثر منقوضة الأساس ، وتكفى لموضعها اذا تركت من يشك ويتردد وقد أحس الوهن فى بواعث شكه وأسباب تردده، وبحث عن جانب الحقيقة فيها فلم يجده ، أو بحث عنها فوجدها فى الجانب الآخر أقرب الى العقل والبـــداهة وأجدر بالاتجاه فى وجهتها الى نهاية المطاف ..

ونحن فى بداءة الطريق نحب أن نصحب القارىء على بصيرة من الباب الذى نستفتح به طريق البحوث فى هذا الكتاب ، بل نستفتح به الطريق فى كل بحث تشعبت حوله المسالك واضطربت عنده الآراء .. وبابنا هذا قبل كل طريق من تلك الطرق ان نسأل : اذا كان هذا الامر غـير حسن فما هو الحسن ؟ ثم هذا الذى نستحسنه كيف يكون ؟ وأى الأمرين اذن هو الاقرب الى العقل أو الايسر فى التصـــوير ؟ فان كان ما نستحسنه هو الاقرب الى عقولنا والأيسر عندنا فى الامكان فقد حق لنا أن نفضـله وننكر ما عداه ، وان عرفنا بعد المقابلة بينهما ان الـذى ننكره أقرب الى العقل والامكان من الذى نستحسنه .. فقد وجبت علينا مراجعة التفكير ووجب فى رأينا ، قبل رأى غيرنا ، أن نصنع الاناة ونتردد فى الحزم والتفضيل

ونبدأ الآن من البداءة فى هذه الفاتحة فنقول ان أكبر الشبهات التى تعترض عقول المتشككين والمنكرين شبهتان: هما شبهة الشر فى العالم ، وشبهة الخرافة فى كثير مـن العقائد الدينية . وخلاصة شبهة الشر أنهم لا يستطيعون التوفيق بين وجود الشر فى العالم وبين الايمان باله قدير كامل فى جميع الصفات . وخلاصة شبهة الخرافة فى كثير من العقائد الدينية أنهم لا يستطيعون التوفيق بين العقائد وبين المحسوسات والمعقولات التى تتكشف عنها معارف البشر كلما تقدموا فى معارج الرقى والادراك

شبهة الشر

أما شبهة الشر فهى من أقدم الشبهات التى واجهت عقل الانسان منذ عرف التفرقة بين الخير والشر ، وعرف أنهما صفتان لا يتصف بهما كائن واحد .. وربما كان تفريق الانسان الهمجى بين شعائر السحر وبين شعائر العبادة مقدمة الحلول الكثيرة التي عالج الانسان البدائى أن يحل بها هذه المشكلة العصية .. ثم ترقى الانسان فى معارج الحضارة والادراك فاهتدى الى حل اخر أوفى من هذا الحل الساذج وأقرب الى المعقول ، وذاك حيث آمن بالاهين اثنين وسمى أحدهما باله النور وسمى الآخر باله الظلام .. وجعل النور عنوانا لجميع الخيرات والظلام عنوانا لجميع الشرور

الا أن هذا الحل على ارتقائه ووفائه بالقياس الى الحلول البدائية فى عقائد القبائل الهمجية لن يرضى عقول المؤمنين بالتوحيد ولن يحل لهم مشكلة الشر فى الوجود ولن يزال فى عرفهم حتى اليوم ضربا من الكفر يشبه جحود الجاحدين وتعطيل المعطلين

ولعلنا لم نطلع على حل لهذه المشكلة العصية أوفى من الحل الذى نطلق عليه اسم حل الوهم ، ومن الحل الذي

نطلق عليه اسم حل التكافل بين أجزاء الوجود

وخلاصة حل الوهم ، أن القائلين به يعتقدون أن الشر وهم لا نصيب له من الحقيقة وأنه عرض زائل يتبعه الخير الدائم . ومن الواضح أن هذا الحل لا يفض الاشكال ، ولا يغنى عن التماس الحلول الاخرى التي تريح ضمير المعتقد به ، فضلا عن المعترضين عليه .. اذ لا نزاع فى تفضيل اللذة الموهومة على الالم الموهوم .. ولا يزال الاعتراض على الالم لغير ضرورة قائما فى العقول ما دام فى الامكان أن تحل لذاتنا الموهومة محل الامنا الموهومة

وخلاصة الحل الذى نطلق عليه اسم حل التكافل بين أجزاء الوجود أن المعتقدين به يرون أن الشر لا يناقض الخير فى جوهره ، ولكنه جزء متمم له أو شرط لازم لتحقيقه .. فلا معنى للشجاعة بغير الخطر ، ولا معنى للكرم بغير الحاجة ، ولا معنى للصبر بغير الشدة ، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها . وقد يطرد هذا القول فى لذاتنا المحسوسة .. يطرد فى فضائلنا النفسية ومطالبنا العقلية ، اذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع ، ولا نستمتع بالرى ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح

وهذا الحل — حل التكافل بين أجزاء الوجود — أوفى وأقرب الى الاقناع من جميع الحلول التى عولجت بها هذه المشكلة على أيدى الحكماء أو على أيدى فقهاء الاديان ، ولكنها لا تغنى الحائر المتردد عن سؤال لابد له من جواب وهو : لماذا كان هذا التكافل لزاما فى طبيعة الوجود ؟ ولماذا يتوقف الشعور باللذة على الشعور بالالم أو يتوقف تقدير قيمة الفضيلة على وجود النقيصة وضرورة

الاشمئزاز منها ؟ ٠٠ أليس الله بقادر على كل شيء ؟ أليس من الاشياء التى يقدر عليها أن يتساوى لديه خلق اللذة وخلق الالم ؟ أليس خلق اللذة أولى برحمة الاله الرحيم من خلق الالم كيف كان وكيف كان موقعه من التكافل بينه وبين اللذات ؟

وعندنا أن المشكلة كلها بعد جميع ما عرضناه من حلولها انما هى مشكلة الشعور الانسانى وليست فى صميمها بالمشكلة العقلية ولا بالمشكلة الكونية ٠٠

وهنا نعود الى الباب الذى نستفتح به مسالك هذه المشكلات ونسأل أنفسنا : اذا كان الاله الذى توجد النقائص والآلام فى خلقه الها لا يبلغ مرتبة الكمال المطلق ، فكيف يكون الاله الذى يبلغ هذه المرتبة فى تصورنا وما ترتضيه عقولنا ؟ ٠٠

أيكون الها قديرا ثم لا يخلق عالما من العوالم على حالة من الحالات ؟ أيكون الها قديرا يخلق عالما يماثله فى جميع صفات الكمال ٠٠

هذا وذاك فرضان مستحيلان أو بعيدان عن المعقول ، كل منهما أصعب فهما وأعسر تصورا من عالمنا الذى ننكر فيه النقائص والالام ٠٠

فأما الاله القدير الذى لا يخلق شيئا فهو نقيضة من نقائض اللفظ لا تستقيم فى التعبير بله استقامتها فى التفكير ، فلا معنى للقدرة ما لم يكن معناها الاقتدار على عمل من الاعمال ٠٠

وأما الكمال المطلق الذى يخلق كمالا مطلقا مثله فهو نقيضة أخرى من نقائض اللفظ لا تستقيم كذلك فى التعبير بله استقامتها فى التفكير ، فان الكمال المطلق صفة منفردة لا تقبل الحدود ولا أول لها ولا اخر ٠٠ وليس فيها محل لما هو كامل وما هو أكمل منه ٠ ومن البديهى أن يكون

الخالق أكمل من المخلوق وألا يكون كلاهما متساويين فى جميع الصفات • وألا يخلو المخلوق من نقص يتنزه عنه الخالق ، فاتفاقهما فى الكمال المطلق مستحيل يمتنع على التصور ولا يحل تصوره مشكلة من المشكلات • وأى نقص فى العالم المخلوق فهو حقيق أن يتسع لهذا الشر الذى نشكوه ، وأن يقترن بالالم الذى يفرضه الحرمان على المحرومين ، وبخاصة اذا نظرنا الى الاجزاء المتفرقة التى لابد أن يكون كل جزء منها قاصرا عن جميع الاجزاء ، وأن يكون كل شىء منها مخالفا لما عداه من الاشياء

فوجود الشر فى العالم لا يناقض صفة الكمال الالهى ولا صفة القدرة الالهية •• بل هو ولا ريب أقرب الى التصور من تلك الفروض التى يتخيلها المنكرون والمترددون ولا يذهبون معها خطوة فى طريق الفهم وراء الخيال المبهم العقيم ••

وقد يختلف مدلول القدرة الالهية ومدلول النعمة الالهية بعض الاختلاف فى هذا الاعتبار •• فمدلول القدرة الالهية يستلزم ـ كما تقدم ـ خلق هذا العالم الموجود ، ولكن مدلول النعمة الالهية يسمح لبعض المتشائمين أن يحسبوا أن ترك المخلوقات فى ساحة العدم أرحم بها من اخراجها الى ساحة الوجود ، ما دام الالم فيه قضاء محتوما على جميع المخلوقات • ومهما يكن من شيوع التشاؤم بين طائفة من المفكرين فليس تفسير النعمة الالهية بترك المخلوقات فى ساحة العدم تفسيرا أقرب الى المعقول من تفسير هذه النعمة الالهية بانعام الله على مخلوقاته بنصيب من الوجود يبلغون به مبلغهم من الكمال المستطاع لكل مخلوق ••

وليس الشر اذن مشكلة كونية ، ولا مشكلة عقلية ، اذا

أردنا بالمشكلة أنها شيء متناقض عصى على الفهم والادراك، ولكنه فى حقيقته مشكلة الهوى الانسانى الذى يرفض الالم ويتمنى أن يكون شعوره بالسرور غالبا على طبائع الامور ..

واذا كانت فى هذا الوجود حكمته التى تطابق كل حالة من حالاته ، فلابد من حكمة فيه تطابق طبيعة ذلك الشعور، ولا نعلم من حكمة تطابق طبيعة ذلك الشعور غير الدين..

ان الشعور الانسانى فى هذه المشكلة الجلى يتطلب الدين . فهل ثمة مانع يمنعه من قبل العقل أو من قبل المعرفة التى يكسبها من تقدمه فى العلم والحضارة ؟ هنا يستطرد بنا الكلام على مشكلة الشر الى الكلام على مشكلة الدين او مشكلة التدين فى جملته .وخلاصتها كما قدمنا عند المترددين والمعطلين أن الاديان قد اختلطت قديما بكثير من الخرافات وأن العقل يتعسر عليه أحيانا أن يوفق بين عقائد الدين وحقائق المعرفة العلمية

شبهة الخرافة

وهنا نعود مرة اخرى الى سؤالنا الذى افتتحنا به هذه الكلمة فنسأل المترددين والمعطلين : اذا كان التدين على هذه الحالة التى وجد بها غير حسن فى تقديركم فكيف يكون الحسن ؟ وكيف تتصورونه ممكنا على نحو أقرب الى العقل وأيسر فى الامكان ؟

وكأننا بهم يقترحون دينا لا يركن اليه الا النخبة المختارة من كبار العقول الذين لا تتسرب الخرافة الى مداركهم فى عصر من العصور ، كائنا ما كان موقع ذلك العقل من درجات التقدم والحضارة

هذا ، أو يقترحون دينا يتساوى فيه كبار العقول وصغارهم تساويا اليا لا عمل فيه لاجتهاد الروح وتربية الضمير واستفادة المستفيد من كفاح الحوادث وتجارب الحياة

هذا ، أو يقترحون دينا يتبدل فى كل فترة تبدلا اليا كلما تبدلت معارف الامم فى مختلف الازمنة أو مختلف البلدان

ومهما نسترسل فى تصور المقترحات التى تخطر للمترددين والمعطلين فلا نخال أننا منتهون الى مقترح

يرونه ويراه غيرهم أقرب الى التصور وأيسر من الدين فى تاريخه المعهود • فان اطوار التدين كما نشأت من أقدم عصورها الى اليوم لا تزال اقرب الى المعقول من كل مقترح ذكروه أو ذكرناه على ألسنتهم بين هذه الفروض

فالنخبة المختارة من كبار العقول لا تحتاج الى تعاليم الدين كما تحتاج اليه طوائف البشر من الجهلاء او صغار العقول • وقد يتنزه أبناء النخبة المختارة عن الخرافة فى اونة محدودة ولكنهم لن يتنزهوا عنها فى كل اونة مع التسليم بتطور العلم وتطور الادراك الذى يستفيد من جملة العلوم ••

أما أن يتساوى الناس تساويا اليا فى كشف حقائق الكون من أول عهد البشر بالتدين الى اخر عهدهم المقدور لهم من الحياة الارضية ـ فانما هو نكسة بهم الى حالة لا فرق بينها وبين احوال الجماد او أحوال الالات التى لا عمل فيها لاجتهاد الروح ولا لتربية الضمير

وأما أن تتبدل العقائد فى كل لحظة تتغير فيها مدركات العلوم ومدركات المعرفة على العموم فتلك حالة نحاول أن نتصورها فى أطوار الجماعات فلا نرى أنها قابلة للتصور فى جماعة واحدة تعيش من أسلاف الى أخلاف مئـــــات السنين ، أو الوف السنين ، اللهم الا اذا تصورنا عقول هذه الجماعة وضمائرهم فى صورة الصفحات التى تنقلب صفحة بعد صفحة حين تعرض على قرائها وهم يريدون تقليبها أو لا يريدون

كل هذه الصور يقترحها من يشاء ولا يكلف نفسه أن يتمادى مع صورة منها فى التخيل أو يعالج تطبيقها فى الواقع اذا استطاع •• وما هو بمستطيع ••

ونكاد نقول عن نشأة التدين بين جماعات البشر كما

نشأ فى عالم الواقع أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، لولا أننا نرى أن الزمان المتطاول قد يمكن فيه اليوم ما لم يكن ممكنا بالامس وقد يمكن فيه غدا ما ليس بممكن فى يومنا هذا ، ولا فى الايام التى سلفت · وقد يمكن فيه عند قوم فى العصر الواحد مايتمذر على آخرين فى العصر نفسه ·· الا أننا ندين بقول القائلين : « أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان » اذا نظرنا الى تطور الدين نظرة تحيط بأطواره كلها فى جميع الازمنة وبين جميع الاقوام وينبغي أن نذكر أن التعبير الرمزى والعقيدة الايمانية لازمتان من لوازم الشعور الدينى لا تنفصلان عنه ولا يتأتى لنا أن نفهم ظواهره وخوافيه ما لم نكن على استعداد لتفسير هذا التعبير وقبول ذلك الايمان

ولسنا نقبل التعبير الرمزى والعقيدة الايمانية ترخصا مع الدين وحده برخصة لا نلتمسها مع سائر المدركات الحسية أو النفسية ، لاننا نعلم ان التعبير الرمزى والعقيدة الايمانية لازمتان من لوازم تكوين الانسان فى مدركات حسه ومدركات نفسه على اختلاف الاساليب ومعارض الادراك

فأى أدراك للانسان أصدق عنده من ادراك العيان ؟ وما هى حقيقة هذا الادراك ان لم يكن فى صميمه تعبيرا رمزيا نضع له من الاسماء ما ليس بينه وبين الواقع مطابقة غير مطابقة الرمز للحقيقة التى ترمز اليها ؟ فنحن نسمى الالوان بأسمائها ثم نرجع الى حقائقها فلا نعلم لها حقيقة فى الواقع الا أنها ذبذبات كما يقال فى أمواج الاثير ، ولا نعلم للاثير من حقيقة فى الواقع غير أنه كما يقال فرض نقول به لاننا لا نريد أن نقول بفرض العدم او بفرض الفضاء والخلاء

ومن أمثلة العقيدة الايمانية التي نلمسها في كل حي أو نلمسها في كل مولود ، أن الآباء والامهات يحبون ذريتهم ولا يقبلون بديلا منها ، ولو كان البديل خيرا من تلك الذرية واجمل منظرا وافضل مخبرا وأدعى الى الغبطة والرجاء . ولا بقاء لانواع الاحياء اذا قامت الابوة على عاطفة غير هذه العقيدة الايمانية التي يرتبط بها قوام الحياة . ولا يختلف اثنان في وصف هذا الحنان الابوى بالمغالاة اذا أردنا أن نجرد الحياة من صواب العاطفة أو صواب العقيدة ولا ندين فيها بغير صواب العقول

فاذا وجب علينا ان نقبل التعبير الرمزى والعقيدة الايمانية في مدركات الدين فنحن لا نترخص مع الدين وحده بهذه الرخصة الشائعة عندنا نحن بنى الانسان في جميع مدركاتنا ، بل نحن نسوى بين رخصة الدين ورخصة الحس ورخصة العقل في هذه اللغة الحيوية التي ينطق بها كل حي مع اختلاف الظروف والعبارات

على أننا لا نبتغي بدعا من العقل اذا ميزنا الدين برخصة لا تساويها رخصة قط فيما تدركه الحواس أو تدركه العقول . لان مدركات الدين تشمل اصول الوجود وأسرار الخليقة وتتطلع الى بواطن الغيب كما تتطلع الى ما وراء حدود هذا العالم المحدود ، كما ارتفعت بها اشواقها الى سماء الكمال المطلق : كمال الخالق المبدع لجميع هذه المخلوقات .

فاذا قبلنا من عقولنا وحواسنا ان تقنع بالتعبير الرمزى والعقيدة الايمانية في ادراك خليقة محدودة من هذه الخلائق التي لا عداد لها فانه لمن الشطط أن نسوم العقل ادراكا للحقيقة المطلقة يخلو من الرموز ويتجرد من عنصر الايمان

ولكن واقعيين مع الواقعيين فى كلامنا عن مشكلة الدين . فاننا كنا الى الان فى هذه الفاتحة عقليين ، نحتكم الى البرهان فى محاسبة الدين ومراجعة الشبهات التى تواجه المترددين والمعطلين ويواجهون بها عقائد الاديان على الاجمال

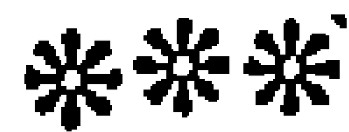
فماذا لو أضفنا الى حجة العقل حجة الواقع من تجارب التاريخ وتجارب الحاضر فى شئون الجماعات الانسانية وشئون كل فرد من بنى الانسان على حدة بينه وبين جماعته أو بينه وبين نفسه ؟

ان تجارب التاريخ تقرر لنا اصالة الدين فى جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لاحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شىء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه فى علاقته بتلك الجماعة أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمن حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس اليه . ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الانسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل المؤثرة فى حركات الامم فانما تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن من اصالة الشعور وبواطن السريرة

هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العرف ولا قوة الاخلاق ولا قوة الشرائع والقوانين اذ كانت هذه القوة انما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الاوطان والاقوام . أما الدين فمرجعه الى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره . وميدانه يتسع لكل ما فى الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض

أو مصير ، الى غير نهاية بين آزال لا تحصى فى القدم وآباد لا تحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب • وهذا على الاقل هو ميدان العقيدة الدينية فى مثلها الاعلى وغايتها القصوى وان لم تستوعبها ضمائر المتدينين فى جميع العصور

ومن أدلة الواقع على اصالة الدين ، أنك تلمس هـذه الاصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة والجماعة التى لا دين لها أو لا تعتصم من الدين بركن ركين • وكذلك تلمس هذه الاصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة وفرد معطل الضمير مضطرب الشـعور يمضى فى الحياة بغير محور يلوذ به وبغير رجاء يسمو اليه . فهذا الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة فى منبتها وشجرة مجتثة من اصولها ، وقل أن ترى أنسانا معطل الضمير على شىء من القوة والعظمة الا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم اذا حلت العقيدة فى وجدانه محل التعطل والحيرة



وبعد ، فنحن نختم هذه الفاتحة كما بدأناها بالتنبيه الى غرضنا من هذه المناقشة الوجيزة لشبهات المترددين والمعطلين على التدين فى أساسه ، فنقول فى ختامها كما قلنا فى مستهلها اننا لا نحسب أن مناقشة من المناقشات فى هذا الموضوع الجلل تحسم الخلاف وتختم المطاف • ولكننا نطمع بحق فى الابانة عن مواطن الضعف من تلك الشبهات ونعلم أنها أضعف من أن تقتلع اصول العقيدة الدينية من الطبيعة الانسانية ، وأنها تتهافت تباعا كلما استحضر الباحث فى خلده شرائط الدين المعقولة التى تلازمه حتما فى رأى المؤمن بدين من الاديان وفى رأى المنكر لجميع الاديان على السواء

فمن شرائط الدين اللازمة أن تدين به جماعة يمتد

أجلها وراء اجال الافراد وتتعاقب فيها الاجيال حقبة بعد حقبة الى أمد بعيد • فلا يؤخذ على الدين اذن أنه يناسب هذه الاجيال حيث تأخرت كما يناسبها حيث تقدمت على مر الزمان مع تطور العلم والحضارة

ومن شرائط الدين اللازمة أن تدين به الامة فى العصر الواحد على تفاوت ابنائها فى المعرفة والسجية والرأى والمشرب • فلا يؤخذ على الدين اذن أن يدخل فيه حساب العالم والجاهل وحساب الرفيع والوضيع وحساب الطيب والخبيث وحساب الذكى النابغ والغبى الخامل

ومن شرائط الدين اللازمة أن يريح الضمير فيما يجهله الانسان - ولابد أن يجهل - من شئون الغيب وأسرار الكون • لانها الشئون والاسرار التى لا يحيط بها عقله المحدود ولا تبديها له ظواهر الزمان والمكان • فلا يؤخذ على الدين أذن أن يتولى تقريب هذه الاسرار الابدية بأسلوب المجاز والتشبيه أو بأسلوب الرمز الذى تدركه العقول البشرية على مقدار حظها من الفطنة والنفاذ الى بواطن الامور وخفايا الشعور

ومتى توفرت النفس على تسليم هذه الشرائط اللازمة لكل دين من الاديان فقد وجب على العارفين أن يضطلعوا بالتوفيق بينها وبين مطالب الجماعة ومطالب الزمن ومطالب السريرة فى أعماقها ، حيث تتصل بعالم الغيب وعالم الشهادة صلاتها التى لا تنقطع لمحة عين

***

وظاهر من سياق الكلام عن الدين فى هذه الفاتحة أننا نعنى به التدين على اطلاقه ونريد أن ندل على أصالته فى حياة الفرد وحياة الامة ، ومتى عرفنا للتدين أصالته فى كلتا الحياتين منذ ألوف السنين •• فليس ما يمنع أن

يكون بين الديانات التى آمن بها البشر قديما وحديثا ديانة أفضل من ديانة وعقيدة أقرب من عقيدة الى الكمال ..

وانما تفضل الديانة سواها بمقدار شمولها لمطـــالب الروح وارتقاء عقائدها وشعائرها فى افاق العقل والضمير وكذلك كانت الديانة الاسلامية ـ كما امنا بها ـ ملة لا تفضلها ملة فى شمول حقائقها ، وخلوص عبادتهـــا وشعائرها من شوائب الملل الغابرة ..

وذلك هو موضوع هذا الكتاب فيما يعرضه من حقائق الاسلام وفيما يعرض له من أباطيل المفترين عليه ..

ان بعض العقائد ليصيب النفس بما يشبه داء الفصام ، لانه يقسم الشخصية الانسانية على نفســـها ، ويمزق الضمير الحائر بين نوازع الجســـد ونوازع الروح وبين سلطان الارض وسلطان السمـــاء وبين فرائض السعى وفرائض العبادة .. وشمول العقيدة الاسلامية هو الذى يعصم ضمير المسلم من هذا الفصام الروحانى وهو الذى يعلمه أن يرفع رأسه حين تدول دولته أمام المســـيطرين عليه ، وهو الذى يحفظ كيان الامم الاسلامية أمام الضربات التى تلاحقت عليها من غارات الفاتحين أو غارات الحروب الصليبية أو غارات الاستعمار والتبشير

وشمول العقيدة الاسلامية هو الذى حقق للاسلام ما لم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل الامم العـــريقة التى تدين بالكتب المقدسة الى الايمان به عن طواعية واختيار ، كما آمنت به الامم المسيحية والمجوســية والبرهمية فى مصر وسوريا وفارس والهند والصين

ولقد عزى انتشار الاسلام فى صدر الدعوة المحمدية الى قوة السيف ، وما كان للاسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الاقوياء ، بل كان المسلمون هم ضـــحايا

السيف وطرائد الغشم والجبروت ، وان عدد المسلمين اليوم بين أبناء الهند والصين وأندونيسية والقارة الافريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الاقطار ما يكفى لتحويل الالاف المعدودة ـ فضلا عن مئات الملايين ـ من دين الى دين

ولقد عزى انتشار الاسلام بين السود من أبناء القارة الافريقية الى سماح الاسلام بتعدد الزوجات ، وما كان تعدد الزوجات بالامر الميسور لكل من يشتهيه من أولئك السود المقبلين على الدين الاسلامى بغير مجهود . ولكنهم يجدون الخمرة ميسرة لهم حيث أرادوها وقد حرمها الاسلام أشد التحريم .. فلم ينصرف عنه السود لانه قد حال بينهم وبين شهوة الشراب التى قيل أنها كانت شائعة بينهم شيوع الطعام والغذاء

انما هو شمول العقيدة الاسلامية دون غيره هو العامل القوى الذى يجمع اليه النفوس ويحفظ لها قوة الايمان ، ويستغنى عن السيف وعن المال فى بث الدعوة ، كلما تفتحت أبوابها أمام المدعوين اليها بغير عائق من سلطان الحاكمين والمتسلطين

قلنا فى باب العقيدة الشاملة من كتابنا عن الاسلام فى القرن العشرين :

« ويبدو الى الذهن ان الشمول الذى امتازت به العقيدة الاسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب ولا بد لاظهارها من بحث عويص فى قواعد الدين وأسرار الكتاب وفرائض المعاملات ، فليست هى مما يراه الناظر الوثنى أو الناظر البدوى لاول وهلة قبل أن يطلع على حقائق الديانة ويتعمق فى الاطلاع

ومن المحقق ان ادراك الشمول من الوجهة العلمية لا يتأتى بغير الدراسة الوافية والمقارنة المتغلغلة فى وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف بين الديانات وبخاصة فى شعائرها ومراسمها التى يتلاقى عليها

المؤمنون فى بيئاتهم الاجتماعية

ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الاسلامية من مراقبة أحوال المسلم فى معيشته وعبادته ، ويكفى أن يرى المسلم مستقلا بعبادته عن الهيكل والصنم والايقونة والوثن ليعلم انه وحدة كاملة فى دينه ويعلم من ثم كل ما يرغبه فى ذلك الدين أيام أن كان الدين كله حكرا للكاهن . ووقفا على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة

لقد ظهر الاسلام فى ابان دولة الكهانة والمراسم وواجه اناسا من الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود الى حالة كحالة الوثنية فى تعظيم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن فى كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العبادة ، ولاح للناس فى القرن السابع للميلاد خاصة ان (المتدين) قطعة من المعبد لا تتم على انفرادها ولا تحسب لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه : فالدين كله فى المعبد عند الكاهن ، والمتدينون جميعا قطع متفرقة لا تستقل يوما بقوام الحياة الروحية ولا تزال معيشتها الخاصة والعامة تثوب الى المعبد لتتزود منه شيئا تتم به عقيدتها ولا تستغنى عنه مدى الحياة ..

لا دين بمعزل عن المعبد والكاهن والايقونة ، سواء فى العبادة الوثنية أو فى عبادة أهل الكتاب الى ما بعد القرن السابع بأجيال متطاولة ..

فلما ظهر المسلم فى تلك الآونة ظهر الشمول فى عقيدته من نظرة واحدة ، ظهر انه وحدة كاملة فى أمر دينه يصلى حيث شاء ولا تتوقف له نجاة على مشيئة أحد من الكهان ، وهو مع الله فى كل مكان ..

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ

ويذهب المسلم الى الحج فلا يذهب اليه ليغتنم من أحد بركة أو نعمة يضفيها عليه ولكنه يذهب اليه كما يذهب الالوف من اخوانه. ويشتركون جميعا فى شعائره على سنة المساواة ، بغير حاجة الى الكهانة والكهان . وقد يكون السدنة الذين يراهم مجاورين للكعبة خداما لها وله يدلونه حين يطلب منهم الدلالة ، ويتركهم ان شاء فلا سبيل لاحد منهم عليه

فاذا توسع قليلا فى العلم بشعائر الحج علم ان الحج لا يفرض عليه زيارة قبر الرسول ، وان هذه الرسالة ليست من مناسك الدين وأنها تحية منه يؤديها من عنده غير ملزم ، كما يؤدى التحية لكل دفين عزيز محبوب لديه

واذا توسع قليلا فى مكان ذلك الرسول من الدين قرأ فى القرآن الكريم :

« قلْ إنَّمَا أنا بشرٌ مثلكم يُوحَى إليَّ ... »

« سورة الكهف »

وقرأ فيه : « فإنْ أعْرضوا فما أرسلناكَ عليهم حَفيظاً ، إنْ عليكَ إلاّ البَلاغُ »

« سورة الشورى »

وقرأ فيه : « قُلْ أطِيعُوا الله وأطيعُوا الرسولَ فإنْ تَوَلَّوْا فإنَّمَا عليهِ ما حُمِّل وعليكُم ما حُمِّلْتُمْ ، وإن تُطيعُوه تَهتَدُوا ، وما عَلَى الرسولِ إلا البلاغُ المُبينُ »

« سورة النور »

وقرأ فيه : « وما أنْتَ عليهمْ بِجَبَّارٍ »

« سورة ق »

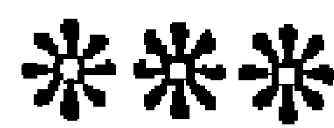
وقرأ فيه : « لستَ عليهمْ بمسيْطرٍ »

« سورة الغاشية »

وقرأ فيه : «وما أرسلناكَ إلا كَافَةً لِلناسِ بَشِيراً ونَذِيراً»

« سورة سبأ »

وقرأ فيه آيات لا تخرج فى وصف الرسالة عن معنى هذه الآيات



مر بنا ان فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن دينهم ودخولهم أفواجا فى عقيدة المسلمين

مثل هذا لا يحصل فى أمة اسلامية فسد فيها رجال دينها ... فما من مسلم يذهب الى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك اليك فانني لا أومن به ، لانني لا أومن بك ، ولا أدى فى سيرتك مصدقا لاوامرك ونواهيك أو أوامره ونواهيه

كلا ... ما من رجل دين يبدو للمسلم انه صاحب الدين وانه حين

يؤمن بالله يؤمن به لانه اله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبين الله أو يعطيه من نعمته قواما لروحه

« . . . والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير . يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد »

« سورة فاطر »

نعم كلهم فقراء الى الله ، وكلهم لا فضل لواحد منهم على سائرهم الا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء ، فان لم يجدوا المسجد فمسجدهم كل مكان فوق الارض وتحت السماء

ان عقيدة المسلم شىء لا يتوقف على غيره ولا تبقى منه بقية وراء سره وجهره ، ومن كان اماما له فى مسجده فلن ترتفع به الامامة مقاما فوق مقام النبى صاحب الرسالة : النبى الذى يبشر وينذر ، ولا يتجبر ولا يسيطر ، ويبلغ قومه ما حمل وعليهم ما حملوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين

ومنذ يسلم المسلم يصبح الاسلام شأنه الذى لا يعرف لاحد حقا فيه أعظم من حقه أو حصة فيه أكبر من حصته ، أو مكانا يأوى اليه ولا يكون الاسلام فى غيره

كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، أو بين الجسد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتماله ويحفزها فى الواقع الى طلب العقيدة ولا يكون هو فى ذاته عقيدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » ،

« سورة القصص »

« وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا . ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه »

« سورة الاحزاب »

فاذا كانت العقيدة التى تباعد المسافة بين الروح والجسد تعفينا من العمل حين يشق علينا العمل ـ فالعقيدة التى توحد الانسان وتجعله كلا مستقلا بدنياه وآخرته شقاء له من ذلك الفصام الذى لا تستريح اليه السريرة الا حين يضطر الى الهرب من عمل الانسان الكامل فى حياته ، وحافز له الى الخلاص من القهر كلما غلب على أمره ووقع فى قبضة سلطان غير سلطان ربه ودينه

ومن هنا لم يذهب الاسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر لان الامر فى الاسلام كله لله « بل لله الامر جميعا » .. « ولله المشرق والمغرب » .. « رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون »

وانما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التى لا يقبلها المتدين وهو قادر على تطويع قيصر بأمر الله ... وهذا التطويع هو الذى أوجبته العقيدة الشاملة وكان له الفضل فى صمود الامم الاسلامية لسطوة الاستعمار وايمانها الراسخ بأنها دولة دائلة وحالة لابد لها من تحويل

وقد ابت هذه العقيدة على الرجل أن يطيع الحاكم بجزء منه ويطيع الله بغيره ، وأبت على المرأة أن تعطى بدنها فى الزواج لصاحبها وتنأى عنه بروحها وسريرتها ، وأبت على الانسان جملة أن يستريح الى « الفصام الوجدانى » ويحسبه حلا لمشكلة الحكم والطاعة قابلا للدوام ..

ان هذا الشأن العظيم ـ شأن العقيدة الشاملة التى تجعل المسلم « وحدة كاملة » ـ لا يتجلى واضحا قويا كما يتجلى من عمل الفرد فى نشر العقيدة الاسلامية ، فقد أسلم عشرات الملايين فى الصحارى الافريقية على يدى تاجر فرد أو صاحب طريقة منفرد فى خلوته لا يعتصم بسلطان هيكل ولا بمراسم كهانة ، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة ، فجملة من أسلموا فى البلاد التى انتصرت فيها جيوش الدول الاسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليونا بين الهلال الخصيب وشواطىء البحرين الابيض والاحمر ، فأما الذين أسلموا بالقدرة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين ، او هم كل من أسلم فى الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى افريقية وشواطئها ، الا القليل الذى لايزيد فى بداءته على عشرات الالوف

***

وينبغى أن نفرق بين الاعتراف بحقوق الجسد وانكار حقوق الروح، فان الاعتراف بحقوق الجسد لا يستلزم انكار الروحانية ولا الحد من سبحاتها التى اشتهرت باسم التصوف فى اللغة العربية أو اشتهرت باسم « الخفيات والسريات » فى اللغات الغربية Mysticism

اذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد كما لا يوصف بالشمول

دين ينكر الروح ، وقد أشار القرآن الكريم الى الفارق بين عالم الظاهر وعالم الباطن فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وذكر تسبيح الموجودات ما كانت له حياة ناطقة وما لم تكن له حياة ..

« وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ..

وأشار الى هذه الاشياء ، بضمير العقلاء ، وعلم منه المسلمون ان الله أقرب اليهم من حبل الوريد وانه نور السموات والارض وانه « هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم »

وحسب المرء أن يتعلم هذا من كتاب دينه ليبيح لنفسه من سبحات التصوف كل ما يستباح فى عقائد التوحيد ، ولعله لم يوجد فى أهل دين من الاديان طرق للتصوف تبلغ ما بلغته هذه الطرق بين المسلمين من الكثرة والنفوذ ، ولا وجه للمقابلة بين الاسلام وبين البرهمية أو بين البوذية مثلا فى العقائد الصوفية . فان انكار الجسد فى البرهمية أو البوذية يخرجها من عداد العقائد الشاملة التى يتقبلها الانسان بجملته غير منقطع عن جسده أو عن دنياه ..

وحسب المرء أن يرضى مطالبه الروحية ولا يخالف عقائد دينه ليوصف ذلك الدين بالشمول ويبرأ فيه الضمير من داء الفصام

كذلك يخاطب الاسلام العقل ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان ، وفى حكمه ان النظر بالعقل هو طريق الضمير الى الحقيقة ، وان التفكير باب من أبواب الهداية التى يتحقق بها الايمان

« قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا »

« سورة سبأ »

« كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ »

« سورة البقرة »

وما كان الشمول فى العقيدة ليذهب فيها مذهبا أبعد وأوسع من خطاب الانسان روحا وجسدا وعقلا وضميرا بغير بخس ولا افراط فى ملكة من هذه الملكات .

وفى مشكلة المشكلات التى تعرض للمتدين يعتدل المسلم بين الايمان بالقدر والايمان بالتبعة والحرية الانسانية ، فمن عقائد دينه « أن أجل الله اذا جاء لا يؤخر » ... « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب »... « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله » « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا »

ومن عقائد دينه أيضا :

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . »

« سورة الرعد »

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ »

« سورة هود »

« وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ »

« سورة الشورى »

وليس فى الاسلام ان الخطيئة موروثة فى الانسان قبل ولادته . ولا انه يحتاج فى التوبة عنها الى كفارة من غيره . وقد قيل ان الايمان بالقضاء والقدر هو علة جمود المسلمين ، وقيل على نقيض ذلك انه كان حافزهم فى صدر الاسلام على لقاء الموت وقلة المبالاة بفراق الحياة ، وحقيقة الامر أن المسلم الذى يترك العمل بحجة الاتكال على الله يخالف الله ورسوله لانه مأمور بأن يعمل فى آيات الكتاب وأحاديث الرسول « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ... بل حقيقة الامر ان خلاصه كله موقوف عليه ، وان ايمانه بحريته وتدبيره لا يقتضى بداهة ان الله سبحانه مسلوب الحرية والتدبير

وأصدق ما يقال فى عقيدة القضاء والقدر أنها قوة للقوى وعذر للضعيف وحافز لطالب العمل وتعلة لمن يهابه ولا يقدر عليه ، وذلك ديدن الانسان فى كل باعث وفى كل تعلة كما أوضحنا فى الفارق بين أبى الطيب المتنبى وأبى العلاء المعرى وهما يقولان بقول واحد فى عبث الجهد وعبث الحياة

فأبو الطيب يقول من مراد النفوس :

ومراد النفوس أهون من أن ... نتعادى فيه وأن نتفانى

ثم يتخذ من ذلك باعثا للجهاد والكفاح فيقول :

غير أن الفتى يلاقى المنايا ... كالحات ولا يلاقى الهوانا

والمعرى يقول ان التعب عبث لانه لا يؤدى بعده الى راحة فى الحياة . ولكنه يعجب من أجل هذا لمن يتعبون ويطلبون المزيد

تعب كلها الحياة فما أعـ ... ـجب الا من راغب فى ازدياد

وعلى هذا المثال يقال تارة ان عقيدة القضاء والقدر نفعت المسلمين فيقال تارة أخرى أنها ضرتهم وأوكلتهم الى التواكل والجمود ، وصواب القول انهم ضعفوا قبل أن يفسروا القضاء والقدر ذلك التفسير ، وتلك خديعة الطبع الضعيف

وتوصف العقيدة الاسلامية بالشمول لانها تشمل الامم الانسانية جميعا كما تشمل النفس الانسانية بجملتها من عقل وروح وضمير

فليس الاسلام دين أمة واحدة ولا هو دين طبقة واحدة ، وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المسلطين ، ولكنه رسالة تشمل بنى الانسان من كل جنس وملة وقبيل :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً »..

« سورة سبأ »

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ »..

« سورة الاعراف »

«قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

« سورة البقرة »

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ »

« سورة البقرة »

فهذه عقيدة انسانية شاملة لا تخص بنعمة الله أمة من الامم لانها

من سلالة مختارة دون سائر السلالات لفضيلة غير فضيلة العمل والصلاح :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »

« سورة الحجرات »

وفي أحاديث النبي عليه السلام انه « لا فضل لعربي على عجمي ولا لقرشي على حبشي الا بالتقوى »

وليس للاسلام طبقة يؤثرها على طبقة أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالناس درجات يتفاوتون بالعلم ويتفاوتون بالعمل ويتفاوتون بالرزق ويتفاوتون بالاخلاق

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »

« سورة المجادلة »

« لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم »

« سورة النساء »

« والله فضل بعضكم على بعض في الرزق »

« سورة النحل »

« هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

« سورة الزمر »

***

واذا ذكر القرآن الضعف فلا يذكره لان الضعف نعمة أو فضيلة مختارة لذاتها ، ولكنه يذكره ليقول للضعيف انه أهل لمعرفة الله اذا جاهد وصبر وأنف أن يسخر لبه وقلبه للمستكبرين ، والا فانه لمن المجرمين

« يقولُ الذين استُضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين قالَ الذين استكبروا للذين استُضعفوا أنحنُ صددناكم عن الهدى بعدَ إذ جاءكم بل كنتم مجرمين » « سورة سبا »

وما من ضعيف هو ضعيف اذا صبر على البلاء ، فاذا عرف الصبر عليه فانه لاقوى من العصبة الاشداء

فما كان الاله الذى يدين به المسلم اله ضعفاء أو اله أقوياء ، ولكنه اله من يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه انه يكون مع الله والله مع الصابرين

بهذه العقيدة الشاملة غلب المسلمون أقوياء الارض ثم صمدوا لغلبة الاقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير وذاق المسلمون بأس القوة مغلوبين مدافعين

وهذه العقيدة الشاملة هى التى أفردت الاسلام بمزية لم تعهد فى دين آخر من الاديان الكتابية ، فان تاريخ التحول الى هذه الاديان لم يسجل لنا قط تحولا أجماعيا اليها من دين كتابى آخر بمحض الرضى والاقتناع ، اذ كان المتحولون الى المسيحية أو الى اليهودية قبلها فى أول نشأتها أمما وثنية على الفطرة لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الاله الخالق المحيط بكل شىء ، ولم يحدث قط فى أمة من الامم ذات الحضارة العريقة انها تركت عقيدتها لتتحول الى دين كتابى غير الاسلام ، وانما تفرد الاسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية ، فتحولت اليه الشعوب فيما بين النهرين وفى أرض الهلال الخصيب وفى مصر وفارس ، وهى ــ فارس ــ أمة عريقة فى الحضارة كانت قبل التحول الى الاسلام تؤمن بكتابها القديم ، وتحول اليه أناس من أهل الاندلس وصقلية كما تحول اليه أناس من أهل النوبة الذين غبروا على المسيحية أكثر من مائتى سنة ورغبهم جميعا فيه ذلك الشمول الذى يجمع النفس والضمير ويعم بنى الانسان على تعدد الاقوام والاوطان ، ويحقق المقصد الاكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الاخلاق وآداب الاجتماع

وابراز هذه المزية ــ مزية العقيدة الاسلامية التى أعانت أصحابها

على الغلب وعلى الدفاع والصمود ـ هو الذى نستعين به على النظر فى مصير الاسلام بعد هاتين الحالتين ، ونريد بهما حالة القوى الغالب وحالة الضعيف الذى لم يسلبه الضعف قوة الصمود للاقوياء الى أن يحين الحين ويتبدل بين حالتى الغالب والمغلوب حالته التى يرجوها لغده المأمول ولئن كانت حالة الصمود حسنى الحالتين فى مواقف الضعف مع شمول العقيدة وبقائها صالحة للنفس الانسانية فى جملتها وللعالم الانسانى فى جملته ، ليكونن المصير فى الغد المأمول أكرم مايكون مع هذه القوة وهذا الشمول »

***

فى هذه العجالة عن شمول العقيدة الاسـلامية ألمامة كافية لمقصدنا فى هذا الكتاب الذى نود أن نستقصى فيه كل ما يستقصى عن حقائق الدين فى حيز هذه الصفحات

أما المزايا التى امتازت بها عقائد الاسلام وأحكامه فنحن مفردون لها مايلى من فصـول الكتاب الاربعة ، وهى مبدوءة بفصل عن العقائد ويليه فصل عن الحقوق وفصل عن المعاملات وفصل عن الاخلاق والاداب

ووجهتنا التى نتجه اليها فى هذه البحوث : « أولا » أن الاسلام يوحى الى المسلم عقيدة فى الذات الالهية وعقيدة فى الهداية النبوية وعقيدة فى الانسان لا تغلوها عقيدة فى الديانات ولا فى الحكمة النظرية أو الحكمة العملية

و « ثانيا » أن أحكام الاسلام لا تعوق المسلم عن غاية تفتحها أمامه أشواط العلم والحضارة

و « ثالثا » ان فى الاسلام زادا للامم الانسانية فى طريق المستقبل الطويل يواتيها بما فيه غنى لها حيث نضبت الازواد من وطاب العقائد الروحية أو تكاد

وباسم الله نتجه فى وجهتنا ، وعلى هدى من الايمان بالله ..

العقائد

الفصل الأول

- العقيدة الالهية
- عقيدة النبوة
- الانسان
- الشيطان
- العبادات



العقيدة الإلهيّة

العقيدة فى الاله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها • من عرف عقيدة قوم فى الههم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ومن صحة المقاييس التى يقاس بها الخير والشر وتقدر بها الحسنات والسيئات • فلا يهبط دين وعقيدته فى الاله عالية ، ولا يعلو دين وعقيدته فى الاله هابطة ليست مما يناسب صفات الموجود الاول التى تتبعه جميع الموجودات

ولقد كان النظر فى صفات الله مجال التنافس بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية واصحاب الحكمة الدينية ، وقد كانت مهمة الفلاسفة أيسر من مهمة حكماء الاديان ، لان الفيلسوف النظرى ينطلق فى تفكيره وتقديره غير مقيد بفرائض العبادة وحدود المعاملات التى يتقيد بها الحكم الدينى ويتقيد بها من يأتمون به من أتباعه فى الحياة العامة والمعيشة الخاصة • فظهر بين الفلاسفة النظريين من سما بالتنزيه الالهى صعدا الى أوج لا يلحق به الخيال فضلا عن الفكر والاحساس

وجاء الاسلام من جوف الصحراء العربية باسمى عقيدة فى الاله الواحد الاحد ، صححت فكرة الفلسفة النظرية

كما صححت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين ـ فى جانب النقص منهـــا ـ أعظم المعجزات التى اثبتت له فى حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحى من عند الله

يقال على الاجماع أن صفات الاله قد ارتفعت الى ذروتها العليا من التنزيه والتجريد فى مذهب « ارســـطو » الفيلسوف اليونانى الكبير

والذين يرون هذا الرأى لا ينسون مذهب « افلاطون » امام الفلسفة الافلاطونية الحديثة وشيخ الفلسفة الصوفية بين الغربيين الى العصر الاخير • غير أنهم لا يذكرونه فى معرض الكلام على التنزيه فى وصف الله لان مذهبه أقرب الى الغيبوبة الصوفية منه الى التفكير الجلى والمنطق المعقول وطريقته فى التنزيه أن يمعن فى الزيادة على كل صفة يوصف بها الله فلا يزال يتخطاها ثم يتخطاها كلمـــا استطاع الزيادة اللفظية حتى تنقطع الصلة بينها وبين جميع المدلولات المفهومة او المظنونة • ويرجح الاكثرون أن « أفلاطون » نفسه لم يكن يتصور ما يصوره من تلك الصفات ، وانما كانت غايته القصوى أن يذهب بالتصور الى منقطع العجز والاعياء

فمن ذلك أنه ينكر صفة الوحدانية ليقول بصـــفة الاحدية ويقول أن الواحد غير الاحد لان الواحد قد يدخل فى عداد الاثنين والثلاثة والعشرة ، ولا يكون الاحد الا مفردا بغير تكرار

ومن ذلك أنه ينكر صفة الوجود ليقـــول ان الله لا يوصف بانه موجود تنزيها له عن الصفة التى يقابلهـــا العدم وتشترك فيها الموجودات أو الموجدات

لهذا يضربون المثل بأرسطو فى تنزيه الاله ولا يضربون

المثل « بأفلاطون » لان مذهبه ينقطع فى صومعة من غيبوبة الذهول لا تمتزج بحياة فكرية ولا بحياة عملية

ومذهب أرسطو فى الاله انه كائن أزلى أبدى مطلق الكمال لا أول له ولا اخر ولا عمل له ولا ارادة •• مذ كان العمل طلبا لشيء والله غنى عن كل طلب ، وقد كانت الارادة اختيارا بين أمرين والله قد اجتمع عنده الاصلح الافضل من كل كمال فلا حاجة به الى الاختيار بين صالح وغير صالح ولا بين فاضل ومفضول • وليس مما يناسب الاله فى رأى أرسطو ان يبتدىء العمل فى زمان لانه أبدى سرمدى لا يطرأ عليه طارىء يدعوه الى العمل ولا يستجد عليه من جديد فى وجوده المطلق بلا أول ولا اخر ولا جديد ولا قديم • وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التى لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها ، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه .

فالاله الكامل المطلق الكمال لا يعنيه أن يخلق العالم أو يخلق مادته الاولى وهى « الهيولى » •• ولكن هذه « الهيولى » قابلية للوجود يخرجها من القوة الى الفعل شوقها الى الوجود الذى يفيض عليها من قبل الاله ، فيدفعها هذا الشوق الى الوجود ثم يدفعها من النقص الى الكمال المستطاع فى حدودها ، فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها انها من خلقة الله الا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار .

***

كمال مطلق لا يعمل ولا يريد :

أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء •• ولنذكر أنه أرسطو صاحب هذا المذهب قبل كل شيء ••

ولنذكر أنه ذلك العقل الهائل الذى يهابه من يحس قدرته فلا يجترىء عليه بالنقد والتسفيه قبـــل أن يفرغ جهده فى التماس المعذرة له من جهل عصره وقصـــور الافكار حوله لا من جهله هو أو قصور تفكيره .. فانه لم يعودنا فى تفكيره احتمالا قط لا يتقصاه الى قصارى مداه ولا يستوفى مقتضياته وموانعه جهد ما فى الطاقة الانسانية من استيفاء

لنذكر أنه أرسطو لكى نذكر أن هذا العقل النادر لم يؤت من نقص فى تصور الصفات العلوية الا لانه عاش فى زمان لم تتكشف فيه المعرفة عن خصائص هذه الكائنات الارضية « السفلى » التى نحسها ونعيش بينها ، ولو أنه عرف ما هو لاصق بها من خصائصها وأعراضها لكان له رأى فى الكمال العلوى غير ذلك الرأى الذى ارتآه بمحض الظن والقياس على غير مقيس ..

لقد كان يفهم من كمال الكائنات العلوية ــ السماوية ــ انها خالدة باقية لا تفنى لانها من نور والنور بسيط لا يعرض له الفناء كما يعرض على التركيب

ولو أن أرسطو عاش حتى علم أن المادة الارضـــية ــ السفلى ــ كلها من نور ، وأن عناصر المادة كلها تؤول الى الذرات والكهارب ، وأن هذه الذرات والكهارب تنشق فتؤول الى شعاع ــ لما ساقه الظن والقياس الى ذلك الخطأ فى التفرقة بين لوازم البقاء ولوازم الفناء ، أو بين خصائص البساطة وخصائص التركيب ..

ولعل ادراكه لذاك الخطأ فى فهم لوازم البســـاطة والكمال ، ولوازم البقاء والفناء كان خليقا أن يهديه الى فهم خطئه فى تصور لوازم الكمال الالهى ، فلا يمتنع فى عقله أن يجتمع الكمال الواحد من صفات عدة كالصفات

الحسنى التى وصف بها الاله فى الاسلام ، ومنها الرحمة والكرم والقدرة والفعل والارادة ، ولا يمتنع فى عقله أن يكون لهذه الصفات لوازمها ومقتضياتها ، اذ لا تكون قدرة بغير مقدور عليه ، ولا يكون كرم بغير اعطاء ، ولا تكون مشيئة بغير اختيار بين امرين ، واذا اختار الله امرا فهو لا يختاره لذاته سبحانه وتعالى بل يختاره لمخلوقاته التى تجوز عليها حالات شتى لا تجوز فى حق الاله ، واذا خلق الله شيئا فى الزمان فلا ننظرن الى الابدية الالهيــــة بل ينبغى أن ننظر الى الشيء الموجود المخلوق فى زمانه ثم لا مانع عقلا من أن تتعلق به ارادة الله الابدية على أن يكون حيث كان فى زمن من الازمان

لقد كان مفهوم البساطة الابدية الباقية عند أرسطو غير مفهومها الذى نلمسناه اليوم لمسا فى هذه الـــكائنات الارضية ـ السفلية ـ فلا جرم يكون مفهوم الكمال المطلق عندنا غير مفهومه الذى جعله أرسطو أشبه شيء بالعــــدم المطلق غير عامل ولا مريد ولا عالم بسوى النعمة والسعادة .. قانع بأنه منعم سعيد

***

وعلى هذا يبقى لنا أن نسأل : هل استطاع أرسطو بتجريده الفلسفى أن يسمو بالكمال الاعلى فوق مرتبته التى يستلهمها المسلم من عقيدة دينه ؟

نقول عن يقين : كلا .. فان الله فى الاسلام اله صمد لا أول له ولا آخر ، وله المثل الاعلى . فليس كمثله شيء ، وهو محيط بكل شيء

ثم يبقى بعد ذلك أن نسأل : هل تغض العقيدة الدينية من الفكرة الفلسفية فى مذهب التنزيه ؟

والجواب كلا : بل الدين هنا فلسفة أصح من الفلسفة

اذا قيست بالقياس الفلسفى الصحيح • لان صفات الاله التى تعددت فى عقيدة الاسلام لا تعدو أن تكون نفيا للنقائص التى لا تجوز فى حق الاله • وليس تعدد النقائص مما يقضي بتعدد الكمال المطلق الذى ينفرد ولا يتعدد • فان الكمال المطلق واحد والنقائص كثيرة ينفيها جميعا ذلك الكمال الواحد • وما أيمان المسلم بأن الله عليم قدير فعال لما يريد كريم رحيم ، الا ايمانا بانه جل وعلا قد تنزه عن نقائص الجهل والعجز والجحد والغشم، فهو كامل منزه عن جميع النقائص ، ومقتضى قدرته أن يعمل ويخلق ويريد لخلقه مايشاء ، ومقتضى عمله وخلقه أن يتنزه عن تلك « العزلة السعيدة » التى توهمها أرسطو مخطئا فى التجريد والتنزيه • فهو سعيد بنعمة كماله ، سعيد بنعمة عطائه ، كفايته لذاته العلية لا تأبى له أن يفيض على الخلق كفايتهم من الوجود فى الزمان ، أى من ذلك الوجود المحدود الذى لا يغض من وجود الله فى الابد بلا أول ولا آخر ولا شريك ولا مثيل

« ومن صفات الله فى الاسلام ما يعتبر ردا على فكرة الله فى الفلسفة الارسطية كما يعتبر ردا على أصحاب التأويل فى الاديان الكتابية وغير الكتابية

فالله عند ارسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ،ويتنزه عن الارادة لان الارادة طلب فى رأيه والله كمال لا يطلب شيئا غير ذاته ، ويجل عن علم الكليات والجزئيات لانه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة •• لان الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعى اليه • ولكن الله فى الاسلام عالم الغيب والشهادة

« وَلاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ » . (سورة يونس)

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » . (سورة يس)

« وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ » . (سورة المؤمنون)

« وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً » . (سورة الاعراف)

« أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ » . (سورة الاعراف)

« عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » . (سورة فاطر)

وهو كذلك مريد وفعال لما يريد

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ » . (سورة المائدة)

وفى هذه الاية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات كما جاء فى أقوال بعض المفسرين، ولكنها ترد على كل من يغلون ارادة الله على وجه من الوجوه ، ولا يبعد أن يكون فى يهود الجزيرة من يشير الى رواية من روايات الفلسفة الارسطية لذلك المقال

وقد أشار القرآن الكريم الى الخلاف بين الاديان المتعددة فجاء فيه من سورة الحج :

« إِنَّ الذِينَ آمنوا وَالذينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالمجُوسَ وَالذينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » (سورة الحج)

وأشار الى الدهريين فجاء فى سورة الانعام ...

« وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين »

(سورة الانعام)

وجاء فيه من سورة الجاثية ..

«وَقَالُو مَاهِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ . وَمَالَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ انْ هُمْ الاَّ يَظُنُّونَ »

(سورة الجاثية)

فكانت فكرة الله فى آلاسلام هى الفكرة المتممة لافكار كثيرة موزعة فى هذه العقائد الدينية وفى المذاهب الفلسفية التى تدور عليها . ولهذا بلغت المثل الاعلى فى صفات الذات الالهية ، وتضمنت تصحيحا للضمائر وتصحيحا للعقول فى تقرير ما ينبغى لكمال الله ، بقسطاس الايمان وقسطاس النظر والقياس

ومن ثم كان فكر الانسان من وسائل الوصول الى معرفة الله فى الاسلام ، وان كانت الهداية كلها من الله .

ومجمل ما يقال عن عقيدة الذات الالهية التى جاء بها الاسلام أن الذات الالهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات « ... وقد جاء الاسلام بالقول الفصل فى مسألة البقاء والفناء . فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفانى صورة أقرب الى الفهم من صورتيهما فى العقيدة الاسلامية ، لان العقل لا يتصور وجودين سرمديين ، كلاهما غير مخلوق ، أحدهما مجرد والاخر مادة ، وهذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لهما انتهاء ..

ولكنه يتصور وجودا أبديا يخلق وجودا زمانيا ، أو

يتصور وجودا يدوم ووجودا يبتدى وينتهى فى الزمان

وقديما قال أفلاطون — وأصاب فيما قال . ان الزمان محاكاة للابد .. لانه مخلوق ولابد غير مخلوق

فبقاء المخلوقات بقاء فى الزمن ، وبقاء الخالق بقاء أبدى سرمدى لا يحده الماضى والحاضر والمستقبل ، لانها كلها من حدود الحركة والانتقال فى تصور أبناء الفناء ، ولا تجوز فى حق الخالق السرمدى حركة ولا انتقال

فَاللهُ هُوَ « الْحَيُّ الذى لَا يَمُوتُ » (سورة الفرقان)

« وَهُوَ الذى يُحيي وَيُمِيتُ » (سورة المؤمنون)

و « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » (سورة القصص)

وأيا كان المرتقى الذى ارتفع اليه تنزيه الفكرة الالهية فى مذهب أرسطو كما شرحناه بعض الشرح أو مذهب أستاذه أفلاطون كما أومأنا اليه بعض الايماء — فهذا التنزيه الفلسفى قمة منبتة عن البيئة التى عاش فيها « الفيلسوفان » ويكاد هذا التنزيه الفلسفى أن يكون خيالا جامحا بالنسبة الى العقائد الالهية التى كانت فاشية بين الكهان والمتعبدين من أبناء اليونان

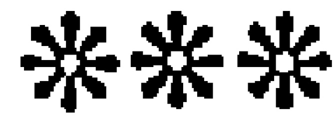
فلا شك أن صورة « جوبيتر » رب الارباب عندهم كانت أقرب الى صورة الشيطان منها الى صورة الارباب المنزهين ولو لم يبلغ وصف التنزيه عندهم نصيبا ملحوظا من الكمال ..

كان « جوبيتر » حقودا لدودا مشغولا بشهوات الطعام والغرام لا يبالى من شئون الارباب والمخلوقات الا ما يعينه على حفظ سلطانه والتمادى فى طغيانه ، وكان

يغضب على « أسقولاب » اله الطب لانه يداوى المرضى فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الارض الى باطن الهـــاوية ، وكان يغضب على « برومثيوس » اله المعرفة والصناعة لانه يعلم الانسان أن يستخدم النار فى الصناعة وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الارباب • وقد حكم عليه بالعقاب الدائم فلم يقنع بموته ولا باقصائه عن حظيرة الالهة بل تفنن فى اختراع ألوان العذاب له فقيده الى جبل سحيق وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار حتى اذا جن الليل عادت سليمة فى بدنه لتعود الجوارح الى نهشها بعد مطلع الشمس ••• ولا يزال هكذا دواليك فى العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء • ومما رواه الشاعر الفيلســـــوف « هزيود » عن علــة غضب الاله على « برومثيوس » أنه قسم له نصيبه من الطعام فى وليمة الارباب فأكثر فيه من العظام وأقل فيه من اللحوم والشحوم فاعتقد « جوبيتر » انه يتعالم عليه بمعرفته وفطنته لانه اشتهر بين الالهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة لم يشتهر بها الاله الكبير • ولا يغيب عنا ونحن نروى أخبار الاله الكبير منقولة عن « هزيود » ان هذا الشاعر الفيلسوف قد اجتهد قصارى اجتهاده فى تنزيه « جوبيتر » وتصويره للناس فى صورة من القداسة والعظمة تناسب صورة الاله المعبود بعد ارتقاء العبادة شيئا ما فى ديانة اليونان الاقدمين

ومما رواه الرواة المختلفون عن جوبيتر أنه كان يخادع زوجته « هيرة » ويرسل اله الغمام لمداراة الشمس فى مطلعها حذرا من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار ومفاجأته بين عشيقاته على عرش « الاوليب » •• وحدث مرة أنها فاجأته وهو يقبل ساقيه « جانيميد » راعى الضأن الجميل

الذى لمحه يوما فى الخلاء فاختطفه وصعد به الى السماء فلم يتنصل « جوبيتر » من تهمة الشغف بســـاقيه ‥ ومضى يسوغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاه



ومثل الامم القديمة كمثل اليونان فى بعد الفارق بين صورة الاله فى حكمة الفلاسفة وبين صورته فى شــعائر الكهان والمتعبدين

فالهند القديمة كانت تطوى هياكلها ومعـــابدها على طوائف من الارباب منها ما يلحق بالحيوان وعناصرالطبيعة ومنها ما يلحق بالاوثان والانصاب ، وكثير منها يتطلب من سدنته أن يتقربوا اليـــه بالبغاء المقدس وسـفك الدماء ‥

وقد انتهت هذه الارباب المتعددة الى الثالوث الابدى الذى اشتمل على ثلاث من الصور الالهية هى الاله«براهما» فى صورة الخالق والاله « فشـــنو » فى صورة الحافظ والاله « سيفا » فى صورة الهادم ⋯ فجعلوا الهـــدم والفساد من عمل الاله الاعلى الذى يتولاه حين يتشكل لعباده فى تلك الصورة

وزادوا على ذلك أنهم جعلوا لكل اله قرينا يسمونه « الشاكتى » أو الزوجة أو الصاحبة ينسبون اليها من الشرور ما ينزهون عنه قرينها أو صاحبها

فهذه الارباب صور لا تتباعد المسافة بينهـــا وبين صور الشياطين والعفاريت والارواح الخبيثة المعهودة فى أقدم الديانات . فاذا ارتفعنا فى معارج التنزيه والتجريد بلغنا منها ذروتها العليا فى صورتين مختلفتين احداهما

صورة « الكارما » Karma والصورة الاخرى « النرفانا » Nirvana وكلتاهما تحسب من قبيل المعانى الذهنية وقل أن توصف بوصف الذات الالهية • فالكارما هى القدر الغالب على جميع الموجودات ومنها الالهة وأفلاك السماء ، وهذا القدر هو فى الواقع حالة من الحالات العامة يمكن أن نعبر عنها بأنها هى « ماينبغى » أو هى الوضع الحاصل على النحو الامثل • فليس القدر المسمى بالكارما عندهم ذاتا الهية معروفة الصفات ، ولكنه مرادف لكلمة «الانبغاء» أو كلمة « الواجب » كما وجب فى الحوادث والموجودات

والنرفانا حالة عامة كحالة الكارما • الا أنها الى العدم أقرب منها الى الوجود • لانها الحالة التى تنتهى اليها جميع الارواح حين تفرغ من عناء الوجود • وتتجرد من شواغل الاجساد وشواغل الارواح على السواء وتتساوى أرواح الالهة وأرواح البشر فى حالة النرفانا هذه كلمـــا سعدت بنعمة الخلود غير محسوس ولا مشهود



ولسنا نريد فى هذه الصفحات القليلة أن نتتبع صورة الالهية والربوبية كافة بين أمم الحضارات الاولى ، وانما نجتزىء منها بالنماذج الدالة عليها فيما ارتقت اليه من التنزيه وفيما هبطت اليه من التجسيم أو التشبيه أو التشويه ، ولهذا يغنينا عن الاسترسال فى شرح عادات الاقدمين أن نضيف الى ما تقدم مثلا اخر يتمم أمثلة اليونان والهند ، وذلك هو مثل الديانة المصرية القديمة من أبعد عهود الفراعنة الى عهد الديانات الكتابية ، وهى ــ أى الديانة المصرية القديمة ــ أرفع الديانات فيما نعلم ترقيا الى ذروة التوحيد والتنزيه ، وان كانت فى عباداتهـــا الشائعة تهبط أحيـــانا الى مهبط الديانات الغابرة من

عبادة الطواطم والانصاب ، وعبادة الارواح الخبيثة والشياطين

بلغت ديانة مصر القديمة ذروتها العليا من التوحيد والتنزيه في ديانة « آتون » التى بشر بهـا الفرعون المنسوب اليه « اخناتون »

ويؤخذ من صلوات أخناتون المحفوظة بين أيدينا أنه كان يصلى الى خالق واحد يكاد يقترب فى صفاته من الاله الخالق الذى يصلى له العارفون من أتباع الديانات الكتابية ، لولا شائبة من العبادة الوثنية علقت به من عبادة الشمس فكانت هـذه الشمس الدنيوية رمزا ومرادفا لاسمه فى معظم الصلوات



هذه الشواهد من التاريخ القديم شواهد تمثيل لا شواهد حصر وتفصيل ، وهى مغنية فى الدلالة على المدى الذى وصل اليه تنزيه الفكرة الالهية فى أمم التاريخ القديم جميعها ، لانها تدل على ماوصلت اليه الفكرة الالهية المنزهة فى أزفع الحضارات الاولى وهى الحضارة المصرية والحضارة الهندية والحضارة اليونانية

وجملة الملاحظات على تنزيه الفكرة الالهية عند الاقدمين أنه كان تنزيها خاصا مقصورا على الفئـة القليلة من المفكرين والمطلعين على صفوة الاسرار الدينية

ثم يلاحظ عليه بعد ذلك أنه تنزيه لم يسلم فى كل آنة من ضعف يعيبه عقلا ويجعله غير صالح للأخذ به فى ديانات الجماعة على الخصوص

ففى الديانة المصرية لم تسلم فكرة التوحيد من شائبة الوثنية ولم تزل عبادة الشمس ظاهرة الاثر فى عبادة اتون ..

وديانة الهند لم تعلم الناس الايمـــان « بذات الهية » معروفة الصفات وليس فى معبوداتها أشرف من الكارما والنرفانا ، وهما بالمعانى الذهنية أشبه منهما بالكائنات الحية ، واحداهما ـ وهي النرفانا ـ الى الفناء أقرب منها الى البقاء

والتنزيه الفلسفى الذى ارتقت اليه حكمة اليـــونان فى مذهب أرسطو يكاد يلحق الكمال المطلق بالعدم المطلق ، ويخرج لنا صورة للاله لا تصلح للايمان بها ولا للاقتناع بها على هدى من الفهم الصحيح

وكل أولئك لا يبلغ بالتنزيه الالهى مبلغه الذى جاءت به الديانة الاسلامية صالحا للايمان به فى العقيدة الدينية وصالحا للاخذ به فى مذاهب التفكير

***

والديانة الاسلامية ـ كما هو معلوم ـ ثالثة الديانات المشهورة باسم الديانات الكتابية ، مكانها فى علم المقارنة بين الاديان مرتبط بمكان الديانتين الاخريين وهما الموسوية والمسيحية ، وتجرى المقارنة بين الاسلام وبينهما فعـــلا فى كتابات الغربيين فلا يتورع أكثرهم من حســـــبان الاســـــــلام نســخة مشوهة أو محرفة من المسيحية أو الموسوية ..

والمسألة ـ بعد ـ مسألة نصوص محفوظة وشعائر ملحوظة ، لا تحتمل الجدل الطويل فى ميزان النقد والمقارنة وان احتملته فى مجال الدعوة والخصومة العصبية ، ولا حاجة فى المقـــارنة بين هذه الديانات الى أكثر من ذكر العقيدة الالهية فى كل منها للعلم الصحيح بمـــكانها من التنزيه فى حكم الدين وحكم المعرفة النظرية

ان المراجع التى تلقينا منها عقائد العبـريين كما يدين بها أتباع الديانة الموسوية الى يومنا هذا مبسوطة بـــين أيدى جميع القادرين على مطالعتها فى لغاتها الاصليـــة أو لغاتها المترجمة ، وأشهرها التوراة والتلمود

فصورة الاله فى هذه المراجع من أوائلها الى أواخـرها هى صورة « يهوا » اله شعب اسرائيل ، وهى صــورة بعيدة عن الوحدانية يشترك معها الهة كثيرون تعبـــدها الامم التى جاورت العبريين فى أوطان نشـــأتهم وأوطان هجرتهم ، ولكن « يهوا » يغـــار منها ولا يريد من شعب اسرائيل أن يلتفت اليها ، لانه يريد أن يستأثر بشعب اسرائيل لنفسه بين سائر الشعوب وأن يستأثر شعب اسرائيل به لانفسهم بين سائر الآلهة ، وكان اذا غضب منهم لالتفاتهم الى غيره قال لهم كمـا جاء فى سفر أشعيا الثانى « بمن تشبهوننى وتسووننى وتمثلوننى لنتشابه؟» ... وكان النبى أرميا يقول لهم بلســـان الرب الههم : « ان آباءكم قد تركونى وذهبوا وراء الهة أخرى وعبدوها وســـجدوا لها واياى تركوا وشريعتى لم يحفظوا ... » ثم يقول الرب : « ... وأعطيتهم قلبا ليعـــرفوا انى أنا الرب فيكونون لى شعبا وأنا أكون لهم الها »

فلم يكن العبريون ينكرون وجود الالهة الكثيرين غير الههم الذى يعبدونه تارة ويتركونه تارة أخرى . ولكنهم كانوا يحسبون الكفر به ضربا من خيانة الرعية لملـــكها واعترافهم بالطـــاعة لغيره من الملوك القائمين بالملك فى أرض غير أرضه وبين رعية غير رعيته ، واذا تركوا«يهوا» حينا من الزمن ثم آثروا الرجعة الى عبادته فانما يرجعون اليه لاعتقادهم بالتجربة المزعومة أنه أقدر على النكاية بهم وأن الآلهة الاخرى عجزت عن حمايتهم من سخطه وانتقامه

وقد وصفوه فى كتبهم المقدسة فقالوا عنه مرة أنه يحب ريح الشواء وقالوا عنه مرة أخرى أنه يتمشى فى ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها وقالوا عنه غير هذا وذاك أنه يصارع عباده ويصارعونه وأنه يخاف من مركبات الجبال كما يخافها جنوده ، وغبروا ردحا من الدهر وهم يسوون بينه وبين عزازيل شيطان البرية فيتقربون إليه بذبيحة ويتقربون الى الشيطان بذبيحة مثلها

«ومن تتبع نعوت « يهوا » من أوائل أيام العبريين فى أوطان نشأتهم وأوطان هجرتهم الى أواخرها قبل عصر الميلاد المسيحى ـ لم يتبين من تلك النعوت أنهم وسعوا أفق العبادة لهذا الاله ولا أنهم وسعوا مجال الحظوة عندهم ، بل أنه يتبين من نعوته السابقة واللاحقة أنهم كانوا يضيقون أفق عبادته ويحصرون مجال الحظوة عندهم جيلا بعد جيل ، فكان شعبه المختار فى مبدأ الامر عاما شاملا لقوم ابراهيم ثم أصبح بعد بضعة قرون محصورا مقصورا على قوم يعقوب بن أسحق ثم أصبح بعد ذلك محصورا مقصورا على قوم موسى ثم على أبناء داود وعلى من يدينون لعرشه بالولاء ... ومن ذريته كان ينبغى أن يظهر المسيح المخلص لهم فى آخر الزمان

***

وجمد العبريون على عقيدتهم الالهية فظل « يهوا » الها عبريا يستأثر به أبناء يعقوب بن اسحق ولا يرجو الخلاص بمعونة منه الا الذين يدينون بالولاء لعرش داود وذريته من بعده ، فلم يتغير هذا الاعتقاد بين العبريين قبل عصر الميلاد المسيحى ولم يأت التغيير فيه من قبل أبناء اسرائيل المحافظين على عقيدتهم الاولى بل أتى هذا التغيير من قبل المصلحين المجددين فى الدين اليهودى وقام به من بينهم

رسول مغضـــوب عليه فى شرعتهم متهم بالمـــروق من زمرتهم ، وهو عيسى بن مريم رضوان الله عليه

وابتدأ عيسى بن مريم دعوته الاولى مختصــا بها بنى اسرائيل دون سواهم من العالمين ، وذكرت لنا الاناجيـل تفصيل الحوار الذى دار بين السيد المسيح وبين المـرأة الكنعانية التى توسلت اليه أن يخرج الشيطان من ابنتها فروى أنجيل مرقص فى الاصحاح السابع :

ان امرأة بابنتها روح نجس سمعت به فأتت وخرت عند قدميه وكانت المرأة أممية ــ أى من أبناء الامم غير الاسرائيلية ــ وفى جنسها فينيقية سورية . فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها ، واما يسوع فقال لها دعى البنين أولا يشبعون ، لانه ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للـكلاب فأجابت وقالت نعم يا سيد . والـكلاب أيضا تحت المائدة تأكل فتات البنين . فقال لها : لاجل هذه الـكلمة ، اذهبى قد خرج الشيطان من ابنتك ... »

ورواية متى لهذه القصة تشبه رواية مرقص حيث جاء فى الاصحاح الخامس عشر من الانجليل المنسوب اليه

ان السيد المسيح « خرج من هناك وانصرف الى نواحى صـور وصيداء ، واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة ارحمنى يا سيد يابن داود . ابنتى مجنونة جدا فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين اصرفها لانها تصيح وراءنا فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة ، فأتت وسجدت له قائلة يا سيد أعنى فأجاب وقال ليس حسنا ان يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ، فقالت نعم ياسيد والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة ! عظيـم ايمانك ، ليـكن لك كما تريدين . فشفيت ابنتها من تلك الساعة »

ونحن نعلم من هذه القصة ومن جملة أخبار التـلاميذ فى الاناجيل أن السيد المسيح قد ثابر على اختصاص بنى اسرائيل بدعوته ولم يتحـــول عنهم الى غـيرهم الا بعد اصرارهم على رفضه ولجاجتهم فى انكار رسالته فوجـــد بعد اليأس منهم أنه فى حل من صرف الدعـــوة عنهم الى

الامم المقيمة بينهم ، وضرب المثـــل لذلك بصاحب الدار الذى أقام وليمة العرس فى داره وأرسل الدعوة الى ذويه وجيرانه فتعللوا بالمعاذير وانشـــواغل ولم يســـتجيبوا لدعوته ، فأطلق غلمانه الى أعطاف الطريق يدعون مـن يصادفهم من الغرباء وعابرى السبيل ، على غـير معـرفة بهم ولا صلة بينه وبينهم ، حتى امتـــلأت بهم الدار ولم يبق على الموائد مكان لمن أختصهم بالدعوة فأعرضوا عنها

ويلاحظ فى قصة المرأة الـــكنعانية أنها كانت تدعو المسيح بالسيد ابن داود ، وأن عقيـدة العبريين لم تزل تعلق آمالهم بالخــلاص على يد رســـول من ذرية داود ومن سلالة يعقوب بن أسحق بن ابراهيم

ومضى عصر المسيح وجاء بعده عصر بولس الرســـول وعقيدة الخلاص الموقوف على سلالة ابراهيم الخليل باقية مســـلمة بين العبـــريين الجامدين على تقاليدهم وبين المسيحيين المتحررين من تلك التقاليد ، وانما أضيف اليها تفسير جديد لهذه البنوة وهو أنها بنوة روحية لا تتوقف على بنوة الجســد ولا فارق فيها بين من يحيـــون سـنة ابراهيم الخليل من العبريين أو من الاميين الذين يسميهم العبريون « بالجوييم » .. أى الاقوام الغرباء

فالعقيدة الالهيه كما دان بها العبريون وجمدوا عليهـا الى عصر الميلاد انما هى عقيدة شعب مختار بين الشعوب فى اله مختار بين الآلهة ، وليس فى هذه العقيدة ايمـان بالتوحيد ولا هى مما يتسع لديانة انسانية أو مما يصح أن يحسبه البـــاحث المنصف مقدمة للايمان بالاله الذى يدعو اليه الاسلام

ثم تطورت هذه العقيدة الالهية بعد ظهور المســيحية فانتقلت من الايمان بالاله لابناء ابراهيم فى الجســد الى

الاله لابنـــاء ابراهيم فى الروح ، وانقضى عصر السيد المسيح وعصر بولس الرسول واتصلت المسيحية بالامم الاجنبية وفى مقدمتها الامة المصرية فشاعت فيها على أثر ذلك عقيدة الهية جديدة فى مذهب العبريين وهى عقيدة الثالوث المجتمع من الاب والابن والروح القدس ، وفحواها أن المســيح المخلص هو ابن الله وأن الله أرسـله فداء لابناء آدم وحواء وكفارة عن الخطيئة التى وقعا فيها عندما أكلا من شـجرة المعـرفة فى الجنة بعد أن نهاهما عن الاقتراب منها

وظهر الاسلام وفحوى العقيدة الالهية كما تطورت بها الديانة المسيحية أن الله الاله واحد من أقانيم ثلاثة هى الآب والابن والروح القدس وأن المسيح هو الابن من هذه الاقانيم ، وهو ذو طبيعة الهية واحدة فى مذهب فـريق من المسيحيين وذو طبيعتين الهية وانســانية فى مذهب فريق آخر

ومن البديهى أن الباحث الذى يريد تطبيق علم المقارنة بين الاديان على المســيحية والاسلام مطالب بالرجوع الى حالة الديانة المسيحية حيث ظهرت دعوة الاســلام فى الجزيرة العربية ، فلا يجوز لاحد من هـؤلاء الباحثين ان يزعم أن الاسلام نسخة محرفة من المسيحية الا اذا اعتقد أن نبي الاسلام قد أخذ من المسيحية كما عرفها فى بيئته العربية وفيما اتصل به من البيئات الاخرى حول جزيرة العرب • ومهما يكن من تطور العقائد المسيحية فى سائر البيئات ومختلف العصور فالعقيدة المسيحية التى يجوز لصاحب المقارنة بين الاديان أن يجعلها قدوة للاسلام انما هى عقيــدة المسيحيين فى الجزيرة العربية وما حولها ، وقد وصف جورج سيل مترجم القرآن الى اللغة الانجليزية

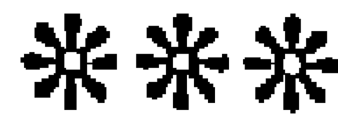
حالة المسيحيين في الحجاز وفي سائر الانحاء القريبة منه فقال ما ننقله من ترجمة مقدمته للقرآن :

« انه من المحقق ان ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الاحوال في صدر المائة الثالثة للميلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها أن يلجئوا الى بلاد العرب طلبا للحرية وكان معظمهم يعاقبة فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة . وأهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيء وقضاعة وأهل نجران والحيرة ... ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد انه كان للنصارى أساقفة في مواضع جمة لتنظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر أسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام أسقف وكان لليعاقبة أسقفان.. يدعى أحدهما أسقف العرب باطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهى الكوفة عند ابن العبرى أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبى الفداء ، وثانيهما يدعى أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة . أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريكهم »

الى أن يقول :

« أما الكنيسة الشرقية فانها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشات لاتكاد تنقضى ، وانتقض حبلها بمماحكات الاريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع . على ان الذى ثبت بعد البحث ان كلا من بدعتى النساطرة واليعقوبية كانت أولى بأن تدعى اختلافا في التعبير عن المعتقد من أن تدعى اختلافا في المعتقد نفسه ، وبأن تدعى حجة يتغلب بها كل من المتناظرين على الآخر أولى من أن تدعى سببا موجبا لالتئام مجامع عديدة يتردد اليها جماعة القساوسة والاساقفة ويتماحكون ليعلى كل واحد منهم كلمته ويحيل القضايا الى هواه ، ثم ان نافذى الكلمة منهم وأصحاب المكانة في قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفرا من قواد الجيش أو من أصحاب الخطب يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم ، وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى والنصفة تباع وتشترى جهارا . أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وارسكينوس في المشاحنة على منصة الاستقفية — أى أسقفية روما — ما أفضى الى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيها .. وكان أكثر ما تنشأ المناقشات من القياصرة انفسهم ولا سيما القيصر قسطنطينوس فانه اذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحى وخرافات العجائز ربك الدين بكثير من المسائل الخلاقية ... هذا ما كان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب . أما في بلاد هذه الامة التى هى موضوع بحثنا فلم تكن خيرا من ذلك ... فكان في نصارى العرب قوم يعتقدون

ان النفس تموت مع الجسد وتنشر معه فى اليوم الآخر وقيل ان أوربيجانوس هو الذى دس فيهم هذا المذهب ، وكم وكم من بدعة انتشرت فى جزيرة العرب حتى لا نقول نشأت فيها ؟ ! .. فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هى الله ويقربون لها أقراصا مضفورة من الرقاق يقال لها كليرس وبها سمى أصحاب هذه البدع كليريين ... وفضلا عن ذلك فقد اجتمع أيضا فى جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الاسماء لجأوا اليها هربا من اضطهاد القياصرة .. »



كانت عقائد الفرق المسيحية فى جزيرة العرب ، وفى العالم المتـرامى حول جزيرة العرب على هذا النحو الذى وصفه رجـــل متعصب على الاسلام لا يتهم بمحاباته ولا يظن به أنه يتجانف على المسيحية وهو قادر على مداراتها. ومن الواضح البين أن عقـــائد الفرق المسيحية على ذلك النحو لم تكن مما يغرى بالاعجاب أو مما يدعو الى الاقتداء. ومن الواضح البين أن موقف الاسلام كان موقف المصحح المتمم ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية

فقد جاء الاسلام بالدعوة الى اله منزه عن لوثة الشرك، منزه عن جهـــالة العصبية وســـلالة النسب ، منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية الى الاديان الكتابية

فالله الذى يؤمن به المســـلمون اله واحد لم يكن له شركاء : « سبحانه وتعالى عما يشركون »

وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة ولـــكنه هو « رب العـــالمين » خلق الناس جميعا ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى فلا فضل بينهم لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى

« يَا أَيُّهَـــا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » (سورة الحجرات)

وهو واحد أحد « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد » (سورة الاخلاص)

لا يأخذ انسانا بذنب انسان ، ولا يحاسب أمة خلفت بجريرة أمة سلفت ولا يدين العالم كله بغير نذير

« وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . (سورة فاطر)

***

« تِلْكَ أُمَةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (سورة البقرة)

***

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً »

(سورة الاسراء)

***

ودينه دين الرحمة والعدل ، تفتتح كل سورة من كتابه « باسم الله الرحمن الرحيم »

« وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » (سورة فصلت)

و « هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ »

(سورة الحديد)

«وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً» (سورة الاعراف)

« وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » (سورة يس)

***

وللباحث فى مقارنات الاديان أن يقول ما يشاء عن هذا الاله الواحد الاحد رب العالمين ورب المشرقين والمغربين . الا ان يقول انه نسخة مستمدة من عقائد عرب الجاهلية أو عقائد الفرق الكتابية التى خالطت عقائد الجاهليين على النحو الذى وصفه جورج سيل فى مقدمته لترجمة القرآن الكريم ، فان العقيدة الالهية التى تستمد من تراث الجاهليين لن تكون لها صبغة أغلب من صبغة العصبية ولا مفخرة أظهر من مفاخر الاحساب ، ولن تخلو من لوثة الشرك ولا من عقابيل العبادات التى امتلأت بالخبائث وحلت فيها الرقى والتعاويذ محل الشعائر والصلوات

ومعجزة المعجزات أن الاسلام لم يكن كذلك بل كان نقيض ذلك فى صراحة حاسمة جازمة لا تأذن بالهوادة ولا بالمساومة . فما من خلة كانت أبغض اليه من خلة العصبية الجاهلية والمفاخرة الجاهلية والتناجز الجاهلى على فوارق الانساب والاحزاب

فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذى ينكر العصبية ..

ومن جوف بلاد القبائل والعشائر خرج الدين الذى يدعو الى اله واحد « رب العالمين » ورب المشرق والمغرب ورب الامم الانسانية جميعا .. بغير فارق بينها غير فارق الصلاح والايمان

على أن الباحثين الذين يصطنعون سمت العلم من علماء المقارنة بين الاديان فى المغرب يطلقون نعوتهم على الاسلام

سماعا فيما يظهر من مقرراتهم أو من مكرراتهم التقليدية التى لا يبدو منها أنهم كلفوا عقـــولهم جدا وحقاً أن تلم ألمامة واحدة بهذا الدين فى جملة أو تفصيل

ففى كتاب من أحدث الكتب عن أديان بنى الانســـان ألفه أستاذ للفلسفة فى جامعة كبيرة يقول المؤلف المتخصص لهذه الدراسات بعد الاشارة الى السيف والعنف والاقتباس من النصرانية والصابئية والمجوســية :

« ان محمدا أسبغ على الله ــ ربه ــ ثوبا من الخــلق العربى والشخصية العربية ·· » (١)

ويقول المؤلف ان :

« الحقيقة » التى قررها هنا تتجلى للباحث كلما تقدم فى دراسة هذا الدين العربى وهذه الشخصية الالهيــة العربية »

بهذا النعت التقليدى ينعت المؤلف آله الاسلام بعــد أن تقدم فى دراسته على حد قوله ·· فماذا كان عســاه قائلا لو أنه لم يسمع باسم الاسلام الا على الاشاعة مــن بعيد ؟

لعله لم يكن بحاجة الى التقدم وراء البسملة فى سورة الفاتحة ليعلم أن المسلم يدين برب العالمين وأنه يصــف ربه بالرحمة مرتين عند الابتداء بكل سورة من سور كتابه ··· ولعله كان يحسن المقارنة جدا ، وحقا ، لو أنه قنع بهذه الصفة من صفات آله الاسلام وقارن بينهـــا وبين الصفات التى يختارها غير المسلمين فلا يذكرون الله فى مفتتح دعواتهم بغير صفة القوة والجبروت Almighty

فالله رب العالمين ، ملك يوم الدين ، لم يكن نســخة

(١) Man's Religions, by Professor John B. Noss. Franklin and Marshall college.

محرفة من صورة الله فى عقيدة من العقائد الكتابية ، بل كان هو الاصل الذى يثوب اليه من ينحرف عن العقيـدة فى الاله كأكمل ما كانت عليه وكأكمل ما ينبغى أن يكون

ومن ثم كانت هذه العقيدة الالهية فى الاسلام مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها فى مذاهب الديانات أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية Theology

فهى عقيـدة كاملة صححت وتممت عقيدة الهند فى الكارما والنرفانا ، لانها عقيدة فى خواء أو فناء مسلوب الذات لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة

وهى عقيدة كاملة صححت وتممت عقيدة المعلم الاول بين فلاسفة الغرب الاقدمين ، لانه كان على خطأ فى فهم التجريد والتنزيه ، ساقه هذا الخطأ الى القول بكمـال مطلق كالعدم المطلق فى التجـرد من العمل والتجرد من الارادة والتجرد من الروح

ودين يصحح العقائد الالهية ويتممها فيما سبقه مـن ديانات الامم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها ـ تراه مـن أين أتى ومن أى رسول كان مبعثه ومدعاه ؟

من صحراء العرب ..

ومن الرسـول الامى بين الرسل المبعوثين بالكتب والعبادات ..

ان لم يكن هذا وحيا من الله فكيف يكون الوحى من الله ؟ ..

ليكن كيف كان فى أخلاد المؤمنين بالوحى الالهى حيث كان ، فما يهتدى رجل « أمى » فى أكناف الصحراء الى ايمان بالله أكمل من كل ايمان تقدم الا أن يـكون ذلك وحيا من الله ، وانه لحجر على البصائر والعقول أن تنكر الوحى على هذه المعجزة العليا لانه لا يصـدق عليها فى صورة من صور الحدس أو الخيال

عقيـدة النبوّة

نمت فى الاسلام فكرة النبوة كما نمت الفكرة الالهية، فبرئت هذه الرسالة السماوية من شوائبها الغليظة التى لصقت بها فى عقائد الاقدمين من أتباع الديانات الوثنية والديانات الكتابية ، وخلصت من بقايا السحر والكهانة كما خلصت من شعوذة الايهام الخيالى وبدوات الجنون الذى كانوا يسمونه قديما بالجنون المقدس ، لاعتقادهم أن المصابين به يخلطون هذيانهم بوحى الارواح العلوية التى تستولى عليهم ، ونمت نبوة الاسلام نماءها الاوفى حين خلصت من دعوى الخوارق والمغيبات ، وهى آية النبوة الكبرى فى عرف الاقدمين

ولم تكن براءة النبوة من هذه الشوائب عرضا مسوقا فى أطواء العقيدة بغير قصد ولا بينة ، بل كان وصف النبوة على هذه الصفة المطهرة فريضة مكتوبة على المسلم يعلمها من نصوص كتابه ويؤمن بها ايمانه برسالة نبيه ..

فما النبوة بقول ساحر ولا يفلح الساحرون ، وما النبى بكاهن ولا مجنون ..

«وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ، وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» (سورة الحجر)

فليست الخوارق مما يغنى النبى فى دعوة المكابر المفتون . انه ليزعمها اذن ضربا من السحر أو السكر ولو فتح له الأنبياء بابا من السماء

ولقد جاءت الخوارق طائعة لنبى الاسلام فصدقها الناس وأبى لهم أن يصدقوها أو يفهموها على غير حقيقتها ، ولو أنه سكت عنها لحسبوها له معجزة من المعجزات لم يتحقق مثلها من قبل لاحد من المرسلين

مات ابنه ابراهيم وانكسفت الشمس ساعة دفنه وتصايح المسلمون حول القبر : انها لآية من آيات الله أن تنكسف الشمس لموت ابن محمد عليه السلام . وكسوف الشمس يومئذ خبر من أخبار الفلك الثوابت أيده حساب الفلكيين فى العهد الاخير ، فلو كان صلوات الله عليه رسولا من الرسل الذين يتصيدون الخوارق أو ينكرونها لانهم لا يستطيعون أن يدعوها لما كلفته هذه الخارقة الا أن يسكت عنها فلا يدعيها ولا ينكرها ، ولكنه لم ينس فى ساعة حزنه أمانة الهداية للمؤمنين بدينه ، وبادرهم لساعتها مذكرا لهم بآيات الله

« وان الشمس والقمر آيتان لله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته .. »

وما نحسب أن النبوة تعظم بكرامة قط أكرم لها من التوكيد فى القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول ، غير مشروطة بما غبر فى الاوهام من قيام النبوة كلها على دعوى الخوارق والانباء بالمغيبات

« وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ »

(سورة يونس)

***

« قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَاشَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

(سورة الاعراف)

***

« قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ »

(سورة الانعام)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ »

(سورة الانعام)

***

بهذه الفكرة الرشيدة عن النبوة يفرق الاسلام بين طريقين شاسعتين فى تاريخ الاديان : طريق موغلة فى القدم تنحدر الى مهد النبوات الوثنية حيث تشتبك العبادة بالسحر والكهانة ثم تتقدم فى خطوات وئيدة يلتقى فيها الخبل باليقظة ، وتختلط فيها الخرافة بالالهام الصادق والموعظة الحسنة .

وطريق تليها موغلة فى المستقبل يفتتحها صاحب النبوة الاخيرة فيعلن انه يفند السحر والكهانة ويزرى بقداسة الجنون أو جنون القداسة ، ويروض بصيرة الانسان على قبول الهداية وان لم ترضها له روعة الخوارق ودهشة الغيب المجهول . لانه يروض البصيرة الانسانية على أن تنظر وتبصر ، ولا يستوى الاعمى والبصير ..

ومن تأمل هذا الفارق بين الطريقين الشاسعتين فى تاريخ الاديان لا جرم يطيل التأمل فلا يرى عجبا أن تكون هذه النبوة خاتم النبوات . اذ كان الاصلاح بعدها منوطا بدعوات يستطيعها من لا يدعى خارقة تفوق طاقة الانسان ، ولا يهول العقول بالكشف عن غيب من الغيوب لا يدريه الانسان ..

***

وأبعد شىء عن البحث الامين أن تنعقد المقارنة بين هذه النبوة الاسلامية ونبوءات أخرى تقدمتها فيزعم الباحث

أنها نسخة محرفة منها أو منقولة عنها ، فان الفارق بين نبوءة تقوم حجتها الكبرى على هداية العقل والضمير ونبوءات تقوم حجتها الكبرى على الغرائب والاعاجيب — لهو من الفوارق البينة التى لا يمترى فيها باحثان منصفان ، ودع عنك الفارق بين نبوءة تدعو الى رب العالمين ونبوءة تدعو الى رب سلالة أو رب قبيل • وربما اعترى الخطأ مقياسا من مقاييس البحث فتساوت لديه الزيادة والنقص وتعادل أمامه الراجح والمرجوح • فأما أن يرجح النقص على الزيادة فذلك هو الخطأ الذى لا ينجم الا من زيغ فى الطبع أو عناد يتعامى عمدا عن الشمس فى رائعة النهار ••

والواقع أن النبوة الاسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة النبوءة كما كانت عقيدة الاسلام الالهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بنى الانسان فى الاله

ومن عجيب الاستقصاء أن القرآن الكريم قد أحصى النبوءات الغابرة بأنواعها فلم يدع منها نوعا واحدا يعرفه اليوم أصحاب المقارنة بين الاديان ، ومن تلك الانواع نبوءة السحر ونبوءة الرؤيا والاحلام ونبوءة الكهانة ونبوءة الجذب أو الجنون المقدس ونبوءة التنجيم وطوالع الافلاك ، وكلها مما يدعيه المتنبئون ويدعون معه العلم بالغيب والقدرة على تسخير نواميس الطبيعة ، ولكنها على اتفاقها فى هذه الدعوة تختلف بمصادرها ونظرة الناس اليها أيما اختلاف

فنبوءة السحر يغلب عليها أنها موكلة بالارواح الخبيثة تسخرها للاطلاع على المجهول او السيطرة على الحوادث والاشياء ، ونبوءة الكهانة يغلب عليها أنها

موكلة بالارباب لا تطيع الكاهن ولكنها تلبى دعواته وصلواته وتفتح لها مغالق المجهول فى يقظته أو منامه وترشده بالعلامات والاحلام ولا تلبى سائر الدعوات والصلوات • ولكنهما ـ نبوءة السحر ونبوءة الكهانة ـ تخالفان نبوة الجذب والجنون المقدس لان الساحر والكاهن يدريان بما يطلبان ويريدان قصدا ما يطلبانه بالعزائم والصلوات ، ولكن المصاب بالجذب او الجنون المقدس مغلوب على أمره ينطلق لسانه بالعبارات المبهمة وهو لا يعنيها ولعله لا يعيها ، ويكثر بين الامم التى تشيع فيها نبوة الجذب أن يكون مع المجذوب مفسر يدعى العلم بمغزى كلامه ولحن رموزه واشاراته ، وقد كانوا فى اليونان يسمون المجذوب « مانتى Manti » ويسمون المفسر « بروفيت Prophet » أى المتكلم بالنيابة عن غيره ومن هذه الكلمة نقل الاوربيون كلمة النبوة بجميع معانيها ، وقلما يتفق الكهنة والمجذوبون الا أن يكون الكاهن متوليا للتفسير والتعبير عن مقاصد المجذوب ومضامين رموزه واشاراته • ويحدث فى أكثر الاحيان أن يختلفا ويتنازعا لانهما مختلفان بوظيفتهما الاجتماعية مختلفان بطبيعة النشأة والبيئة • فالمجذوب ثائر لا يتقيد بالمراسم والاوضاع المصطلح عليها ، والكاهن محافظ يتلقى علمه الموروث فى أكثر الاحيان من آبائه وأجداده ، وتتوقف الكهانة على البيئة التى تنشأ فيها الهياكل والصوامع المقصودة فى الارجاء القريبة والبعيدة ، ولا يتوقف الجذب على هذه البيئة لانه قد يعترى صاحبه فى البرية كما يعتريه فى الحاضر المقصود من أطراف البلاد

والمقارنة بين النبوة الاسلامية وبين النبوءات التى شاعت فى تاريخ العبريين تغنينا عن تعميم المقارنة فى

عامة الديانات التى سبقت ظهور الاسلام ، لان العبريين قد آمنوا بهـــذه النبوات جميعا وبينهم ظهرت الديانة الموسوية التى كانت أولى الديانات الكتابية ومرجع المقارنة فى مسائل النبوة وشعائر العقيدة التى تدور عليهـــا المقارنة بين عبادات أهل الكتاب

وقد عرفت قبائل العبريين نبوءات السحر والكهانـة والتنجيم كما عرفتها الشعوب البدائية وابتكرت منها ما ابتكرت على سنة الشـــعوب كافة ، واقتبست منها ما اقتبست بعد اتصالها بجيرانها فى المقام من أهل البادية أو أهل الحاضرة • ولكنها على خلاف الشائع بين المقلدين من كتاب الغربيين قد تعلمت النبوة الالهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب ولم تكن لهذه الكلمة عند العبريين لفظة تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين فى أرض مـــدين « •• فكانوا يســـمون النبى بالرائى او الناظر أو رجل الله ولم يطلقوا عليه اســـم النبى الا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين فى التوراة ، وهم ملكى صادق وأيوب وبلعـــام وشعيب الذى يســـمونه « يثرون » معلم موسى الكليم • ويرجح بعضهم انه الخضر عليه السلام للمشابهة بين لفظ يثرون وخثرون وخضر فى مخارج الحروف ، ولما ورد من أخبـــار الكليم مع الخضر عليهما السلام فى تفسير القرآن الكريم

ومن علماء الاديان الغربيين الذين ذهبوا الى اقتباس العبريين كلمة النبوة من العرب الاستاذ هولشر Holscher والاستاذ شميدت Schmidt اللذان يرجحـــان أن الكلمة دخلت فى اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين • الا أن الامر غنى عن الخبط فيه بالظنون مع المستشرقين ، من يفقه منهم اللغة العربية ومن لا يفقه منها غير الاشباح

والخيالات ، فان وفرة الـــكلمات التى لا تلتبس بمعنى النبوة فى اللغة الغربية كالعرافة ، والكهانة ، والعيافة ، والزجر ، والرؤية ، تغنيها عن اتخاذ كلمة واحدة للرائى وللنبى ، وتاريخ النبوات العربية التى وردت فى التوراة سابق لاتخاذ العبريين كلمة النبى بدلا من كلمة الرائى والنـــاظر ، وتلمذة موسى لنبى « مدين » مـــذكورة فى التوراة قبل سائر النبوات الاسرائيلية ، وموسى الكليم ولا ريب رائد النبوة الكبرى بين بنى اسرائيل

***

والمطلع على الكتب المأثورة بين بنى اسرائيل يتبين منها انهم آمنوا بهذه النبوات جميعا ، وانهم بعد ارتقائهم الى الايمان بالنبوة الالهية ما زالوا يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهداية ويجعلون الاطلاع على المغيبات امتحانا لصدق النبى فى دعواه أصدق وألزم من كل امتحان ، ولم يرتفع بأكبر أنبيائهم ورسلهم عن مطلب الاتجار بالكشف عن المغيبات والاشتغال فى التنجيم

ففى أخبار صموئيل أنهم كانوا يقصدونه ليدلهم على مكان الماشية الضائعة وينقدونه أجره على ردها .. « خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب وفتش عن الاتن .. فقال شاول للغلام .. فماذا نقدم للرجل ؟ لان الخبز قد نفد من أوعيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله .. ماذا معنا ؟ فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدى ربع شاقل فضة »

ويؤخذ من النبوءات التى نسبوها الى النبى يعقوب جد بنى اسرائيل أنهم كانوا يعولون عليه فى صناعة التنجيم فان النبوءات المقرونة بأسماء أبناء يعقوب تشير الى أبراج السماء وما ينسب اليها من طوالع ومن أمثلتها عن شمعون ولاوى أنهما ، « أخوان سيوفهما آلات ظلم فى مجلسهما

لا تدخل نفسى .. لانهما فى غضبهما قتلا انسانا وفى رضائهما عرقبا ثورا .. »

وهذه اشارة الى برج التوأمين وهو برج اله الحـــرب « زجال » عند البابليين ، ويصورون أحد التوأمين وفى يده خنجر ويصورون أخاه وفى يده منجل .. وتشـــير عرقبة الثور الى برج الثور الذى يتعقبه التوأمان

ومن الامثلة فى هذه النبوءات المنسوبة الى يعقوب مثل يهودا .. « جرو أسد جثا وربض كأسد ولبوة . لا يزول قضيب من يهودا ومشترع من بين رجليـــــه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب »

وهذه اشارة الى برج الاسد ، وهو عند البابليين برجان يبدو أمام احدهما برج يشير الى علامة الملك الذى تخضع له الملوك (١)

وتجرى النبوءات عن سائر الاسماء ــ اثنى عشر اسما ــ كل اسم منها يوافق برجا من ابراج السماء على مثال ما قدمناه ..

وقد كثر عدد الانبياء فى قبائل بنى اسرائيل كثـرة يفهم منها أنهم كانوا فى أزمنتهم المتعاقبة يشبهون فى العصور الحديثة اصحاب الاذكار ودراويش الطـــــرق الصوفية ، لانهم جاوزوا المئات فى بعض العهود واصطنعوا من الرياضة فى جماعاتهم ما يصطنعه هؤلاء الدراويش من التوسل الى حالة الجذب تارة بتعذيب الجسد ، وتارة بالاستماع الى الات الطرب

جاء فى كتاب صموئيل الاول :

ان شاول أرسل لاخذ داود رسلا « فرأوا جماعة الانبياء يتنبأون وشاول واقف بينهم رئيسا عليهم ، فهبط روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضا وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء ... فخلع هو أيضا

---

(1) The oracles of Jacob by Eric Burrows

ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صموئيل وانتزع عاريا ذلك النهار كله وكل الليل » .

وجاء في كتاب صموئيل كذلك :

« ... انك تصادف زمرة من الانبياء نازلين من الاكمة وأمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون، فيحـــل عليهم روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول الى رجل آخر »

وكانت النبوة صناعة وراثية يتلقاها الابناء من الاباء كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « اذ قال بنو الانبياء لا ليشع هو ذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك قـد ضاق علينا فلنذهب الى الاردن

وكانت لهم خدمة تلحق بالجيش فى بعض المواقع كما جاء فى سفر الايام الاول حيث قيل أن داود ورؤسـاء الجيش » افرزوا للخدمة بنى اساف وغيرهم من المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج

***

وهؤلاء المئات من المحسوبين على النبوة لبثوا بين قبائل اسرائيل وقرا فادحا لا يصبر القوم على تكاليفه المرهقة الا المنفعـة ينتظرونها من زمرة المتنبئين الذين يثبت لهم صدقهم ، وليست هذه المنفعة الا الاعتماد حينا بعد حين على بعض المتنبئين فى الكشف عن الخبايا والانذار بالكوارث المتوقعة ، وأهم ما كان يهمهم من هذه الكوارث أن يحذروا غضب « يهوا » لانهم جربوا أنه أقدر على النقمة من سائر الارباب ..

وحدث ما لابد أن يحدث فى هذه الحالة من الاسفاف بالكشف الروحى تسخيرا له فى المطالب اليومية على حسب الحاجة اليه فى حينه . فبـدلا من أن يكون الكشف الروحى لمحة من لمحات الصفاء ترتفع فيها حجب الهـوى والضلالة عن البصيرة فتدرك مالا تدركه فى عامة أوقاتها — أصبح هذا الكشف صناعة ملازمة لكل من يدعى النبوة

بحق أو بغير حق ، ووجب على النبى فى عرفهم أن يكون مستعدا بكراماته ومعجزاته كلما أرادها أو أريدت منه ، وروى القوم من أنباء هذا الاستعداد ما يشبه الاستعداد للمباراة بين فرق الرياضة من الطرفين المتقابلين ، وقد ثبتت لهم غلبة انبياء يهوا على أنبياء البعل على أثر مباراة من هذه المباريات بينهم فى التنبؤ والانذار بالاخطار

جاء فى كتاب الملوك الاول :

ان « ايزابل » امرأة أخاب ملك اسرائيل قتلت مئات من انبياء يهوا فلم ينج منهم غير خمسين خبأهم أحد الوزراء المخلصين للدين ثم ظهر النبى « ايليا » متحديا للملك قائلا كما جاء فى الاصحاح الثامن عشر من الكتاب المذكور :

« .. ولما رأى أخاب ايليا قال له أخاب : أأنت هو مكدر اسرائيل. فقال : لم أكدر اسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البعليم . فالآن أرسل واجمع الى كل اسرائيل الى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المئة والخمسين وأنبياء السوارى أربع المئة الذين يأكلون على مائدة ايزابل فارسل أخال الى جميع بنى اسرائيل وجميع الانبياء الى جبل الكرمل فتقدم ايليا الى جميع الشعب وقال حتى متى تعرجون بين الفرقتين . ان كان الرب هو الله فاتبعوه ، وان كان البعل فاتبعوه ، فلم يجبه الشعب بكلمة. ثم قال ايليا للشعب : أنا بقيت نبيا للرب وحدى وأنبياء البعل أربعمائة وخمسون رجلا . فليعطونا ثورين فيختاروا لانفسهم ثورا واحدا ويقطعوه ويضعوه على الحطب . ولكن لا يضعون نارا وأنا أقرب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع نارا . ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب . والاله الذى يجيب بنار فهو الله . فأجاب جميع الشعب وقالوا : الكلام حسن فقال ايليا لانبياء البعل : اختاروا لانفسكم ثورا واحدا وقربوا أولا لانكم أنتم الاكثر وادعوا باسم آلهتكم ، ولكن لا تضعوا نارا ، فأخذوا الثور الذى أعطى لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح الى الظهر قائلين : يابعل أجبنا فلم يكن صوت ولامجيب • وكانوا يرقصون حول المذبح الذى عمل وعند الظهر سخر بهم ايليا وقال : ادعوا بصوت عال لانه اله لعله مستغرق او فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم فيتنبه . فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم ولما جاز الظهر وتنبأوا الى حين اصعاد التقدمة ولم

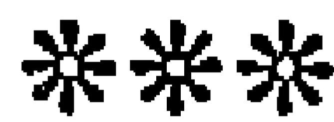
يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ ، قال ايليا الى جميع الشعب تقدموا الى فتقدم جميع الشعب اليه فرمم مذبح الرب المتهدم ثم أخذ ايليا اثني عشر حجرا بعدد أسباط بنى يعقوب الذى كان كلام الرب اليه ، قائلا : اسرائيل يكون اسمك ، وبنى الحجارة مذبحا باسم الرب ، وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من البذر ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضعه على الحطب وقال : املأوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب ثم قال : ثنوا فثنوا ، وقال : ثلثوا فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضا ماء وكان عند اصعاد التقدمة ان ايليا النبى تقدم وقال : أيها الرب اله ابراهيم واسحق واسرائيل ليعلم اليوم انك أنت الله فى اسرائيل وانى أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الامور استجبنى يا رب استجبنى ليعلم هذا الشعب انك انت الرب الاله وانك أنت حولت قلوبهم رجوعا فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التى فى القناة . فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا : الرب هو الله الرب هو الله فقال لهم ايليا : امسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل . فأمسكوهم فنزل بهم ايليا الى نهر قيسون وذبحهم هناك وقال ايليا لآخاب : اصعد كل واشرب لانه حس دوى مطر . فصعد أخاب ليأكل وليشرب ، وأما ايليا فصعد الى رأس الكرمل وخر الى الارض وجعل وجهه بين ركبتيه وقال لغلامه : اصعد تطلع نحو البحر فصعد وتطلع وقال : ليس شىء . فقال : ارجع سبع مرات ، وفى المرة السابعة قال هو ذا غيمة صغيرة قدر كف انسان صاعدة من البحر . فقال : اصعد قل لآخاب أشدد وانزل لئلا يمنعك المطر وكان من هنا الى هنا أن السماء اسودت من الغيم والريح وكان مطر عظيم فركب أخاب ومضى الى يزرعيل . وكانت يد الرب على ايليا فشد حقويه وركض أمام أخاب حتى تجىء الى يذرعيل »



وقد صاحبت القوم هذه الفكرة عن النبوة الحاضرة عند الطلب منذ أوائل عهودهم الى أواخر عهدهم بالانبياء قبل ظهور السيد المسيح .. فلم تكن النبوة عند القوم فى هذه العهود كافة الا صناعة مرادفة لصناعة التنجيم أو لصناعة الفراسة المنذرة بالكوارث المتوقعة . فهى اما استطلاع للخبايا أو صيحة فزع من نقمة « يهوا » الذى تعودوا أن يعاقبهم بالمصائب الحسية كلما انحرفوا عن سنته ،

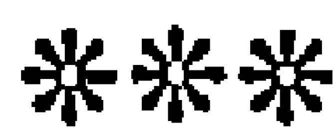
وأشركوا بعبادته ربا آخـــر من ارباب الشـــعوب التى ينازعونها وتنازعهم على المرعى والمقام

وما يكون للقوم ان يفهموا من النبوة معنى غير معناها هذا ، لانهم قد تعلموا من احبارهم وكتبة اسفارهم أن انبياءهم قد حلوا فى محل العرافين العائفين والســحرة والرقاة الذين ينقلون أقوال الالهة فى غير بنى اسرائيل .. فهؤلاء جميعا لا يصدقون لانهم ينقلون المعرفة من أرباب غير « يهوا » رب اسرائيل ، وأما شعب اسرائيل فقد قيل لهم : « .. فيقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلى له تسمعون حسب كل ما طلبت من الرب الهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلا : لا أعود أسمع صوت الرب الهى . ! ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت قال لى الرب قد احسنوا فيما تكلموا . أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون ان الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى . وان قلت فى قلبك كيف نعرف الكلام الذى يتكلم به الرب مما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبى . فلا تخف منه ــ ١٨ سفر الثنية »



وهكذا وقر فى أخلاد الشعب من أحباره وعلمائه الى عامة جهلائه أن الكشف على الغيب مرادف لمعنى النبوة ، وأن وقوع الخبر هو امتحان الصدق الوحيد الذى يمتحن به الانبياء الصادقون فيما يتحدثون به عن الاله ، وأن الفرق بين أنبيائه وبين السحرة والعرافين والرقاة فى

الامم الاخرى انما هو فرق بين أناس يحسنون الكشف عن الغيب ، وأناس يخطئون فى هذه الصناعة ، لانهم ينقلون تنبؤاتهم عن آلهة كذبة لا يستحقون العبادة

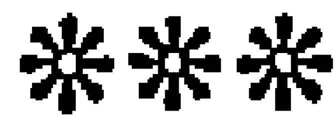


وانه لمن المتفق عليه بين أتباع الديانات الكتابية أن بنى اسرائيل لم يعرفوا النبوة على مثال أتم وأكمل من نبوة موسى الكليم • ومع هذا كان أرفع ما تصوروه من معنى وحى الله اليه عليه السلام أنه كان يخاطبه فما الى فم وعيانا بغير حجاب ، وفى ذلك يقول كاتب الاصحاح الثانى عشر من سفر الخروج ان الله « نزل فى عمود سحاب ووقف فى باب الخيمة ودعا هارون ومريم فخرجا كلاهما فقال : اسـمعا كلامى • ان كان منكم للرب فبالرؤيا استعلم له وفى الحلم آكمله • وأما عبدى موسى فليس هكذا • بل هو أمين فى كل شىء • فما الى فم وعيانا أتكلم معه لا بالالغاز »

وكان اعتقادهم ان موسى عليه السلام يسمع كـلام الرب فما الى فم وعيانا بغير حجاب فى كل قضية من قضايا الشعب يعرضونها عليه ، حتى علمه نبى مدين أن يكل القضاء الى أناس من ذوى ثقته وخاصة قومه يلقنهم أحكام الشريعة ويوليهم أمر القضايا الصغيرة مكتفيا بما يعضل عليهم من كبار القضايا • وفى ذلك يقول كاتب الاصحاح الثانى عشر من سفر الخروج :

« وقد حدث فى الغد ان موسى جلس ليقضى للشعب فوقف الشعب عند موسى من الصباح الى المساء • فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب قال : ما هـذا الامر الذى أنت صانع للشعب ؟.. ما بالك جالسا وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح الى المساء ؟.. فقال موسى لحميه ان الشعب يأتى الى ليسأل الله : اذا كان لهم دعوى يأتون الى فاقضى بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرائعه . فقال حمو موسى له : ليس جيدا هذا الامر الذى أنت

صانع . انك تكل أنت وهذا الشعب الذى معك جميعا . لان الامر أعظم منك لا تستطيع أن تصنعه وحدك . الآن اسـمع لصوتى فأنصحك . فليكن الله معك . كن أنت للشعب أمام الله وقدم أنت الدعاوى الى الله وعلمهم الفرائض والشرائع وعرفهم الطريق الذى يسلكونه والعمل الذى يعملونه ، وأنت تنظر من جميع الشعب ذوى قدرة خائفين الله أمناء مبغضين الرشوة وتقيمهم عليهم رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات . فيقضون للشعب كل حين ويكون ان كل الدعاوى الكبيرة يجيئون بها اليك وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها وخفف عن نفسك فهم يحملون معك ... »

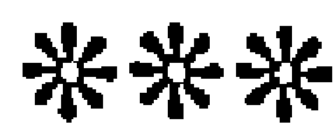


وبعد نحو ستة قرون من النبوة الموسوية انتهى عهد الانبياء فى بنى اسرائيل ، ولم يتغير معنى النبوة عندهم فى هذه الفترة الطويلة . بل انحدر الى ما دون ذلك بكثير ، لان موسى الكليم كان يخـاطب الغيب ليتلقى الشريعة . وينقل الى الشعب تحذير الله بنصوص ألفاظه، وأما الانبياء بعده فقد تكاثروا بالمئات ليخاطبوا الغيب فيما دون ذلك من الخبايا اليومية ، أو ليتخذوا العلامات والالغاز نذيرا للشعب بالخسائر الحسية التى تصيبه من جراء الخروج على شريعة موسى

ويتلخص تاريخ النبوة بين بنى اسرائيل اذن فى كلمات معدودات : انهم قد استعاروا فكرة النبوة من جيرانهم العرب الذين ظهر فيهم ملكى صادق على عهـد ابراهيم الخليل ، وظهر فيهم بعد ذلك أيوب وبلعام وشعيب ، ففهموا من النبوة معنى غير معنى الرؤية والعرافة والسحر والتنجيم ، وانهم ما زالوا يتعلمون من جيرانهم الى أن أتى موسى الكليم الذى تتلمذ على حميه نبى مدين قبل جهره بدعوته وبعد أن جهر بهذه الدعوة فى مصر وخرج بقومه منها الى أرض كنعان ، ولكنهم أخذوها وسلموها فنقصوا منها ولم يزيدوها ، وما كان لهم من حيلة فى زيادتهـا

لانها ــ كما فهموها ــ غير قابلة للزيادة والارتقاء ، ولا مناص من تدهورها مع الزمن وهى موقوفة على قوم دون سواهم لا يشاركون الاقوام فى هداية واحدة ولا فى جامعة انسانية ترتفع بمقاييس الاخلاق والفضائل مع ارتفاع بنى الانسان

كانت قبائل اسرائيل محصورة فى نفسها ، وكانت عبادتها محصورة فى حدودها ، وكانت قبلتها القصوى من العبادة أن تسلم فى عزلتها مع الهها الذى احتكرته واحتكرها ، فلم تطلب من النبوة الا ما تلتمسه من السلامة فى تلك العزلة : صناعة موقوفة على استطلاع الغيب لتحذيرها من الضربات التى تواجهها ولا تخشاها من آله غير آلهها



وبعد ستة قرون من آخر رسالة فى بنى اسرائيل يستمع العالم الى صوت من جانب الجزيرة العربية يدعو الى رب العالمين : رب العربى والاعجمى ، ورب الابيض والاسود ، ورب كل عشيرة وكل قبيلة ، لا يستأثر بقوم ولا يؤثر قوماً على قوم ، الا من عمل صالحا واتقى حدود الله ..

صوت نبى ينادى كل من بعث اليه أنه لا يعلم الغيب ، ولا يملك خزائن الارض ، ولا يدفع السوء عن نفسه فضلا عن قومه ، ولا يعلم أن الخوارق والمعجزات تنفع أحدا لا ينتفع بعقله ولا يتفكر فيما يسمع من نبى أو رسول !

صوت نبى يقول للناس انه انسان كسائر الناس ، وهو بشير يهدى الى الحق والرشد ، نذير يحذر من الباطل والضلال ..

أى مشابهة بين الصوتين ؟ ..

بل أى اختلاف قط بينهما يجاوز هذا الاختلاف ؟..

يرثى لمن يقول ان الصوتين سواء . فأما من يقول ان النداء باسم رب العـــالمين نسخة محرفة من النداء برب القبيلة بين شركائه من أرباب القبائل ـ فانما هو خطأ حقيق أن يسمى عجزا فى الحس ، لانه أظهر للحس من أن يحتاج الى اطالة بحث أو تعمق فى تفكير ..

ونختم الكلام على النبوة كما نختم الكلام على العقيدة الالهية سائلين : كيف تسنى لنبى الاسلام أن ينفرد بهذه الدعوة وحيدا فى تاريخ الاديان ؟ ..

الارادة الالهية هى الجواب الذى لا معدى عنه لمن يسأل ذلك السؤال ..

ومن آمن بالاله فلا معدى له عن ارادة الله فى تفسير هذه الظاهرة التى لا نظير لها فى أديان الكتابيين وغير الكتابيين .. نعم لا معدى له عن ارادة الله ولو وصف الرسول بما شاء من نفاذ البصيرة وسمو الضمير .

الإنسان

الانسان حيوان ناطق ..

الانسان حيوان مدنى بالطبع ..

الانسان حيوان راق ..

الانسان روح علوى سقط الى الارض من السماء ..

***

هذه التعريفات أشهر ما اشتهر من التعريفات المحيطة بمعنى الانسان :

أولها ـ محيط به من جانب مزاياه العقلية ..
وثانيها ـ محيط به من جانب علاقاته الاجتماعية ..
وثالثها ـ ينظر الى ترتيب الانسان بين أنواع الاحياء على حسب مذهب التطور ..

ورابعها ـ ينظر الى تعريف الانسان بهذه الصفة الى قصة الخطيئة التى وقع فيها ادم حين أكل من شجرة المعرفة بغواية الشيطان ..

وكل هذه التعريفات تحيط بمعنى الانسان من بعض نواحيه ، واخرها لا يحيط بمعناه الا عند من يؤمن بقصة

الخطيئة ويؤمن معها بميراث الخطيئة فى بنى ادم وحواء ..

وأما تعريف الانسان بما وصف به فى القرآن الكريم وأحاديث النبى عليه السلام فقد اجتمع جملة واحدة فى تعريفين جامعين :

الانسان مخلوق مكلف ..

والانسان مخلوق على صورة الخالق ..

فالاسلام لا يعرف الخطيئة الموروثة ، ولا يعرف السقوط من طبيعة الى ما دونها ، فلا يحاسب أحدا بذنب أبيه ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وليس مما يدين به المسلم أن يرتد النوع الانسانى الى ما دون طبيعته ، ولكن مما يؤمن به أن ارتفاع الانسان وهبوطه منوطان بالتكليف ، وقوامه الحرية والتبعة . فهو بأمانة التكليف قابل للصعود الى قمة الخليقة ، وهو بالتكليف قابل للهبوط الى أسفل سافلين ، وهذه هى الامانة التى رفعته مقاما فوق مقام الملائكة ، وهبطت به مقاما الى زمرة الشياطين :

« إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوات وَالأَرْضِ وَالجِبَال فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ » .

(سورة الاحزاب)

***

« بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بصير » . (سورة القيامة)

***

وبهذه الامانة ارتفع الانسان مكانا عليا فوق مكان

الملائكة ، لانه قادر على الخير والشر ، فله فضل على من يصنع الخير لانه لا يقدر على غيره ولا يعرف سواه

« وَيَدْعُو الإِنسَانُ بالشرِّ دُعَاءهُ بالخيرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجولاً » . (سورة الاسراء)

***

وبهذه الامانة هبط الانسان غرورا وسرفا الى عداد الشياطين :

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكلِّ نبيٍ عَدوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخرفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... » (سورة الانعام)

***

« إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » . (سورة الاسراء)

***

وما من نقيصة من نقائص النفس لا تعرو الانسان من قبل هذه الامانة : أمانة التكليف :

« إِنهُ ليئُوسٌ كَفورٌ » . (سورة هود)

« إِنَّ الإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ » . (سورة ابراهيم)

« إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيرُ مَنُوعًا » . (سورة المعراج)

« وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شيْءٍ جَدَلاً » .

(سورة الكهف)

« إِن الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى » .

(سورة العلق)

« إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » . (سورة العاديات)

« إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ » . (سورة العصر)

« بلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيفجُرَ أَمَامَه » . (سورة القيامة)

« وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا » . (سورة الاسراء)

« وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاَ » . (سورة النساء)

« إِنْ يَتبِعُونَ إِلاَّ الظَنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى أَمْ للإِنْسَانُ مَاتَمَنَّى » .

(سورة النجم)

فهذا الانسان يتردى من أحسن تكوين الى أسفل

سافلين ، ولا يزال فى الحالين انسانا مكلفا قابلا للنهوض بنفسه بعد العثرة ، قابلا للتوبة بعد الخطيئة ، محاسبا بما جنت يداه غير محاسب بما جناه سواه

« وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى » ... (سورة النجم)

***

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ » . .

(سورة الاسراء)

***

« وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

(سورة الانعام والاسراء وفاطر والزمر)

***

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ، إِلاَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » .

(سورة التين)

***

ذلك جماع ما يوصف به الانســــان تمييزا له من العجماوات ، وتمييزا من الارواح العلوية على السواء ..

ولهذا كان فى أحسن تقويم ..

ولهذا يرتد الى اسفل سافلين ..

وقوام التقويم الحسن الايمــان وعمل الصالحــات ، وسبيل الارتداد الى أسفل سافلين مطاوعة الهــوى والغرور والسرف وطغيان القوة والغنى ومنع الخــير

والهلع من البلاء والعجلة مع الضعف والاغراء ..

وقصة آدم مثل لما يعرض للانسان من الخطيئة والنجاة ..

خطيئته لاتدينه أبدا ولا تدين أبناءه أبدا ، ونجاته رهينة بتوبته وما ينتفع به من علم ربه ..

« وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » ... (سورة طه)

***

« فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ » . (سورة البقرة)

***

ومن تمام خواص الانسانية فى عقيدة المسلم أن قابلية التكليف فى الانسان متصلة بقابلية العلم ويسرة الانتفاع بقوى الجماد والحيوان فى مصالحه وشئون معاشه ..

***

« اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ... » (سورة العلق)

« وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا

سُبْحانَكَ لا علمَ لَنَا إلاَّ مَاعَلمْتَنَا إنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيم .»
(سورة البقرة)

***

« وَلقد كَرَّمنا بنى آدمَ وَحَمَلْنَاهُم فى البرِّ والبحرِ وَرَزَقناهُم من الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً »
(سورة الاسراء)

***

« سخَّر لكُمْ مَافِى الأرْضِ » ... (سورة الحج)

***

« سخَّر لكُمْ مَافِى السَّمٰوَاتِ » ... (سورة لقمان)

***

هذا العلم الذى استعد له الانسان هو مناط التكليف وهو مآل التبعة التى نهض بها هذا المخلوق المفضل على كثير من المخلوقات الامين على نفسه وعليها بما وهب له الله من قدرة ومن دراية

فاذا قامت الكفارة على الخطيئة الموروثة فى المسيحية، فالأمانة فى الاسلام هى التى يقوم عليها الخلاص ويرجع اليها التكليف وتكتب عليها تبعته فى حياته غير مسئول عما سلف من قبله : تبعة يحملها بما كان له من قدرة عليها وعلى سائر مخلوقات الله التى فى ولايته

ولا بد أن تعرض لنا مسألة القدر مع مسألة

التكليف . ومسألة القدر ـ كما لا يخفى ـ هى معضلة المعضلات فى جميع الأديان ومذاهب الحكمة والفلسفة ؛ لأنها هى مسألة الحرية الانسانية والارادة المختارة، وهى فى الحق مسألة الانسان الكبرى فى علاقته الابدية بالكون، فلا نهاية لها الى آخر الزمان ، ولم تواجهها عقيدة غابرة أو حاضرة بأفضل مما واجهها به الاسلام

ونظرة موجزة فيما انتهت اليه العقائد والمذاهب فى الأمم الغابرة والحاضرة تمهد لنا وسيلة المقـــارنة بين مسألة القدر فى تلك العقائد والمذاهب جميعا وبين هذه المسألة فى الديانة الاسلامية كما بسطتها آيات القرآن الكريم

كان الهنود الاقدمون يجعلون للقـــــدر الحكم الذى لاحكم غيره فى جميع الموجودات ومنها الالهة والنـــاس والأحياء والنبات والجماد، ولا فكاك من قبضة «الكارما» فى أدوارها التى تتعاقب بين الوجود والفنـــاء الى غير انتهاء ، ولا اختيار للانسان فى الحالة التى يولد عليهـــا لأنها مقدورة عليه من قبل ميلاده منذ أزل الآزال ، ولا تبديل لها الى أبد الآباد حتى ينفصل من دولاب الخلق، باجتناب الولادة واللياذ بعالم الفناء أو عالم « النرفانا » المطلق من قيود « الوعى » والشعور بالشقاوة أو النعيم

وحل المجوس مشــكلة القدر بعقيـــدتهم فى الثنوية وانقسام الوجود بين اله النور واله الظلام . فكـل ما غلب عليـــه اله النور فهو خير وكل ما غلب عليـــه اله الظلام فهو شر ، ولا عاصم لاله النور نفسه من غلبـــة الشر عليه فى تلك الحرب السجال التى لا تنتهى الابنهاية للكون كله تتخبط فيها الظنون

وآمن اليونان بغلبة القدر على العباد والمعبـــودين . ورواياتهم عن ضرباته تمثله للناس هازئا بهم متحديا لهم

يطاردهم ويتجنى عليهم ويريهم عجزهم عن الفرار من نقمته أو نقمة رسوله « نمسيس » Nemesis ربة الثأر التى تأخذ الجار بذنب الجار وتلاحق البعيد بجريرة القريب ..

وآمن المصريون الأقدمون بالقدر وبالحرية الانسانية : فأقاموا فى العالم الآخر محكمة سماوية يقف الميت بين يديها ويحاسب على أعماله وتحسب له أو عليه صلوات الكهنة والشفعاء

وآمن البابليون بالطوالع التى تلازم الانسان بحكم مولده تحت نجم من النجوم يحسب فى علمهم من نجوم السعود أو نجوم النحوس . وجعلوا للأيام نجوما تدور معها ولا تخرج هذه الأيام من طالعها ، وجعلوا للفصول نجوما تتداولها ولا تتغير فى مجاريها الا بما يكون من وساطة المنجمين وضحايا أصحاب القرابين

والديانة الاسرائيلية تؤمن — على ما هو معلوم — باختيار الاله لشعب يؤثره على سائر الشعوب وذرية يؤثرها على سائر الذرارى ، واناس يؤثرهم على سائر الناس قبل خروجهم من بطون الأمهات . فبورك يعقوب وحاق السخط الالهى بعيسو وهما فى البطن جنينان توأمان ، وأصابت البركة والسخط بنيهما الى أعقاب الأعقاب : « ومن أحشائك يفترق شعبان ، شعب يقوى على شعب وكبير يستعبده صغير .. » .. ولم يبلغ القدر عند بنى اسرائيل أن يكون نظاما كونيا يجرى عليه قضاء الله مجرى النواميس والشرائع الأخلاقية . بل كان « يهوا » يجرى فيه على حكم ثم يندم عليه ويبدله تارة بعد تارة على حسب الحالة التى تطرأ بغير حسبان .. قال النبى أرميا يتحدث باسم يهوا .. « قم أنزل الى بيت الفخارى وهناك اسمع كلامى . فنزلت الى بيت

الفخاري اذا هو يصنع عملا على الدولاب . ففسد الوعاء الذى كان يصنعه من الطين بيد الفخارى فعاد وعمله وعاء آخر كما حسن فى عينى الفخارى أن يصنعه . فعاد الى كلام الرب قائلا : أما أستطيع أن أصنع لكم كهذا بيدى يا بيت اسرائيل ؟ يقول الرب : هوذا كالطين بين الفخار أنتم كهذا بيدى يابيت اسرائيل . وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالقلع والهدم والأهلاك فترجع تلك الأمة التى تكلمت عليها عن شرها فأندم على الشر الذى قصدت أن أصنع بها ، وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالبناء والغرس فتفعل الشر فى عينى فلا تسمع لصوتى فأندم على الخير الذى قلت انى أحسن اليها به »

وقد ذكر فى سفر الخروج أن يهوا وصف نفسه فقال:

« أنا الرب الهك الله غيور . أفتقد ذنوب الآباء فى الابناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى . وأصنع احسانا الى الوف من محبى وحافظى وصاياى »

ثم جاءت المسيحية بعد الاسرائيلية فربطت بين خطيئة آدم وقضاء الموت عليه وعلى أبنائه ، ومن لم يربط بين الخطيئة وقضاء الموت من المتأخرين جعل الهلاك الروحى قضاء محتوما بديلا من موت الجسد . وأقدم ما جاء من أقوال الرسل المسيحيين عن قضاء الموت فى الانسان كلام بولس الرسول من رسالته الى أهل روما . فانه فى هذه الرسالة يقرر أن الأكل من الشجرة هو أصل الشر فى العالم الانسانى ، وكفارته الموت الذى يصيب الجسد ولا تكون كفارة الروح الا بفداء السيد المسيح ، وقد عاد بولس الى مثل الفخار والخزف فقال : « ماذا نقول ؟ العل عند الله ظلما ؟ . . حاشا لله . لأنه يقول لموسى : أرحم من أرحم وأرأف بمن أرأف . فليس الأمر لمن يشاء أو لمن يسعى ، بل الله الذى يرحم .. ومن أنت

أيها الانسان حتى تحارب الله ؟ ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا ؟ أليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة اناء للكرامة وآخر للهوان ؟ فماذا ان كان الله — وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوته — احتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهيأة للهلاك، ولكى يبين غنى مجده عمل آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد .. »

وتتباعد آراء العلم الطبيعى والفلسفة النظرية فى هذه المسألة كما تباعدت عقائد الأديان وأقوال المتدينين فيها، وزبدة آراء العلماء الطبيعيين الى أوائل القرن العشرين أن قوانين المادة تحكم كل شىء فى عالم الجسد فهى ضرورات حتمية لا موضع فيها للحرية الانسانية الا أن تجرى فى مجرى تلك القوانين، ثم جدت فى القرن العشرين نظريات تشكك فى هذه الحتمية المقيدة بالنواميس والقوانين يقول بها كبار العلماء من طبقة نيلز بوهر الدنمركى Niels. Bohr صاحب جائزة نوبل للعلوم عن سنة ١٩٢٢ وهيزنبرج Heisenborg الألمانى صاحب جائزة نوبل للعلوم سنة ١٩٣٢ والأول يقرر أن الكهارب لا تتبع فى انتقالها قانونا مطردا تجرى عليه فى الذرة وهى عنصر المادة ، والثانى يقرر أن التجربة العلمية لا تأتى فى تكرارها بنتيجة واحدة وأن التجارب جميعا تؤيد اللاحتمية ولا تؤيد الحتمية التى اصطلح عليها جمهرة العلماء الطبيعيين الى أوائل القرن العشرين، ويرد على هيزنبرج علماء آخرون فيقولون ان التجارب تختلف لأن آلات الضبط العلمى لاتحيط بجميع العوامل التى تتكرر فى كل تجربة ، واننا اذا تحققنا من وحدة العوامل فى كل تجربة متكررة فالنتيجة لاشك واحدة

ولا نحصى مذاهب الفلاسفة وتفريعاتهم على هذه

المذاهب فى مسألة القدر والحرية والجبرية والحتمية واللاحتمية . الا اننا نستصفى منها زبدة جامعة لمذهب الواقعيين ومذهب الروحيين او المثاليين . فزبدة مذهب الواقعيين أن الانسان يفعل ما يريد ولكنه لا يريد ما يريد ، وهم يعنون بذلك أن الارادة تختار ، ولكن هذه الارادة نفسها مقيدة بتكوين الانسان الذى تشترك فيه الوراثة وبنية الجسم وضرورات البيئة ، فلا يخلق الانسان ارادته ، بل تولد فيه هذه الارادة وتنشأ معه بغير اختياره ، فيفعل كما يريد ولكنه لا يريد كما يريد

وزبدة مذهب الروحيين أو المثاليين أن الانسان جسد وروح .. فجسده خاضع لاحكام المادة كسائر الاجساد ، وروحه طليق مختار يخضع لجسده فى أمور ويخضع هو جسده فى أمور ، وهو المسئول اذا انقاد لدواعى جسده ولم يجهد جهده للانتفاع بحريته فى مقاومة تلك الدواعى وموازنتها بما يصلحها عند فسادها ويقومها عند اعوجاجها ..

وجميع هذه المذاهب لا تحل مشكلة القدر على الوجه الحاسم الذى تتفق عليه العقول وترتاح اليه الضمائر . وليس فيها ـ بتفصيلاتها ـ عقيدة تفضل عقيدة المسلم أو تقترب من حل لمسألة القدر لم تقترب منه تلك العقيدة ..

وقبل أن نجمل أقوال الثقات فى تفسير آيات القرآن الكريم نعود الى مشكلة الشر التى قلنا فى فاتحة هذا الكتاب انها مشكلة شعورية وليست مسألة عقلية فى جوهرها . ومشكلة القدر هى مشكلة الشر بعينها معادة فى عبارات أخرى ، اذ هى مشكلة المحاسبة على الشر الذى يفعله الانسان ويريد أن يعلم مبلغ نصيبه من التبعة في احتمال جزائه

وليس فى الأمر مشكلة عقلية . لأن العقل لا يستطيع — مع الايمان بوجود الله — أن ينكر قدرته وحكمتـــه وعدله فى اجراء حكمته وقدرته

والعقل كذلك لا يستطيع أن يعتقد أن الانسان المكلف والحجر الجامد سواء فى الاختيار ، ولا يستطيع أن ينكر التفاوت بين الناس فىالحرية أو التفاوت بين أعمال الفرد الواحد فى الاختيار على حسب الرغبة والمعرفة

وانما تبرز المشكلة عندما تمس الانسان فى شعوره ويحتاج الى التوفيق بين قدرة الله وعدله فيما يصيبه من ألم الجزاء وعذاب الندم والتبكيت ..

ولا شك عندنا فى حقيقة واحدة نعتقد أنها تلم شعث الخلاف كثيرا بعد طول التأمل فيها ..

تلك الحقيقة أن العدل الالهى لا تحيط به النظرةالواحدة الى حالة واحدة ، ولا مناص من التعميم والاحاطة بحالات كثيرة قبل استيعاب وجوه العـــدل فى تصريف الارادة الالهية ..

ان البقعة السوداء فى الصورة الجميلة وصمة قبيحة اذا حجبنا الصورة ونظرنا الى تلك البقعة بمعزل عنها ، ولكن هذه البقعة السوداء قد تكون فى الصورة كلها لونا من ألوانها التى لا غنى عنها أو التى تضيف الى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها ..

ونحن فى حياتنا القريبة قد نبكى لحادث يصيبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته ..

***

فالنظر الى الكون فى ألف سنة يكشف لنا من دلائل التوفيق بين القدرة الالهية والعدل الالهى ما لا تكشفهالنظرة اليه فى سنة واحدة ، وندع القول عن النظرة للحـــادث

الواحد فى الناحية الواحدة من حياة فرد بعينه من أفراد الامم الانسانية ..

وعلى هذا النحو نقول اننا نقترب من التوفيق بين القدرة الالهية والعدل الالهى ولا نقول اننا نحيط بدلائل هـذا التوفيق جميعها . فان الاحاطة بدلائل الحكمة الالهية أمر غير معقول فى حكم العقل نفسه . اذ كان العقل المحدود لا يحيط بالقدرة التى ليست لها حدود ..

وعلى هذا النحو تتوارد آيات القرآن الكريم عن قدرة الله وعن حرية الانسان وعن عدل الله فى اجراء قدرته ومحاسبة المخلوق على حريته :

«وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً».

(سورة الانسان)

***

« وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » ...

(سورة السجدة)

***

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ... (سورة الانفال)

***

« كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ »... (سورة الطور)

***

« وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ » ... (سورة فصلت)

« وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلعِبَادِ » ... (سورة آل عمران) .

***

« إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعلَمونَ »

(سورة الاعراف)

ولعل الصعوبة الكبرى انما تساور العقل من فهم قوله تعالى :

« ولَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا »

(سورة السجدة)

فلم لا يشاء الله أن تؤتى كل نفس هداها على السواء ؟

وتذليل الصعوبة في الجواب نفسه • فان الهداية اذا ركبت في طبائع الناس كما تركب خصائص الاجسام على السواء بين كل جسم وجسم فتلك هى الهداية الآلية التى لا اختلاف بها بين مدارك الارواح ولوازم الاجسام المادية • ومن اختار ذلك فانما يختار لنوع الانسان منزلة دون منزلته التى كرمته وفضلته على سائر المخلوقات .

فالعدل فيما اختاره الله للانسان أعم وأكرم مما يختاره الانسان لنفسه اذا هو آثر الهداية التى تسوى بينه وبين الجماد ..

وأيا كان القرار الذى يسكن اليه المسلم بعد تلاوة هذه الآيات فمن الصدق لضميره أنه لابد أن يكون فى ذلك القرار عمل للعقيدة الايمانية ، وعمل العقيدة الايمانية هو أن يعالج شعور القلق بشعور الطمأنينة والثقة ، وبخاصة اذا أيقن العقل أن قدرة الله لن تكون الا على هذه الصفة وأن حرية الانسان لن تكون الا على هذا الوجه ، وأن حريته على هذا الوجه لا تناقض امكان العدل الالهى متى التمسنا دلائل هذا العدل فى آيات الكون كله ولم نقصرها على حادث

فى حياة مخلوق يتغير شعوره بآلامه وعواقبها من حين الى حين ..

***

وكثيرا ما تمر بنا فى رحــلات الغربيين الى الشرق الاسلامى كلمات منقولة عن التركية والعربية مثل كلمة : « قسمة » وكلمة « مكتوب » وكلمة « مقدر » يرددونهــا بالالفاظ محرفة عن ألسنة العامة فى البلاد التى يرحلون اليها ، ويفهمون منها أن المسلم جبرى مستغرق فى الجبرية يستسلم للحوادث ولا يرى أن المحاولة تجديه شيئا فى اصلاح شأنه أو تغيير قسمته . ومما لا مراء فيه أن هــذه الجبرية مسموعة على أفواه الجهلاء شائعة بينهم فى عصور الجمود والاضمحلال ، ولكنها اذا نسبت الى الدين لم يكن لنسبتها اليه سند من الكتاب الكريم ، ولا من الحــديث الشريف . فان جبرية المسلم العارف لكتابه وسنة نبيه لن تكون كجبرية أحد من الذين امنوا قديمــــا بالكارما الهندية أو بالطوالع البابلية أو بالقدر الغاشم فى الاساطير اليونانية ، ولا يستطيع المسلم العارف لكتابه وسنة نبيه أن يدين بجبرية كجبرية المؤمن باصطفاء الله لسلالة من السلالات وخروج سائر السلالات من حظيرة رحمته ونعمته ولا يستطيع ان يدين بجبرية كجبــرية المؤمن بوراثة الخطيئة وقبول الكفارة عنها بعمل غير عمله . وانما جبرية المسلم على حسب علمه بدينه جبرية ينتهى اليها كل من آمن بقدرة الله وعدله ، وآمن بأن الهداية من طريق التكليف أصح وأدنى الى العدل الالهى من هداية آلية تتركب فى طبائع الناس جميعا كما تتركب خصائص المادة فى طبائع الاجسام

وبعد فنحن نكتب هذا الفصل عن الانسان فى العصر الذى زيد فيه تعريف محيط الانسان على التعريفات المحيطة التى اشتهرت من قبل وأجملناها فى أول هذا الفصل لنضيف اليها التعريف المحيط بحقيقة الانسان فى عقيدة الاسلام ..

هذا التعريف الجديد الذى زيد فى العصر الاخير هو تعريف العلماء النشوئيين القائلين بمذهب التطور أومذهب النشوء والارتقاء ، ومعظمهم يعرفون الانسان بأنه حيوان راق .. فيضعون هذا التعريف مقابلا لقول القائلين أن الانسان روح منكوس أو ملك ساقط من السماء ..

ما قول المسلم فى هذا المذهب الجديد ؟ أتراه يصدقه ؟ أتراه يكذبه ؟ وهل فى نصوص دينه ما يفسر هذا المذهب تفسير الموافقة والقبول ؟ وهل فى نصوص دينه ما يفسر تفسيرا يوجب عليه رفضه والاعراض عنه ؟

نحن لا نحب أن نقحم الكتاب فى تفسير المذاهب العلمية والنظريات الطبيعية كلما ظهر منها مذهب قابل للمناقشة والتعديل ، أو ظهرت منها نظرية يقول بها ناس ويرفضها اخرون ، ومهما يكن من ثبوت النظريات المنسوبة الى العلم فهو ثبوت الى حين لا يلبث أن يطرق اليه الشك ويتحيفه التعديل والتصحيح ، وقريبا رأينا من فضلائنا من يفسر السموات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية، ثم تبين أن السيارات أكثر من عشر ، وأن الصغار منها تعد بالمئات ولا يحصرها الاحصاء ، فليس من الصواب اذن أن تقحم أصول العقيدة فى تفسير أقوال وآراء ليست من الاصول فى علومها ولا يصح أن تتوقف عليها الاصول ، وحسب الدين من سلامة المعتقد وموافقته للعقل أنه لا يحول بين صاحبه وبين البحث فى العلم وقبول الرأى الذى تأتى

به فتوح الكشف والاستنباط . وعلى هذه السنة يرجع المسلم الى آيات كتابه واحاديث نبيه فلا يرى فيها منعا يمنعه أن يدرس التطور ويسترسل فى مباحثته العلمية الى حيث يلهمه الفكر وتقوده التجربة ..

***

« ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشهادةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ، الذِى أَحسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ » .

(سورة السجدة)

***

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ » ...

(سورة المؤمنون)

***

واذا اعتقد المسلم أن خلق الانسان الاول مبدوء من الارض وأنه مخلوق من سلالة أرضية فلا عليه بعد ذلك أن يسفر مذهب التطور عن نتيجته المقررة كيف كانت على الوجه القاطع المتفق عليه ، فما يكون فى هذه النتيجة نقض لعقيدة المسلم فى أصل الانسان : انه جسد من الارض وروح من عند الله ، وليس فى وسع العالم النشوئى أن يدحض هذه العقيدة برأى قاطع أحق منها بالتطبيق والايمان

***

يقول نيتشه فى احدى كلماته التى لا ندرى أفى جد أم

مزاح : ان الانسان قنطرة بين القرد والسوبرمان

وكاد يمزح من يقول هذه الكلمة وان لم يقصد الى المزاح • فان القنطرة التى قصاراها أن تنقل الانسان من قرد الى سوبرمان لا توجد ولا يمكن أن توجد •• فتلك قنطرة لا يبنيها القرد ولا يبنيها السوبرمان ولا تبنى نفسها بيديها ولا تبنيها الطبيعة التى قد تخطو من حالق الىالهاوية وقد تخطو من الهاوية يمنةويسرة الى غير وجهة

انما الاحجى أن يقال ان الانسان قنطرة من الارض الى السماء يبنيها الله :

قنطرة قرارها أسفل سافلين وذروتها أعلى عليين

معراج من التراب المجبول الى أفق الارواح والعقول

«يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ».

(سورة الانشقاق)

وانه لملاقيه لانه مخلوق على صورته كما جاء فى الحديث النبوى الشريف ••

مخلوق على صورة الخالق ••

يرتفع من التراب الى السماء أوجا فوق أوج فى طريق عسر طويل هو طريق النهوض بأمانة التكليف ••

وما من مسلم يدين بصورة جسدية للاله الواحد الاحد الذى « ليس كمثله شيء » وله المثل الاعلى ••

صورته فى خلد المسلم كوجهه ويده المذكورين فى القرآن الكريم : صورة تناسب كماله ووجه ويد تناسبان ذلك الكمال ••

والانسان مخلوق على صورة الخالق لان صورته جل وعلا هى صورة كاملة من الصفات الحسنى فى مثلها الاعلى ••

رحمة وكرم وعمل ومشيئة ومجد وعظمة وفتح وابداع وانشاء ..

وكل صفة من هذه الصفات مطلوبة من الانسان على غاية ما يستطيع ..

لا يرتقي ذلك المرتقى الذى لا يدرك بالابصار ولا بالعقول ولكنه يرتقى قادرا على الارتقاء من التراب الى السماء ..

مخلوق على صورة الخالق ..

مخلوق تهبط به أمانة التكليف الى أسفل سافلين وترتفع به الى أعلى عليين ..

ذلك هو الانسان فى عقيدة الاله الواحد الاحد الذى لا أول له ولا اخر ..

ذلك هو الانسان فى عقيدة النبى الصادق الامين : نبى يدعو الى رب العالمين ..

الشيطان

فى الكلمة التمهيدية التى قدمنا بها لكتابنا عن «ابليس» قلنا ان معرفة الانسان للشيطان كانت فاتحة خير .. لانه لم يعرف الشيطان الا بعد ان عرف الخير والشر ، وعرف الفرق بين الشر والضرر . فعرف ان الشر لا يجوز وكان كل ما يعرفه منه أنه لا يسر ولا يوافق مآربه وشهواته ، وعرف أن مخالفة المآرب والشهوات لا تكون شرا على الدوام بل هى خير فى كثير من الاحيان ، ومن ثم عرف كيف يكبح مآربه وشهواته وهو راض مطمئن لانه يعلم أنه عامل للخير مستقيم على نهج الصلاح

وقارنا فى فصول الكتاب بين أسلوب الدين فى تعليم الاخلاق وأسلوب التلقين والتعليم الذى سميناه بالاسلوب الاكاديمى ، أو اسلوب المطالعة والدراسة . وان بين الاسلوبين فى أعماق النفس وفى ميادين العمل لبونا جد بعيد ، لان حدود الخير والشر فى أحدهما حيوية تمتزج بالشعور والوجدان وتسمو الى تقديس الخيرات او تنحدر الى النفور من نجاسة الشرور ، وما الاسلوب الاخر - اسلوب التلقين والمطالعة - الا أسلوب اوراق واذواق تنقسم فيه معانى الخير والشر فى الضمير

والفكر كأنها اقسام فى صفحات أو تصنيفات فى الودائع والمخزونات

وختمنا كتاب أبليس بكلمة عن مقاييس الحقائق التى تعددت وتنوعت فلا تقاس كلها بمقياس الحساب أو مقياس المعمل أو مقياس التجربة المحسوسة ، وبخاصة ماكان منها متصلا بالضمير والوجدان

«ولا نخال أن السريرة الانسانية تكشف عن اعماقها بعلم من العلوم كهذا العلم — علم المقارنة بين الاديان — وعلم الدراسات النفسية ، وهو فى خطواته الاولى أوعلى ابواب النتائج التى لاتتفتح الابين التردد والانتظار

« لكن الفائدة المبكرة التى خلصت للعقل الانسانى من بواكير البحث فى العلمين ان مقاييس الحقائق تختلف وتتعدد ، وأن الحقائق كلها لا تقاس بأرقام الحساب وانابيق المعامل وتجارب العلميين ومناظر الفلكيين »

« فهاهنا حشد من العقائد والاخيلة تمتلىءبه سيرة النوع الانسانى فى نحو مائة قرن يدركها التاريخ ..

«ماهى فى ارقام الحساب أو انابيق المعامل اوتجارب الطبيعة او مناظر الفلكيين ؟ ..

« سهل على ادعياء العلم ان يعرفوها بكلمتين : حديث خرافة ! ..

وحديث الخرافة يجب ان يلغى . فتعالوا نلغه ونعهد لادعياء العلم جميعا أن يبدأوا بالنوع الانسانى فى تعلم الخير والشر والقداسة واللعنة على برنامج غير هذا البرنامج ، وتربيته .. غير هذه التربية .. وليتسلم ادعياء العلم هذا النوع الانسانى قبل مائة قرن وليأخذوا فى تعليمه الابجدية من هذه الدروس ..

« ولنفرض اولا فرضا مستحيلا أنهم سيكونون قبل

مائة قرن على معرفة بما يسمونه اليوم خـــرافة وما يسمونه تحقيقا ومايسمونه دراسة منطقية او علمية..

« وليبدأ النوع الانسانى فى هذه المدرسة بفلســفات الاخلاق على مذاهبها ، وفروضها ، واحتمالاتها ، وردودها ومناقشاتها ..

« وليحفظ فلسفات الاكاديمية كلها ويتخرج عليها ..

«ولقد حفظها ولقد تخرج منها بما شاء له ادعيـــاء العلم من آراء ..

«ولقد وصلنا بعد الرحلة الطويلة الى القرن العشرين فلماذا نقول ؟

« نقول ان هذا فى الحق هو حديث الخرافة الذى لايعدو الالفاظ والعناوين واسماء المدارس والمريدين ..

« لكن النوع الانسانى ترك هذه الاكاديمية قبل مائة قرن وامعن فى طريقه الذى هداه اليه القدر واعدته له الفطرة . ونتيجة هذا الطريق انه أعطى الحياة النابضـــة لكل خلق من أخلاق الخير والشر والقداســـة واللعنة ، وان علم العلماء اليوم لايستطيع أن يقيم الفوارق الحية المحسوسة بين خلق وخلق فارقا واحدا كالفـــارق الذى نفهمه ونحسه ونحياه حين نتـكلم عن الخلائق الالهية والخلائق الملكية أو الخلائق الشيطانية أو عما يجعلها من الخلائق السمـــاوية او الخلائق الارضيـــة او الخلائق الجهنمية ..

« ان العلماء الذين يستعيرون تعبيراتهم المجازية من هـــذه الفوارق لايفعلون ذلك لعبا بالالفاظ او تظــرفا بالتمثيل والتشبيه ، ولكنهم يستعيرون ذلك التعبــير لانه أولى واوضح واقوى من كل تعبير يستعيرونه من المدرسة النفعية أو المدرسة السلوكية أو المدرســـة الانفعاليـــة

ومدارس روح الجماعة أو تضامن الهيئات والبيئـــــات وما اليها من ألفاظ ناصلة ومعان حائلة واسماء لم تخلق من مسمياتها شيئا وهيهات أن تخلقه ولو تسمت بها مئات القرون .. وغاية ماتبلغه أنها تأتى الى محصول القرون بعد زرعه ونقائه واستوائه وحصده ، فتكتب العناوين على غلاته ويبادره ولا تأمن بعدذلك ان تضل بين تلك العناوين التى كتبتها بيديها

« فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لا تقـــاس بمقياس الارقام وأنابيق المعامل ومن أراد أن يقيسها بهذا المقياس فهو الذى سيخطىء لا محال ، كما يخطىء كل واضع لامر من الامور فى غير موضعه ، وكل من يقيس شيئا وهو يجهل كيف يقاس .. »

***

ان الايمان شوق عميق من أشواق النفس الانسانية ينساق اليه الانسان بباعث من فطرته ..

أما الشيء الذى يحتاج الى أناة الفكرة ورحابة الصدر وقياس كل حقيقة بما يناسبها من مقاييسها وخصـائصها فذلك هو النفاذ الى أسرار الايمان ..

وكل العقائد الايمانية سواء فى الحاجة الى اناة الفكر ورحابة الصدر وحسن القياس للنفـــاذ الى أسرارها . ولكن العقيدة فى عمل الشيطان أحوج هذه العقائد جميعا الى التسليم بسعة الحقائق وتعدد المقاييس التى تكشف عن بواطنها وتنفذ الى كنه مدلولاتها ..

ومن حضرت فى ذهنه سعة الحقائق وجد بين يديه صعوبة لا صعوبة مثلها فى رفض فكرة الشيطان كمـــا يرفضها أدعياء العلم الذين لو جروا على سننهم فى اثبـات

الأشياء لرفضوا وجود المادة الملموسة عجـــزا منهم عن ادراك أصولها ، وما أصولها الا العناصر التى تنشـــق شعاعا متحركا فى أثير لا وزن له ولا حجم ولا حركة ولا لون ولا طعم ولا تعرف له صفة واحدة من صـــفات الأجسام بله الارواح ..

وما نعلم من شيء كهذه العقائد فى بواعث الخير والشر قد تراءت فيه يد العناية الالهية آخذة بيمين هـــذا الانسان الضعيف ــ بل هذا الحيوان الجهول ــ تقوده من عماية الجهالة الى هداية التمييز بين الفضـــيلة والرذيلة وبين الحلال والحرام وبين الفرض والمحظور ..

ومن ثم نرى أن مراحل الانتقال فى تصور روح الشر ــ أو تصور الشيطان ــ قد تكون من أوضـــح المعالم لمتابعة الضمير الانسانى فى ارتقـــائه وتمييزه ، وانه لمن السهل أن تعرف الانسان بمقدار ما يشعر به نحو الشر من النفور أو الخوف . وليست بهذه السهولة معرفتنا للانسان بمقدار مايتمثله من المثل العليا للخير والفضيلة . لأن المثل العليا بطبيعتها تبتعد عن الواقع وتمتزج بالآمال والفروض ، ويشبه هـــذا فى عالم الحس أن قيـــاس الانحطاط بالنسبة الى الحضيض سهل محدود المسافات ولكن قياس الصعود والارتفاع بالنسبة الى الآفاق العليا أصعب من ذلك بكثير

ونحن ــ بالمقارنة بين هذه المراحل فى تصور فكـــرة الشيطان وسلطان الشر على النفس البشرية ــ نستطيع أن نبين مرحلة العقيدة الاسلامية من هذه المراحل وأن نعرف منها مدى قوة الضمير الانسانى فى مواجهة قـــوة الشر كما طرات على العقائد لأول مرة فى تاريخ الاديان يدأ الانسان خطواته المتعسرة فى طريق الخـــير والشر حيوانا ضعيفا بفهم الضرر ولا يفهم الشر ولا يدريه ، واذا

فهم الضرر فانما هو الضرر فى جسده أو فيما يطلبه الجسد من مطالب الطعام والشراب والأمن والراحة ، وكانت الأرواح كلها ضارة تلاحقه بالأذى والاساءة ما لم يتوسل الى مرضاتها بوسائل الشفاعة والضراعة أو بوسائل الضحايا والقرابين

ثم انقسمت الأرواح عنده الى ضارة وغير ضارة ، وما لم يكن ضارا منها فليس امتناعه عن الضرر لأنه يحب الخير أو يكره الشر ، بل هو يمتنع عن الأضرار به لانه روح من أرواح أسلافه وذوى قرابته يصادقه كما يصادق الأب ذريته والقريب ذوى قرباه

ثم طالت مرحلته فى هذه الطريق حتى سنح لهبصيص من التمييز بين الضرر الذى يجوز والضرر الذى لايجوز، وقد سنح له هذا البصيص من عادة الارتباط بالعهود والمواثيق بينه وبين أربابه وبينه وبين عشرائه وحلفائه ، فما كان مخالفا للعهود والمواثيق فهو ضرر مستغرب لا يجوز ، وما كان ضررا لا يجوز فهو لون من ألوان الشر الذى كان مجهولا قبل الارتباط بعهود الصلاة والعبادة أو عهود المحالفة والولاء

وربما غبر الانسان فى هذه المرحلة عشرات القرونحتى وصل الى عهد الحضارات العليا ووصل من ثم الى الديانات التى تلائم عقله وضميره فى كل حضارة منها

هنالك عرف الشر والخير وعرف التمييز بين مايجوز وما لا يجوز ، وهنالك ظهرت بين أممه المتقدمة قوىالشر الكونية التى تتصرف فى الوجود كله وتقضى فيه قضاء يمتد أثره وراء عمر الانسان الواحد ووراء أعمار الأجيال والاقوام ..

وأرفع ما ارتفع اليه الانسان فى هذه المرحلة عقيدة الهند فعقيدة الثنوية فعقيدة مصر الفرعونية ..

فكانت عقيدة الهند أن المادة كلها شر أصيل فيها فلا خلاص منه الا بالخلاص من الجسد ، وكان الشر عندهم مرادفا للهدم والفساد ، يتولاه الاله الواحد فى صورة من صوره الثلاث : صورة الخالق وصورة الحافظ وصورة الهادم الذى يهدم بيديه ما بناه وما حفظه فى صورتيه الأخريين ..

وكانت عقيدة الثنوية من مجوس فارس أن الشر من عند اله الظلام وأن الخير من عند اله النور ، وأن الغلبة أخيرا لاله النور بعد صراع طويل ..

وكانت عقيدة مصر الفرعونية أن الاله « سيت » شرير مع أعدائه ومخالفيه ، وربما كان منه الخير لاتباعه ومؤيديه ، ولم يكن خلاص الروح عندهم منفصلا عن خلاص الجسد ، ولا العالم الآخر عندهم مخلوقا على مثال أرفع من مثال الحياة فى وادى النيل ..

ويميل علماء المقارنة بين الأديان الى تفضيل العقيدة الهندية على العقيدتين الفارسية والمصرية ، ولكنه تفضيل لا يقوم على أساس صحيح . لأن الغاء الخير فى عالم المادة بحذافيره لا يفسح فيه مجالا للخير ولا يجعل الخلاص منه الا كالخلاص من مكان موبوء حدوده كحدود الأبعاد والمسافات وليس فى هذه العقيدة الهندية ما يجعل للهدم لازمة غير لازمة الخلق والحفظ ، فكلها من لوازم عمل الاله بغير تفرقة بين هذه الأطوار تأتى من الاله أو تأتى من العباد ..

وربما كانت عقيدة مصر الفرعونية أقرب هذه العقائد الثلاث الى تنزيه الضمير الانسانى من لوثات الوثنية ، لأنها جعلت للشر نزعة منفردة بين نظم الأكوان ، كأنما هى نزعة التمرد فى عالم يقوم على الشريعة والنظام ..

ثم تميزت من بين عقائد القبائل البدائية والحضارات العليا عقائد الديانات الكتابية التى يدين بها اليوم أكثر من نصف الأمم الانســـانية ، ويتغلغل أثرها فى الأمم الأخرى شيئا فشيئا ولو لم تتحول عن عقائدها الأولى..

تميـزت بين ديانات الأولين الديانة العبـرية والديانة المسيحية والديانة الاسـلامية ، وكانت الديانة العبرية جسرا بين عدوتين : أحداهما عدوة الوثنية والأخــرى عدوة التوحيد والتنزيه ..

ولهذا لم تتميز قوة الخير وقوة الشر بفاصل حاسم فى الديانة العبرية ، فكان الشر أحيانا من عمل الشيطان وأحيانا من عمل الحية ، وكان الشر بهذه المثابة تارة ضررا لا يجوز ، وتارة أخرى ضررا ماديا يأتي من حيوان كريه الى الناس لما ينفثه من سموم قاتلة ، ولم يكن الشيطان منفصلا من زمرة الملائكة بل كان من زمرة الحاشية الالهية التى تنفث سموم الوشاية والدسيسة ..

وقد كانوا ينسبون العمل الواحد مرة الى المعبود«يهوا» ومرة الى الشيطان ، فجاء فى كتاب صموئيل الثانى أن الرب غضب على اسرائيل فأهاج عليهم الملك داود وأمره باحصائهم واحصاء يهوذا معهم ، وجاء فى كتاب الايام أن الشيطان هو الذى وسوس لداود بأجراء هذا الاحصـــاء ولم يرد اسم الشيطان قبل ذلك فى كتب التوراة مقرونا بأداة التعريف التى تدل على الاعلام كأنه كان واحدا من أرواح كثيرة تعمل هذه الاعمال التى انحصرت بعد ذلك فى روح واحد يسمى الشيطان ، ويستعين بمن على شاكلته من الارواح ..

***

ثم انتقلت فكرة الشيطان مرحلة واسعة بعد ظهور المسيحية فتم الانفصال بين الصفات الالهية والصـــفات

الشيطانية ، وأصبح للاله عمل وللشيطان عمل ، ولكنه عمل جسيم يوشك أن يضارع عمل « أهريمان » اله الظلام. لانه سمى فى الاناجيل باسم رئيس هذا العالم واسم اله هذا الدهر ، وكانت له مملكة الدنيا ولله ملكوت السموات، واستقل بشطر كبير من قصة الخليقة فى السماء والارض، فلولاه لما وقعت الخطيئة ولا سقط الجنس البشرى ولا وجبت الكفارة بالفداء ..

وانتقلت فكرة الشيطان أبعد مراحلها بعد ظهور الاسلام، فهو قوة الشر لا مراء ، ولكنها قوة لا سلطان لها على ضمير الانسان ما لم يستسلم لها بهواه أو بضعف منه عن مقاومة الاغراء ..

« إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيهِمْ سُلْطَان » ...

(سورة الحجر)

« إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانَ كَانَ ضَعِيفاً » .. (سورة النساء)

« وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِنْ سُلْطَان إلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أنفُسَكُم » ...

(سورة ابراهيم)

فمن أطاع الشيطان فقد أطاع نفسه فظلمها ولم يظلمها الشيطان :

« قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لنكونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ... (سورة الاعراف)

وما يكون لشيطان أن يطلع على الغيب أو ينفذ الى أسرار

العالم المجهول :

« لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ المُهِينِ »

(سورة سبأ)

وما يكون للشيطان أن يضر أحدا بسحره

« وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ » ...

(سورة البقرة)

وما كان لهم من سحر الا أن تضل الابصار والبصائر كأنما ضلال المسحور ضرب من ضلال المخمور

« إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ »

(سورة الحجر)

« يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى » (سورة طه)

***

فما كان سحر الشيطان الا ضربا من الخيال أو الخبال ، وما كان له بقوة من قوى السحر أو قوى العلم أن يهزم ضمير الانسان ، وكل هذه القوة الخفية بجميع خصائصها التى تراكمت حولها فى العقائد الغابرة منتهية الى وجود كأنه العدم أو كأنه الوهم الذى يملك الضمير الانسانى أن يتجاهله ويمضى على سوائه غير ملتفت اليه لو شاء ، وأنه ليشاء فلا يكون له عليه من سلطان لمشيئة الشيطان ، اذ لامشيئة له فى أمر يوسوس به الا أن يشاءه الانسان

***

بهذه العقيدة الوجدانية الفكرية أقام الاسلام عـرش

الضمير ، وثل عرش الشيطان ..

***

ومن حق البحث الامين على الباحث المنصف أن يضيفها الى عقائد الأسلام في الله وفي النبى وفى الانسان ، فاذا عرف الانصاف فما هو بقادر على أن يزعم أن الاســـلام ديانة محرفة من ديانة سبقت ، واذا عرف الصواب فما هو بقادر على أن يجحد مرتقاه فى أطوار الايمان وأنه غاية ما ارتفع اليه ضمير المؤمن فى ديانات الاقدمين والمحدثين

العبادات

يعرف الدين بعباداته بين اناس كثيرين لا يعرفونه بعقائده ، وربما استدلوا على العقائد بالعبادات لان العبادة فرع من العقيدة يشاهد عيانا فى حيز التنفيذ أو التطبيق . ولكنها – على هذا – من فروع العقائد التى يقل فيها الخلاف وتضيق حولها مواضع الجدل فى الخصومات المذهبية .. اذ كان الغالب على العبادة أنها شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها ، ولا يتجه الى الاعتراض الى وضع من أوضاعها الا أمكن أن يتجه الى الوضع الاخر لو استبدل منها ما يقترحه المقترح بما جرى عليه العمل وقامت عليه الفريضة منذ نشأتها ..

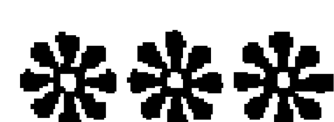
لماذا يكون الصوم شهرا ولا يكون ثلاثة أسابيع أو خمسة ؟ ..

لماذا تكون حصة الزكاة جزءا من عشرة أجزاء ولا تكون جزءا من تسعة أو من خمسة عشر ؟..

لماذا نركع ونسجد ولا نصلى قياما أو قياما وركوعا بغير سجود ؟..

من اعترض بأمثال هذه الاعتراضات فليس مايمنعه أن يعود الى الاعتراض لو فرض الصيام ثلاثة أسابيع ،

أو فرضت الزكاة فوق مقدارها أو دون هذا المقـدار ، أو فرضت الصلاة على وضع غير وضعها الذى اتفق عليه اتباع الدين ..



وليس معنى ذلك أن هذه الاوضاع لاتعرف لهـا أسباب تدعو اليها وتفسر لنا اتباعها دون غيرها ، ولكنها فى نهاية الامر أوضاع « توقيفية » لاموجب من العقل للتحكم فيها بالاقتراح والتعديل ، لان المقترح المعـدل لن يستند الى حجة أقوى من الحجة التى يرفضها ويميل الى سواها

ويسرى هذا على كل تنظيم فى أمور الدنيا ولا يسرى على أمور الدين وحده . فلماذا يكون عدد الكتيبة فى جيش هذه الامة ٥٠ ــ مثلا ــ ويكون فى جيش أمة غيرها ٤٠ أو مائة ؟ ولماذا يجعل اللون الاخضر رمزا لهـذا المعنى فى ألوان العلم القومى عند قوم من الاقوام ، وهو مجعول لغير هذا المعنى عند أقوام آخرين ؟

لامناص فى النهاية من أسباب توقيفية يكون التسليم بها أقرب الى العقل من المجادلة فيها ، لهذا يقل الخلاف بين أصحاب الاديان فى شعائر العبادة حيث يكثر فى كل كبيرة وصغيرة من شئون العقائد الفكرية أو عقـائد الضمير ..

الا أن هذا كله لايقضى علينا بقبول كل عبادة على كل وضع يخطر على البال . ولا يمنعنا أن نفاضل بين العبادات فنرى منها عبادة أفضل من عبادة وفريضة أولى بالاتباع من فريضة . اذ لاشك أن العبادة التى تؤدى غرضها أفضل من العبادة التى لاتؤدى هذا الغرض ولا تؤدى غرضا من الاغراض ، ولا شك فى وجود المـزايا التى تتفاوت بها العبادات وان لم تكن هذه المزايا داخلة فى

الغرض المقصود بشعائر العبادات

والغرض من عبادات الاديان ينطوى على أغراض متشعبة يضيق بها الحصر لانها تقابل أغراض الدنيا جميعا بأغراض الدين . ولكننا قد نجمعها جهد المستطاع فى تنبيه المتدين على الدوام الى حقيقتين لاينساهما الانسان فى حياته الخاصة أو العامة الا هبط به النسيان الى درك البهيمية واستغرق فى هموم مبتذلة لافرق بينها وبين هموم الحيوان الاعجم ، ان صح التعبير عن شواغل الحيوان الاعجم بكلمة الهموم ..

احدى الحقيقتين التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه اليها ضمير الانسان على الدوام هى وجوده الروحى الذى ينبغى أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية وغير شهواته الحيوانية ..

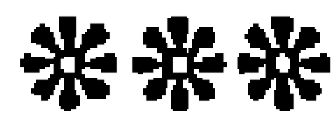


والحقيقة الاخرى التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه اليها ضميره هى الوجود الخالد الباقى الى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية ، ولا مناص من تذكر الفرد لهذا الوجود الخالد الباقى اذا أريد فيه أن يحيا حياة تمتد بآثارها الى ماوراء معيشته اليومية ووراء معيشة قومه بل معيشة أبناء نوعه . وعبثا يترقى الانسان من مرتبة البهيمية الى مرتبة تعلوها ان جاز أن يعيش أيامه يوما بعد يوم وهو لايذكر أنه مطالب بواجب أكبر من واجب الساعة أو واجب العمر كله ، فان الترقى فى كل صورة من صوره يفضى الى غاية واحدة هى خلاص الانسان من ربقة الانحصار فى مطالب اليوم والساعة أو مطالب العمر المحدود بحياته الفردية

عبادة المسلم فى جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم الى هاتين الحقيقتين ..

أنه فى صلاته يستقبل النهار ويتوسطه مرتين ثم يختمه ويستقبل الليل بالوقوف بين يدى الله كأنه يستهديه فى عمله ويؤدى اليه الحساب عن هذا العمل من ساعةاليقظة الى الساعة التى يستسلم فيها للرقاد أو ينطوى فيهاتحت جنح الظلام ...

وان المسلم فى صيامه ليذكر حق الروح من شرابه وطعامه ، ويذكر أنه ذو ارادة تأخذ بيديها زمام جسدها ولا تترك لهذا الجسد أن يأخذ بزمامها ويتصرف بها على هواه ، وأصح مايكون الصيام الذى ينبه الضمير الى هذه الحقيقة أن يقدر المرء على ترك الشراب والطعام فترة من الزمن ، ولا يكون قصاراه منها أن يستبدل شرابا بشراب وطعاما بطعام ..



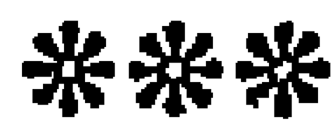
أما الزكاة فى فرائض الاسلام فهى المذكر له بحصة الجماعة من ماله الذى يكسبه بكده وكدحه ، وهى المذكر له بأن يعمل لغيره ولا يعمل لنفسه وكفى ، وهى الامتحان له فيما تهوى الانفس من المال والمتاع ، حيث كان الصيام امتحانا له فيما تهوى الانفس من الشراب والطعام ..

واذا كان الاسلام دينا يدعو الناس كافة الى عبادة رب العالمين فالحج هو الفريضة التى تتمثل فيها هذه الاخوة الانسانية على تباعد الديار واختلاف الشعوب والاجناس، وهى فى اصطلاح العرف الشائع بين الناس بمثابة صلة الرحم وتبادل الزيارة بين أبناء الاسرة الواحدة يجمعها الملتقى فى المكان الذى صدرت منه الدعوة اليها ، وهو أجدر مكان فى بقاع الارض أن يتم فيه هذا اللقاء ..

ولا حاجة الى بيان حكمة الركن الاول من أركان الاسلام وهو ركن الشهادتين . شهادة أن لا اله الا الله ، وشهادة أن محمدا رسول الله ..

فهاتان الشهادتان هما الركن الذى تقوم عليه أركان العبادات الاسلامية ، وبغيره لايكون المسلم مسلمابعقائده وعباداته ..

والشهادتان أسهل العبادات بلفظهما لانه لايعدو أن يكون نطقا بكلمات معدودات ، ولكنهما بمعناهما أصعب الاركان فى الاديان لانهما انتقال من دين الى دين بل مرحلة واسعة بين تاريخ وتاريخ ..



وعلى هذه الوتيرة وما شابهها فى الفرائض الاسلامية يتاح للمسلم أن يوفق بين عباداته التوقيفية وبين أدائها للغرض من العبادة ، وهو تذكيره بوجوده الروحى وتذكيره بوجود اسمى من وجوده وأبقى . واذا كان تحقيق الغرض من العبادة هو ميزان التفاضل بين الشعائر التوقيفية فحسب الاسلام من مزية فى شعائره أنه يوفق بين أوضاعها واغراضها هذا التوفيق ، لو لم تكن له مزية أخرى ..

على أن عبادات الاسلام قد امتازت بين عبادات الاديان بمزية لا نظير لها فى ارفعها وارقاها بالنظر الى حقيقتها أو بالنظر الى جماهير المتدينين بها ، وتلك مزيته البينة التى يرعى بها استقلال الفرد فى مسائل الضمير خير رعاية تتحقق لها فى نظام حياة ..

فالعبادات الاسلامية بأجمعها تكليف لضمير الانسان وحده لا يتوقف على توسيط هيكل أو تقريب كهانة

يصلى حيث أدركه موعد الصلاة : فأينما تكونوا فثم وجه الله ..

ويصوم ويفطر فى داره او فى موطن عمله ، ويحج فيذهب الى بيت لا سلطان فيه لاصحاب سدانة ولا

حق عنده لاحد فى قربانه غير حق المســاكين والمعوزين ..

ويذهب الى صلاة الجماعة فلا تتقيد صلاته الجامعــة بمراسم كهانة او اتاوة محراب ، ويؤمه فى هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للامامة بين الحــاضرين وباختيارهم لساعتهم ان لم يكن معروفا عندهم قبل ذلك ..

انه الدين الذى نتعلم منه أن الانسان مخلوق مكلف ..

لاجرم تقوم عباداته على رعاية حق الضمير المســئول واستقلاله بمشيئته أكرم رعاية ..

ومرة أخرى نعود فى ختام هذا الفصل عن العقــائد فنسأل : أهذا هو الدين الذى يستبيح من يدرى مايقول أن يزعم انه نسخة محرفة من دين قديم ؟..

الفصل الثاني المعاملات



تمهيد

من العلماء المشتغلين بالمقارنة بين الاديان من يسلم لعقائد الدين سموها ونزاهتها ولكنه مع هذا يعيب الدين نفسه بشرائعه وأحكام معاملاته . اما لانه يرى أن الاديان ينبغى أن تكون مقصورة على العقائد والوصايا ولا تتعرض للتشريع وأحكام المعاملة التى تصطدم بالحوادث العملية وتجرى مع تقلبات الاحوال فى البيئات المختلفة والازمنة المتعاقبة على سنن شتى ، ولا تخضع للنص الواحد فى جميع أطوارها وملابساتها

هذا ، أو لأنه يعيب المعاملات لذاتها ويرى فيها نقصا يتجافى بها عن مبادىء العدل وأصول الآداب المرعية بين أمم الحضارة ..

وقد تعمدنا — من أجل هذا — أن نتبع الكلام على العقائد الاسلامية بالكلام على المعاملات الاسلامية ، وتحرينا فى الكلام على هذه المعاملات أن نقصرها على أبواب المعاملة التى وردت فيها أشد الشبهات على الشريعة الاسلامية فى العصر الحاضر ، من جانب علماء المقارنة بين الأديان أو من جانب المبشرين العاملين على تحويل المسلمين فى بلادهم عن عقائدهم وأحكام دينهم .
ونقدم بالقول — على التخصيص — تلك المعاملات التى

قيل انها علة تأخر المسلمين وعجزهم عن الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم فى ميادين الأعمال الاقتصادية والشرائع العملية ، ونعنى بها معاملات الشركات والمصارف ومعاملات الجزاء والعقاب فى القوانين . فليس من غرضنا فى هذا الكتاب أن نبسط القول فى المعاملات بمعناها المعروف بين الفقهاء من معاملات البيوع أو معاملات الأحوال الشخصية وما اليها من أبواب الأحكام التى لا ترد الشبهة عليها من خصوم الاسلام وممن يفترون الأباطيل عليه . وربما تناولنا بعض هذه الأبواب فى موضعه من الكلام على الحقوق الاجتماعية ، ولكننا لا نحسبها من مواطن الشبهة التى يقال من أجلها انها قد حالت بين المسلمين فعلا وبين النهوض بأعباء الاعمال الاقتصادية وأعمال التشريع فى العصر الحديث.

والذى نراه من مراجعة النقد الدينى أن المنكرين لتعرض الاديان لشئون المعاملات مخطئون لا يجشمون عقولهم مؤونة الرجوع الى نشأة الشرائع الدينية فى أوقاتها ومناسباتها . والا لعرفوا أن هذه الشرائع لازمة للعاملين بها لزوم العقائد والوصايا الاخلاقية ، وان العقائد تصطدم بالواقع كما تصطدم به أحكام الشرائع ، فلا معنى لاختصاص أحكام الشرائع وحدها بالنقد اذا كانت العقائد معها عرضة للامتحان مع تقلبات الاحوال وتجدد الطوارىء والضرورات

والواجب فى رأينا أن يكون النقد كله موجها الى المعاملات لذاتها اذا كان فيها ما يجافى مبادىء العدل وأصول الاخلاق ويحول دون مجاراة الآخذين بها لسنن التطور والتقدم وضرورات الحياة العملية جيلا بعد جيل

ولو أن النقاد الدينيين كلفوا أنفسهم أن يتتبعوا أسباب التشريع فى الاديان الكتابية الكبرى لعلموا أنها قامت

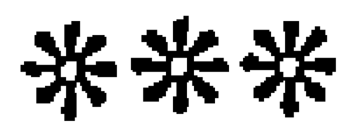
بقيام تلك الاديان في ظروف تحتم النظر فى التشريع كما تحتم النظر فى الاعتقاد ، ولعلموا أن أديان الحضارات الاولى التى استغنت عن وضع نصوص القوانين لم تكن لتستغنى عنها لولا أنها نشأت في دول عريقة الحكومات والاحكام ، ومن أعرق تلك الحضارات الاولى حضارة مصر وحضارة بابل وحضارة الهند وحضارة الصين . فهذه جميعا قد ظهرت فيها الكهانة مجاورة للدولة صاحبة القوانين والاحكام ، ولم تخلص العقائد فيها مع ذلك من الامتزاج بالقوانين فى مصادرها وأسانيدها يوم كان كل أمر مقدس واجب الطاعة مستمدا من الاوامر الالهية . ولكن رسالة الدين هنا لم تكن منعزلة عن رسالة الدولة فى عقائدها ولا فى شرائعها ، فلما قامت رسالة الانبياء من دعاة الاديان الكتابية قامت بمعزل عن الدولة بل قامت ثائرة على الدول من حولها فوجب لها مع العقائد تشريع يتناول أحوال المعاش وأحكام المعاملات

الاديان الثلاثة

ويصدق هذا القول على الاديان الكتابية الثلاثة بغير استثناء للمسيحية التى يخطر لبعضهم أنها تعمدت أن تقصر الدين على العقائد والوصايا دون القوانين والمعاملات

فالواقع أن السيد المسيح قد جاء مؤيدا لشرائع العهد القديم ولم يجىء مبطلا لها أو معطلا لاحكامها : جاء متمما للناموس ولم يجىء هادما للناموس . وكان العالم من حوله مكتظا بالشرائع الدينية والشرائع الدنيوية : للهيكل شرائعه من أراد أن يتبعها ويعمل بها فذلك اليه . ومن هنا استطاع المسيح أن يقول للذين تعمدوا أن يحرجوه فى مسألة الضرائب : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .. » فلم يجد من لوازم رسالته أن يثور على

شرائع الدولة ولا على شرائع الدين . ولما جاءه المكابرون من اليهود بالمرأة الزانية ليأمر برجمها ويصطدم من ثم بسلطان الهيكل رد عليهم كيدهم باحراجهم كما أحرجوه ، فقال لهم : « من لم يخطىء منكم فليرمها أولا بحجر » فلم يقل ان حكم الرجم باطل ولم يأمر به فيقيم الحجة عليه لاصحاب السلطان فى هيكل العبادة والشريعة ، وكانت ثورته فى لبابها ثورة على الرياء فى دعوى الامناء على الشريعة الدينية ، ولم تكن ثورة على الاحكام والنصوص كما وردت فى كتب العهد القديم



أما الديانة الكتابية الاولى فمهما يكن الرأى فى نصوص شرائعها اليوم فقد كان التشريع فيها يوم الدعوة اليها لازما كلزوم الدعوة الى العقيدة أو الوصايا الاخلاقية : كان موسى عليه السلام يقود شعبا بغير دولة الى أرض يقيمون فيها حكما غير الحكم الذى خضعوا له فى موطنهم الذى تركوه من أرض الدولة المصرية . فلم تكن رسالته رسالة عقيدة وحسب ، ولم يكن قيام العقيدة ميسورا بغير قيام القانون

وكل نقد يوجه الى أحكام المعاملات يمكن أن يوجه مثله الى العقائد والوصايا . لان التحجر وسوء الفهم غير مقصورين على الاعمال والتطبيقات ، أو سبيلهما الى العقائد النظرية أيسر من سبيلهما الى الوقائع العملية . اذ كانت الوقائع العملية مما يضطر المخطىء الى الشعور بالخطأ من أول وهلة ، الا اذا تغير شعوره وتغير وجدانه فارتفع بنفسه وبأحوال معيشته من الخطأ الى الصواب

ولمن شاء أن يشير الى المعاملات فى كتب الشرائع السماوية كما يشاء ولكنه يحيد عن جادة الانصاف اذا اختص الشريعة الاسلامية بنقده كأنها الشريعة الكتابية

الوحيدة التى تعرضت للمعاملات . فان الشريعة المنسوبة الى موسى عليه السلام قد تناولت من أمور المعيشة ما هو اليوم من شئون الاطباء ، وتنــاولت من تشريع الجزاء والعقاب أحكاما لا يقرها اليوم أحد من المؤمنين بهــا ، وان كان من المؤمنين بايحاء الشريعة من الله الى كليم الله

فمن الشئون التى كان يتولاها الكاهن تمحيص اعراض العلل والادواء وعزل المصابين بها واعلان نجاستهم على الملأ لاعتقادهم أن المرض الخبيث المعدى نجاسة منــافية للطهارة الدينية أو ضربة من الضربات الالهية ، ويشرح كتاب اللاويين فى الاصحاح الثالث عشر منه مثلا من ذلك فيقول فى بيان المعاملة الواجبة للمصابين بالبرص :

« اذا كان انسان قد ذهب شعر رأسه فهو أقرع . انه طاهر . وان ذهب شعر رأسه من جبهة وجهه فهو أصلع . انه طاهر . لكن اذا كان فى القرعة أو الصلعة ضربة بيضاء ضاربة الى الحمرة فهو برص مفرخ فى قرعته أو فى صلعته كمنظر البرص فى جلد الجسد فهو انسان أبرص ، انه نجس ، فيحكم الكاهن بنجاسته . ان ضربته فى رأسه . والابرص الذى فيه الضربة تكون ثيابه مشقوقة ورأسه يكون مشقوقا ويغطى شاربيه وينادى : نجس نجس ! كل الايام التى تكون الضربة فيه يكون نجسا . انه نجس يكون وحـده خارج المحلة ... »

وكان الكاهن يتولى من شئون الطعام والشراب ما هو ألصق بالمعيشة اليومية من شئون الطب ومعاملة المصابين بالعلل والسقام ، فالكاهن هو الذى يزكى الطعام المبــاح ويستولى على نصيب المعبد منها واليه المرجع فى التمييز بين الاطعمة المطهرة والاطعمة النجسة من لحوم الحيوان

وتناولت الشريعة معاملات الجزاء والعقاب فى الجرائم التى تقع من الناس وفى الاصابات التى تقع من الحيوان ويجزى بها الحيوان كما يجزى بهــا صــاحبه فى بعض الاحيان . ومن أمثلة ذلك عقاب الثور الذى ينطح انسانا

كما جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج :

« انه اذا نطح ثور رجلا فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب الثور فيكون بريئا . ولكن اذا كان ثورا نطاحا وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل ... »

وتقرر الشريعة كيف تكتب على الالواح وكيف تكون الالواح التى تكتب عليها كما جاء فى سفر الخروج ، بل تقرر ملابس الهيكل وأنواع الانسجة التى تخاط منها ثياب الكهان والخدم بأمر من الله لموسى تكرر ذكره فى الكتب الخمسة المنسوبة اليه

هذه الاوامر المفصلة فى معاملات المعيشة ومعاملات الجزاء والعقاب مستغربة على السواء فى رأى الناظرين اليها من وجهة نظر غير وجهة المتدينين المتشبثين بها الى اليوم . ولكننا — بعد الالمام بها — نعود فنكرر أنها لا تسوغ القول بقصر الدين على العقائد والوصايا دون الشرائع والمعاملات . فان الخطأ يعترى العقيدة كما يعترى الشريعة ، ومرجع الامر اذن الى الصلاح والفساد لا الى العمل أو الاعتقاد . وما كانت عقائد بنى اسرائيل بأثبت على الزمن من معاملاتهم وشرائعهم التى تداولوها بعد عصر موسى الكليم ، ولعل حاجتهم الى معاملات تشبه تلك المعاملات فى الجملة كانت أشد من حاجتهم الى عقائدهم كما تداولوها بعد عهودهم المهجورة

وكل ما يجوز لنا أن نستخلصه من دراسة الشريعة المنسوبة الى موسى أن بنى اسرائيل لم تكن لهم رسالة عالمية انسانية ، وأنهم قد وافقتهم عقائدهم ومعاملاتهم فى عزلتهم بين أبناء الحضارات الاولى . فلما انتهت رسالتهم المحدودة بما يوافقهم تفرقوا بين الامم من غير

دولة ولا سيادة على أحد ، فلم يقم لهم سلطان يتولى فرض عقائدهم ومعاملاتهم على الامم ولا على انفسهم ، وانقضى دورهم التاريخى فى أمر العقائد وأمر المعاملات

وكذلك تتفق النظرتان الى هذا التاريخ المشحون بدلالاته ومغازيه : نظرة المؤمن بحكمة الغيب العجيبة فى تسيير مقادير الشعوب ، ونظرة المؤمن بعبرة التاريخ دون سواه

معاملات الاسلام

وعلى هذه السنة من المساواة بين حق الدين فى نشر العقائد وحقه فى فرض الشرائع والمعاملات ننظر الى معاملات الدين الاسلامى كما ننظر الى عقائده فلا نرى فيها ما يعوقه عن أداء رسالته العالمية الانسانية التى توافرت له بدعوته الى اله واحد هو رب العالمين أجمعين وخالق الامم بلا تمييز بينها فى الحظوة عنده غير ميزة التقوى والصلاح : رب المشرقين والمغربين يصلى له المرء حيث شاء ، فأينما تكونوا فثم وجه الله

فما منع الاسلام قط معاملة بين الناس تنفعهم وتخلو من الضرر بهم والغبن على فريق منهم ، وأساس التحريم كله فى الاسلام أن يكون فى العمل المحرم ضرر ، أو اجحاف ، أو حطة فى العقل والخلق . وما فرض الاسلام من جزاء قط الا وهو « حدود » مقدرة بشروطها وقيودها ، صالحة على موجب تلك الشروط والقيود للزمان الذى شرعت فيه ، ولكل زمان يأتى من بعده .. لانها لا تتجمد ولا تتحجر ولا تتحرى شيئا غير مصلحة الفرد والجماعة ، وكفى باسم « الحدود » تنبيها الى حقائق الجزاء والعقاب فى الاسلام . فانها « حدود » بينة واضحة تقوم حيث قامت أركانها ومقاصدها وتحققت حكمتها وموجباتها .

والا فهى حدود لا يقربها حاكم ولا محكوم الا حاقت به لعنة الله

والشبهة المتوافرة فى العصر الحاضر انما ترد على المعاملات الاسلامية من قبل الناقدين والمبشرين ، لانها تمس ضرورات المعيشة المتجددة فى كل يوم ، وترصد للمسلم فى طريقه حيث سار وأينما اضطربت به صروف الرزق والكسب ومرافق العمل والتدبير . ويتحرى الناقد الموطن الحساس من نفس المسلم حين يلقى فى روعه أن شيئا فى دينه يغل يديه عن العمل فى عصر المصارف والشركات ، وأن شيئا فى دينه يتقهقر به الى الوراء ولا يصلح للتطبيق فى عصر النظم الحكومية التى تجرى القضاء والجزاء على أصول العلم والتهذيب

وليس فى المصارف والشركات شىء نافع برىء من الضرر والغبن يحرمه الاسلام ..

وليس فى أصول العلم والتهذيب شىء يناقض حدود الجزاء فى شريعة الاسلام ..

تتلخص شبهة المعاملات الاقتصادية فى مسألة واحدة هى مسألة الربا الذى يقول الناقدون انه قوام المصارف والشركات ..

وتتلخص شبهة القضاء والجزاء فى حدود السرقة والزنا والخمر والمقارنة بين عقوباتها فى الاسلام وعقوباتها فى الشرائع الموضوعة التى تسمى بالشرائع العصرية ..

حكم الربا

ولا ينسى القارىء المسلم ــ قبل أن يضع نفسه موضع المتهم المطالب بالدفاع عن دينه ــ أن الناقدين والمبشرين يغالطونه ويغالطون أنفسهم حين يختصون الاسلام بالنقد فى مسألة الربا ــ على التخصيص ــ فان الربا محرم

أشد التحريم فى اليهودية والمسيحية من شرائع العهد القديم الى شرائع الكنيسة فى القرون الوسطى الى شرائع اللوثريين وأتباعهم بعد عصر الاصلاح . وقد كان تحريم الربا فى اليهودية والمسيحية عاما مجملا بغير بيان للفارق بينه وبين المعاملات المحللة من صفقات البيوع والمبادلات . وأما فى الاسلام فما من تحريم قط ورد فيه الا وهو مشفوع بحدود تقيم الفاصل بينه وبين الكسب الحلال

حرم الربا تحريما باتا فى الكتب المنسوبة الى موسى عليه السلام فجاء فى الاصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج :

« ان أقرضت فضة الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى »

وفيه بعد ذلك :

« ان ارتهنت ثوب صاحبك فالى غروب الشمس ترده اليه ... لانه وحده غطاؤه . هو ثوب لجلده . فى ماذا ينام ! »

وجاء فى الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التثنيه :

« لا تقرض أخاك ربا . ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا ... »

وسرى هذا التحريم الى عهد النبى حزقيال والنبى نحميا . فقال النبى فى الاصحاح الخامس من كتابه :

« انى بكيت العظماء والولاة وقلت لهم انكم تأخذون الربا كل واحد من أخيه ... »

والمقصود باشارة نحميا أن الربا المحرم انما هو الربا الذى يأخذه الاسرائيلى من أخيه . لان الربا المأخوذ من أبناء الامم الاخرى مباح كيف كان ، والاصحاح الثالث والعشرون من سفر التثنية المنسوب الى موسى عليه السلام صريح فى اباحة أخذ الربا من الآجنبى حيث يقول مخاطبا شعب اسرائيل :

« للاجنبى تقرض بربا ولكن لاخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب الهك فى كل ما تمتد اليه يدك ... »

فليس هذا تحريما انسانيا منبعثا من شعور بالرحمة والعدل فى المعاملة ، ولكنه تحريم عصبية يبيح من القسوة على أبناء الامم الانسانية كافة ما يحرمه فى معاملة الاسرائيلى لاخيه

وقد سرى تحريم الربا فى شعب اسرائيل دون غيره الى ما بعد قيام المسيحية واعلانها الدعوة الى جميع الامم لانهم أبناء ابراهيم بالروح ... فحرمت الربا فى غير شعب اسرائيل ولم تقيد تحريمه بقوم من المؤمنين دون آخرين ..

ثم سرى تحريم الربا من أوائل عهد المسيحية الى قيام حركة الاصلاح وانشقاق الكنائس عن كنيسة رومة البابوية .. فاتفقت الكنائس جميعا على تحريم الربا واشتد « لوثر » فى هذا التحريم حتى وضع رسالة عن التجارة والربا حرم فيها كثيرا من البيوع الربوية كالبيع المعروف فى الفقه الاسلامى باسم بيع « النجش » أو المعروف باسم بيع السلم . والنجش هو التواطؤ على رفع السعر لاكراه الآخرين على قبول الشراء بزيادة على سعر السوق . والسلم هو بيع الآجل بالعاجل بزيادة فى سعر المبيع

قال لوثر فى شرح أنواع الربا التى تروج باسم التجارة ما نلخصه فيما يلى :

« ان هناك أناسا لا تبالى ضمائرهم أن يبيعوا بضائعهم بالنسيئة فى مقابل أثمان غالية تزيد على أثمانها التى تباع بها نقدا ، بل هناك أناس لا يحبون أن يبيعوا شيئا بالنقد ويؤثرون أن يبيعوا سلعهم جميعا على النسيئة » ... ثم قال :

ان هذا التصرف مخالف لاوامر الله مخالفته للعقل والصواب . ومثله فى مخالفة الاوامر الالهية والاوامر العقلية أن يرفع البائع السعر لعلمه بقلة البضاعة المعروضة أو لاحتكاره القليل الموجود من هذه البضاعة ، ومثل ذلك وذاك أن يعمد التاجر الى شراء البضاعة كلها ليحتكر بيعها ويتحكم فى رفع أسعارها

وبادر لوثر على أثر ذلك الى دفع الاعتراض الذى قد يعترض به

من يحتج بتصرف يوسف عليه السلام قبل أعوام المجاعة فقال : « انه اذا شاء أحد أن يحتج بسلوك يوسف كما ورد فى سفر التكوين حين جمع كل الحبوب التى كانت فى البلاد ثم اشترى بها فى وقت المجاعة للملك مصر كل ما فيها من أموال وماشية وأرض مما يبدو حقا كأنه احتكار ـ فالجواب على ذلك ان صفقة يوسف هذه لم تكن احتكارا بل مبايعة شريفة كما جرت عادة البلاد ، فانه لم يمنع أحدا أن يشترى كما اشترى خلال سنوات الرخاء وانما كان عمله من وحى الحكمة التى يسرت له أن يجمع حبوب الملك فى سنوات الرخاء بينما كان الاخرون يخزنون منها القليل او الكثير

قال لوثر انه من التصرفات التى تدخل فى باب المرابأة ولا تدخل فى باب التجارة ان يعمد أحدهم الى الاحتكار من طريق الترخيص اذا عجز عن الاحتكار من طريق المغالاة ، فيبيع ما عنده بالسعر الرخيص ليكره غيره على البيع بهذا السعر فيحل بهم الخراب

وقال انه من قبيل الغش والاحتيال أن يبيع أحد ما ليس فى يده لانه يعلم موضع شرائه فيستطيع أن يعرض على مالكه ثمنا دون الثمن الذى يفرضه على طالب الشراء

وعد لوثر من الربح المحرم أن يتآمر التجار الكبار فى أوقات الحروب على اشاعة الأكاذيب لدفع الناس الى بيع ما عندهم واحتكاره بين أيديهم ، ثم تقدير أثمانه على هواهم ، وقال ان بعض الممالك الاوربية ـ كالمملكة الانجليزية ـ تعقد فى عاصمتها مجلسا يراقب الاسواق ويدبر الوسائل لاحتجان السلع المرغوب فيها لاحتكارها ومقاسمة الدولة فى ارباحها

وقال انه من الحيل المعهودة لترويج الربا باسم التجارة أن تباع السلعة الى أجل ويعلم البائع أن شاريها لا بد أن يبيعها فى هذا الاجل بأقل من ثمنها ليسدد ما عليه من الدين ويشتريها بالثمن الذى يضطره اليه

قال : وهناك تصرف آخر مألوف بين الشركات وهو أن يودع أحد مبلغا عند تاجر : ألف قطعة من الذهب أو ألفين على أن يؤدى له التاجر مائة أو مائتين كل سنة سواء ربح أو خسر ... ويسوغ هذه الصفقة بأنها تصرف ينفع التاجر لانه بغير هذا القرض يظل معطلا بغير عمل ، وينفع صاحب المال لانه بغير هذا القرض يبقى ماله معطلا بغير فائدة

ومما أخرجه لوثر من أبواب التجارة المشروعة والحقه بالربا المحرم أن يخزن البائع غلاله فى الاماكن الرطبة ليزيد فى وزنها ، وأن يزوق السلعة ليغرى الشارى ببذل الثمن الذى يربى على ثمنها ، وأن يتخذ من وسائل الاحتكار أو الاغراء ما يمكنه من جمع الثروة الضخمة ، لانه ـ أى لوثر ـ يقرر فى رسالته ان التجارة المحللة لم

تكن قط وسيلة لجمع الثروات الضخام ، وانه اذا وجدت ثروة ضخمة فلا بد هنالك من وسيلة غير مشروعة

ولعل لوثر قد بلغ فى تحريم البيوع المريبة وألحاقها بالربا الممنوع أو الملعون ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده من رؤساء الدين المسيحى فى العصور المتأخرة • ومما لا ريب فيه أن الحالة النفسية التى تساور المصلح الاجتماعى أو الواعظ الدينى باعث قوى على التشدد فى حظر المحرمات وذرائعها واتقاء الشبه التى توقع الابرياء فى حبائلها • وهذه الحالة النفسية قد كانت على أشدها فى القارة الاوربية بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى ابان الدعوة الى حركة الاصلاح • فقد كان لوثر يرجو أن يعمل الملوك والامراء ورؤساء الدين على كف أذى المرابين والمغالين بالبيع والشراء فخاب أمله فيهم أجمعين وثبت له من معرفته بهم ومن اشاعات الناس عنهم أنهم يشجعون الربا والمغالاة بالارباح لمقاسمة أربابها وابتزاز القروض والاتاوات منهم وتسخيرهم فى محاربة بعضهم بحبس البضائع واحتكار الاسواق • وقد دفعته هذه الحالة النفسية الى ضروب من التحريم لو أخذت بها أوربة الاستعمارية بعده لما قامت لها قائمة ولا جمعت ثرواتها الضخام التى قال بحق انها لا تجتمع من تجارة بريئة ولا من ربح حلال

ونحن انما نشير الى الحالة النفسية التى دفعت لوثر الى التشدد فى حظر المحرمات وذرائعها لكى نلم بالحالة النفسية التى تلقى بها المسلمون زحف المصارف والشركات الاوربية على بلادهم وسيطرتها على حكوماتهم وشعوبهم • فما بلغ من ضرر المرابين بالشعوب الاوربية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر أن يفقدهم كرامة أوطانهم وأن يذل رؤوسهم ونفوسهم كما فعلت المصارف والشركات

الاجنبية بالشعوب الاسلامية منذ أغارت عليها مؤيدة بجيوش الدول من ورائها . فهذه المصارف والشركات هى التى مهدت للامتيازات الاجنبية سبلها وهى التى نصبت شباك الديون لتسويغ الغزو والاحتلال باسم المحافظة على الحقوق وضمان سدادها ، وهى التى تذرع بها الساسة لخنق النهضات الوطنية فى ابانها واثقالها بالقيود والاعباء التى تعجزها عن مجاراة الغرب فى صناعته وتجارته وتكفل للاستعمار أن ينشب أظفاره أبدا فى أبدانها ..

فاذا حق للمصلح الكبير « لوثر » أن يتشاءم من المصارف والشركات وأن يحتسب ثرواتها الضخام فى عداد السرقات الملعونة وهى لا تجنى على استقلال الامم ولا تذلها للواغلين عليها ، فخليق بالمسلمين ـ ولا ريب ـ أن يتشاءموا من تلك المصارف والشركات مرات وأن يستريبوا بها ولا يروا فيها لاول وهلة ما يغريهم بالتشبه بها والتسابق بينهم على منهاجها . فهى بلاء تعوذوا منه وأجفلوا من قدوته ، ولهم العذر كل العذر اذا أغرقوا فى الخوف منها حتى أوجسوا خيفة من خيرها الذى لم يعرفوه ، لانهم عرفوا شرها ولم يسلموا من بلائه أعواما طوالا قد طالت بحساب المصائب بأضعاف ما طالت بحساب الايام ..

على أن الاسلام نفسه قد ظهر فى ابان حالة نفسية تشبه الحالة التى أصابت الغرب بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، وتشبه الحالة التى أصابت المسلمين على أيدى المستغلين والمستعمرين . وقد كان ما حرمه الاسلام من الربا وذرائعه بلاء كهذا البلاء الذى شقيت به شعوب الغرب وشقيت به الشعوب الشرقية والاسلامية . فقد كان الربا الذى وجده فى الجاهلية

فنهى عنه وحرمه حقيقـــا بالتحريم فى كل شرعة وكل مكان ، ومن اطلع على وصفه كما كان يوم حكم الاســلام بتحريمه لم يستطع أن يقول فيه قولين ، ولا أن يجعــل للشرائع موقفا منه غير موقف التحريم الشديد بغير هوادة تبيح للمحتال أن يتسلل اليه بذرائعه ودواعيه ..

فسر الامام الطبرى قوله تعالى :

« يا أَيُّهَا الذِينَ آمنوا لاَتأْكلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتقُوا اللهَ لعَلَّكُمْ تفْلِحُونَ » . (سورة آل عمران)

فقال فى أســـباب نزول الآية : « انما كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفى السن : يكون للرجل فضل دين فيأتيه اذا حل الاجل فيقول له : تقضينى أوتزيدنى، فان كان عنده شيء يقضيه قضى والا حوله الى السن التى فوق ذلك ، ان كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون فى السنة الثانية ثم حقة ثم جذعة ثم رباعيــا ثم هكذا الى فوق . وفى العين يأتيه فان لم يكن عنده أضعفه فى العام القـــابل ، فان لم يكن عنده أضــعفه أيضا فتكون مائة فيجعلهـــا الى قابل مائتين ، فان لم يكن عنـــده جعلها أربعمائة ، يضعفها له كل سنة أو يقضيه .. »

كان هذا هو الربا الذى تعاطاه الجـــاهليون وتعاطاه معهم أهل الكتاب من بلاد يثرب ، وكانت الآيات المتقدمة أولى الآيات التى نزلت بالنهى عنه وتحـــريمه . فمنعـــه الاسلام كما يمنعه اليـــوم كل قانون معمول به فى بلاد المصـــارف والشركات وكل ما استحـــدثه من ضروب المعاملات التى تسمى بالمعاملات العصرية . وما من قانون

ينتظم عليه أمر الجماعة لا يحرم هذه المعاملة المنكرة ولا يشدد العقاب عليها .

وكان آخر ما نزل من القرآن الكريم آيات فى تحريم الربا نزلت قبل وفاة النبى عليه السلام بأقل من ثلاثة أشهر وهى من قوله تعالى فى سورة البقرة :

« الذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَيَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ منَ المَسِّ ، ذَلِكَ بأَنَّهُمْ قَالُوا إنمَا البيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ ربِّهِ فانتَهى فلهُ مَا سَلف وَأمْرُهُ إلى اللهِ وَمَن عَادَ فأُولئِكَ أَصحَاب النّارِ هُمْ فِيهَا خالِدُون ، يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبى الصَّدقَاتِ وَاللهُ لاَيحبُّ كلَّ كفَّارٍ أَثيمٍ . إنَّ الذِينَ آمنُوا وَعملوا الصَّالحاتِ وَأَقامُوا الصلاَةَ وَآتوُا الزكَاةَ لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يحزنونَ . يَا أَيُّهَا الذِينَ آمنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَروا مَا بَقِيَ منَ الرِّبَا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنوا بحرْبٍ منَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أمْوَالِكُمْ لاَتَظلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ وَإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ

تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »

(سورة البقرة)

ولا خلاف بين المسلمين على موضوع الربا الذى وردت فيه جميع هذه الآيات . فهو ربا الجاهلية المعروف بربا النسيئة ، وأحاديث النبى عليه السلام فى ذلك وأقوال المفسرين لا موضع فيها لخلاف

ففى الصحيحين أن النبى عليه السلام قال : انما الربا فى النسيئة

وسئل الامام أحمد عن الربا الذى لا يشك فيه فقال : هو أن يكون له دين فيقول له أتقضى أم تربى ؟ فان لم يقضه زاده فى المال وزاده هذا فى الاجل ..

روى الامام ابن القيم ذلك فى أعلام الموقعين وقسم الربا الى نوعين : جلى ، وخفى ، فتحريم الاول قصدا وتحريم الثانى وسيلة . فأما الجلى فربا النسيئة ، وهو الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، مثل أن يؤخر دينه ويزيده فى المال كلما أخره زاد فى المال حتى تصير المائة عنده آلافا مؤلفة ، وفى الغالب لا يفعل ذلك الا معدم محتاج .. وأما الربا الخفى فهو ذريعة للربا الجلى وهو ما استحدث بعد الجاهلية من بيع الجنس بالجنس على غير سواء . فيباع الدرهم بدرهم وزيادة وتباع الكيلة بكيلة وزيادة ، من غير مطال أو تأخير اجتنابا للحكم القاطع فى ربا النسيئة ، ويسمى هذا الربا بربا الفضل لزيادة أحد المبيعين على الآخر . ويقول ابن القيم انه من البيع الذى يتخذ ذريعة للربا الممنوع . فهو حرام حيث يكون ذريعة

للحرام ، ولا اتفـــاق على القطع بتحريمه لاختلاف بعض الصحابة فيه كعبد الله بن عمر ، وابن عبـــاس ، وابن الزبير ، وزيد بن أرقم ، وسعيد بن المسيب ، وعـروة بن الزبير ، وما يحرم سدا للذرائع يباح للمصلحة كما قال الامام ابن القيم فى الجزء الاول من أعلام الموقعين (١)

والحكم الفصــــل فى هذا البيع الذى كانوا يتخذونه ذريعة للربا قول النبى عليه السلام :

« الذهبُ بالذهبِ والفضة بالفضة والبُرُّ بالبُر والشعيرُ بالشعير والتمرُ بالتمرِ والملحُ بالملحِ مِثْلاً بِمِثْل سواء بسواء يَدًا بيَدٍ ، فإذا اختلفتْ هذه الأصناف فبيعوا كيفَ شِئْتم إِنْ كَانَ يدًا بيدٍ .. »

وواضح من هذا الحـــكم أنه يحرم الربا الذى ستروه باسم البيع والشراء .. فما يكون لاحد أن يشترى صنفا بصنف مثله على غير سواء الا أن يكون سفيها أو مضطرا .. والسفه والاضطرار كـــلاهما مبطل للبيــــع المشروع .. فاذا اختلف الصنفان قيمة فلا حــــرج فى المبايعة لانهما يختلفان بالمقايضة ، فلا وجه للتحريم هنا ولا التباس بين البيع المحلل والربا الممنوع

***

وبالمقارنة بين الاديان الكتابية بعد تلخيص الحـــــكم الاسلامى فى مسألة الربا ــ نعلم أن الناقدين لا حجة لهم فى اختصاص الاسلام بالنقد لما يزعمونه من تعويقه أعمال

(١) راجع الجزء الثـــالث من تفسير المنار

الحضارة بتحريمه هذه المعاملات • لانه لم ينفرد بتحريم الربا بين هذه الاديان ، حتى ما كان من قبيل البيوع التى تدس الربا وراء ستار من البيع والشراء • فهذه أيضا قد حرمتها المسيحية على ما تقدم فى رسالة « لوثر » التى أخذت بها جميع المذاهب مع مذهب الكنيسة البروتستانتية ••

وبغير حاجة الى المقارنة بين الاديان الكتابية نعلم أن هؤلاء الناقدين لا حجة لهم أصلا على الاسلام فيما حرمه من ربا النسيئة أو ربا الفضل بأنواعه • كما حرم الاسلام من هذه المعاملات كل تصرف فيه ظلم واضطرار وأكل للحقوق بالباطل وابتزاز للاموال فى غير عمل ولا طائل • وازدهار الحضارة مرهون بالغاء كل تصرف من هذا القبيل ، غير مرهون على زعمهم بحمايته والاغضاء عنه وعن ذرائعه • وفى وسع المصارف والشركات أن تتجنبه وتمضى فى عملها حيث كانت فى البلاد الاسلامية، فليس فى الاسلام نص ولا تأويل يحرم التصرف النافع الذى لا اضطرار فيه ولا اغتصاب للحقوق ، وما كان من قبيل الاضطراروالاغتصاب فى أعمال المصارف والشركات فقد حرمته القوانين الوضعية بما اشترعته من قيود الرقابة وحدود الربح والفائدة ، فما استطاعت حكومة من الحكومات المتحضرة أن تقف مكتوفة اليدين لتطلق أيدى المرابين فى تثمير الديون بغير ثمرة للمدين ، وبغير ربح غير ربح الدائن المتحكم فى فرائس الضنك والاضطرار

ولا نحب أن ندع هذا الموضوع قبل الالماع فى هذه العجالة الى مذاهب الفلاسفة والعلماء فى الربا بعد الالماع الى مذاهب الاديان فيه

فمن أقدم البحوث الفلسفية عن الربا بحث المعلم الاول

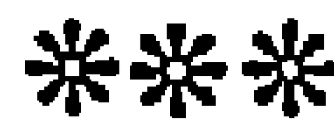
أرسطو ـ فى كتابه عن السياسة ـ ومذهبه فيه أنه ربح مصطنع لا يدخل فى باب التجارة المشروعة ، وعنده أن المعاملة على أنواع ثلاثة : معـــاملة طبيعية وهى استبدال حاجة من حاجات المعيشة بحاجة أخرى كاستبدال الثوب بالطعام ، ومعاملة صناعية وهى كاستبدال النقد بحاجـة من حاجات المعيشة وهى التجـــارة التى لا حرج فيها ، ومعاملة مصطنعة ملفقة وهى اتخاذ النقد نفسه ســـلعة تباع ، فانما حق النقد أن يكون وسيلة للمبايعة ومعيارا تعرف به أسعار السلع المختلفة ، وأما اتخاذه سلعة تباع وتشرى فهو خروج به عن غرضه وابتذال للتجارة فى غير مصلحتها ..

واعتمـد الحبـر الفيلســوف توما الاكوينى ـ حجة المسيحية فى القرون الوسطى ـ رأى أرسطو هــذا فى النقد فأوجب به تحريم الربا من الوجهة الفلسفيةوأخرج من تعريف الربا كل تصرف لا يحدث فيه تبادل النقدفعلا وانما يؤخر فيه اعطاء النقد لسداد ريع أو أجـرة أو ثمن بضاعة ... وعقب توما الاكوينى أتباع ، نظروا فىتعريف الربا من الوجهة الفلسفية العلمية فلم يجعلوا منه ما هـو بمثـــابة تعويض الدائن عن فوات ربح كان فى وسـعه Lucrum Cessans أو تعويضـــه عن خســـارة أصـــابته من جراء دينه Damnum Emergens أو عن خسارة أصابته من جراء المماطلة فى الوفاء بحقه فىموعد السداد المحدود

ودرج الفلاسفة على اعتماد رأى أرسطو وتوما الاكوينى فى النقد الى فاتحة عصر الفلسفة الحديثة ، فقـال دافيد هيوم Hume فى كتاب المحاضرات السياسية الذى طبع سنة ١٧٥٢ « ان النقد ليس مادة للتجارة ولكنه أداتها...

وانه ليس دولابا من دواليب التجارة ولكنه الزيت الذى يلين مدارها »

وبدأت فلسفة الاقتصاد الحديث بدراسات « أبى الاقتصاد » آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣ ـ ١٧٩٠) وهو معاصر للفيلسوف دافيد هيوم ، ورأيه فى ريع الارض أنه اذا تكاثر فى حساب الثروة العامة كان من قبيل الكسب بغير عمل ، وهو لا يمنع الربح من الديون ولكنه يحده ويستحسن الاقلال من قيمته ، وعلى هذا الرأى درج الاقتصاديون المحدثون الى عهد المذهب الاقتصادى الجديد الذى هدم كثيرا أو بدل كثيرا من آراء الاقتصاديين السلفيين ، ولكنه حافظ على رأيهم فى استحسان الاقلال من ربح الديون وزعم ان القليل منه يشجع المقترضين على الانتفاع بالاموال المدخرة ولايرهقهم بأعباء السداد أو يحرمهم ثمرة العمل الذى يجتذبون الاموال المدخرة الى أسواقه بدلا من تعطيلها فى خزائن الشركات وودائع الصناديق



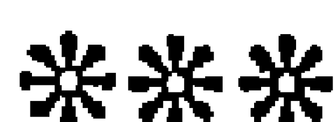
وتعتبر قضية الربا فى القرن العشرين من القضايا المؤجلة أو المعلقة الى حين .. لان الانقلابات التى تجمعت من حوادث هذا القرن قد نقلت القضية من البحث فى الثمرة الى البحث فى جذور الشجرة من أصولها : كانوا يسألون من قبل عن ثمرات الاموال المحللة أو المحرمة ولمن تكون ؟ فأصبحوا اليوم يسألون عن الاموال من مصادرها الى مواردها لمن تكون كلها ومن هو صاحب الحق الاول فى ثمراتها ؟

فالاقتصاديون الماديون ينكرون ملك رؤوس الاموال أصلا ، ويرفضون السماح للفرد بملك شىء يمكن أن

يسمى مالا أو رأس مال ، ولا معيار عندهم لحق الفرد فى أجور العمل الا ما تفرضه له الجماعة من نفقة على قدر الحاجة اليها ، ولا موضع للكلام عن الارباح المحللة أو المحرمة حيث لا يكون رأس مال ولا يكون أصل معترف به تتفرع عليه الفواضل من المكاسب والاجور

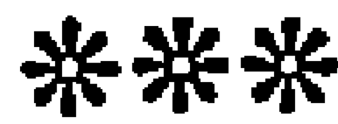
وغير الاقتصاديين الماديين يعترفون للفرد بحق الملك وحق حيازة الاموال ولكنهم ينتقلون فى توزيع المرافق الكبرى شيئا فشيئا الى الملكية العامة أو الملكية على المشاع باسم التأميم أو الاستيلاء ووضع خطط التعمير

والمذهبان معا يتفقان على ضرورة الحد من الثروات الكبيرة بعد استيفاء جميع الضرائب والرسوم ، فاذا بقيت لصاحب المال حصة من الربح تزيد على مقدار معلوم أخذتها الدولة باسم الامة ، وفاقا لمبدأ من مبادىء التشريع مصطلح عليه بين أمم الحضارة التى تكثر فيها الثروات الضخام وتكثر فيها النفقات العامة للتعمير والمعونة أو للحيطة والدفاع



ونحن لا نريد أن نقارن هنا بين الاسلام والديانات الكتابية فى قضية الربا بأنواعه . ولكننا نريد أن نقارن بينه وبين المذاهب الاقتصادية التى يظن أصحابها أنهم يحيطون بحكمة التشريع عامة فى جميع العصور لانهم حسبوا أن فترة من فترات الزمن تستوعب هذه الحكمة وتفرغ منها على نحو لا يقبل المراجعة والتعديل . فاذا خيل اليهم فى وقت من الاوقات أن الحضارة مرهونة بنظام معلوم فى المصارف والشركات خطر لهم أن يفرضوا هذا النظام بعجره وبجره على الماضى والحاضر والمستقبل فى المشرق والمغرب وبين جميع الملل والاقوام ، وطلبوا الى

أصحاب العقائد أن ينسخوها والى أصحاب الشرائع أن ينقضوها ، والى أصحاب المبادىء الخلقية والفكرية أن يقتلعوها من جذورها ، واجترأوا على من يناقضهم وينظر الى ما فوق أنوفهم فاتهموه بالجمود والنكسة وألقوا عليه تبعة الفساد والرجعة بالعقول الى الوراء



وها هي ذى قواعد الحضارة التي يتعللون بها تتطلب اليوم من نظم الاقتصاد ما لم تكن تتطلبه قبل خمسين سنة ، وسوف تتطلب بعد خمسين سنة ما لم تتطلبه اليوم ، فما هو الميزان العادل الذى تصح فيه الموازنة بين هذه المذاهب وبين الدين ، هل نبيح لهذه المذاهب المتقلبة أن تفرض سلطانها على الدين الذى لا مزية له أن لم تركن منه ضمائر الامم الى قرار مكين ثابت على تقلب الزعازع والاحوال ؟ هل ننتظر من الدين أن يعرقل هذه المذاهب ويأخذ الصواب منها بذنب الخطأ فيحرم الصواب والخطأ على السوء ؟ ..

لا هذا ولا ذاك ..

بل يمضى كل مذهب الى مداه المقدور ، ويتسع الدين لاحداث الزمن فلا يتصدى لها في مجراها ولا يمنعها أن تذهب الى مداها ، وأن تضطرب اضطرابا لمستقر لهاتمحصه الايام

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ » . (سورة الرعد)

وتلك هي مزية الاسلام بين المذاهب والاديان ، لايقف

فى طريق رأى صالح ولا يحول بينه وبين التجارب تنبذ منه ما لاسبيل الى قبوله وتبقى منه ماهو صالح للبقاء ..

وتلك الزعازع التى تمخضت عن حوادث القرن العشرين ينظر اليها الاسلام وهو ثابت على قراره المكين ، فلا يمنع صالحا منها أن يثبت صلاحه ، ولا يدع لفاسد منها أن يطغى بفساده طغيانا لا رجعة فيه

انه لايمنع الملكية العامة ، بل يأمر بها فى مرافق الجماعة ولا يبيح أحدا ان يملك موارد الماء والنار والكلاء ، كما جاء فى الحديث الشريف (١) ، ومن فقهائه فى مذهب الظاهرية من يشترط العمل لاستحقاق الكسب حتى فى تأجير الارض وزراعة الشجرة وجنى الثمرات

ولا يبطل الاسلام ملكية الاحاد . ولكنه يخول الجماعة أن تحتسب لها نصيبا منها يقدره الامام بتفويض من الامة، وتزيد حصة الجماعة كيف زادت فلا ينكر الاسلام هذه الزيادة ، لانه يحرم كنز الذهب والفضة ويأمر بتوزيع الثروة بين الناس :

« كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَينَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ »

(سورة الحشر)

وقوام الامر كله فيما يبيح ويمنع مرجع واحد ثابت على الزمن ثبوت الجماعة البشرية ، وهو المصلحة العليا التى تتقدم فيها مصلحة الكثير على مصلحة القليل ،ويتقدم فيها حساب الزمن الطويل على حساب الزمن القصير

---

(١) روى ابن ماجه باسناد صحيح عن أبى هريرة قال رسول الله « ثلاث لا يمنعن : الكلأ والماء والنار » وروى أحمد وأبو داود : « الناس شركاء فى ثلاثة : الكلأ والماء والنار »

ولتكن المصلحة ملكا أو ربحا أو تجارة أو مرفقا تتداوله الايدى باسم من الاسماء حينا بعد حين ، فما كان فيه ظلم واكراه وأكل للاموال بالباطل فهو حرام ، وما برىء من هذه الافات جميعا فهو حلال لايمنعه أحد ، ومن منعه من رعية أو امام فهو المخالف لعقيدة الاسلام

حدود الجزاء

ويقال عن حدود الجزاء اجمالا ما يقال عن الربابأنواعه، فلا حجة لمن يختص الاسلام بالنقد فى مسائل الحدود . لانه لم يفرض على جريمة من الجرائم عقابا أقسى مما فرضته الاديان الكتابية قبله ، وما فرضته الشرائع الموضوعة فى أوانه

ولا حجة لمن ينقدالعقوبات لانه يقارن بينها وبين عقوبات العصر الحديث . فان الحدود فى الاسلام بينة لاتناقض مصلحة الجماعة فى زمن من الازمان

ولقد كانت الشريعة الاسلامية ضرورة لامحيد عنها فى ابان الدعوة الاسلامية . فلم يكن من الميسور ولا من المعقول أن تلبث الامة الاسلامية حقبة من الزمن على شريعة الجاهلية أو تمضى فى حياتها العامة هملا بغير شريعة يدين بها الحاكم والمحكوم ، ونزلت شريعتها فى حينها على مثال لا تفضله شريعة عاصرتها فى جملتها ولا فى تفصيلها، وتعاقبت بعدها العصور وما فى عارض من عوارضها حالة لم تقدر لها الشريعة كفايتها من التصرف والتوفيق

ولسنا فى هذا الكتاب بحاجة الى أن نضيف شيئا فى موضوع الحدود الى ما أجملناه عنه فى رسالتنا عن الشيوعية والاسلام ٠٠ فان الافاضة فى البحوث الفقهية ليست من أغراض كتابنا هذا ولم تكن من أغراض ذلك الكتاب ، وبحسبنا من مسألة الحدود أن نجلو الشبهة عن قواعدها وندع للمستزيد أن يتوسع فى شروحها وتفريعاتها

حيث يطيب له المزيد منها . فانما استقرت حكمة الاسلام على جلاء القواعد وتوطيد القاعدة سليمة يقـام عليهـا ما يقام من بنـاء سـليم

« تنزلت الشريعة الاسلامية فى الجزيرة العربية على عهد الجاهلية ، يوم كانت شريعتها الغالبة بين جميـع القبائل العربية شريعة الغارات التى تستباح فيها دماء المغلوب وأمواله ونساؤه وكل مملوك له فى حوزة الفرد أو حوزة القبيلة ، وكان أهل الكتاب يدينون بشريعة موسى التى لم يبطلها السيد المسيح ولهـا حدود مفصـلة فى التوراة وقصاص تؤخذ فيه العين بالعين والسن بالسن ، كما ذكرها القرآن الكريم »

« فاذا جاء الاسلام بعقوبات لا تصلح لعهـد الدعوة لم يعط التشريع حقه فى ذلك العهد ولا فى العصـور التالية ، ولكنه يعطى التشريع حقوقه جميعا اذا صـلح لزمانه ولم ينقطع صلاحه لما بعده ولم يمتنع فيه باب الاجتهاد عند اختلاف الاحوال . فيشتمل جزاؤه على جنايات الحدود والقصاص وعلى الجنايات التى تستحدثها أحوال المجتمعات ويأخذها الشارع بما يلائمها من موجبات الجـــزاء »

« وهذا ما صنعه الاسلام فى جنايات الحدود والقصاص وفى غيرها من الجنايات التى تدخل عند الفقهاء فى باب التعزير ، وعلينا أن نذكر :

« أولا – أن الحدود مقيـــدة بشروط وأركان لابد من توافرها جميعا بالبينة القاطعة والا سقط الحد أو انتقل الى عقوبات التعزير اذا كان ثبوته لم يبلغ من اليقـين مبلغ الثبوت الواجب لاقامة الحدود »

« وأن نذكر – ثانيا – أن القصاص مشروط فيه العمد وارادة الاذى بعينه . فان لم يثبت العمد فالجزاء الدية

أو التعزير ، وقد يجتمعان أو يكتفى بالدية دون التعزير أو بالتعزير دون الدية »

« ولنذكر أن جرائم التعزير تشمـل جميع الجرائم التى يعـاقب عليها بالسـجن أو بالغرامة أو بالعقوبات البـدنية »

« ولنذكر أن جرائم التعزير تشـمل جميع الجـرائم الاسلامية توجب درء الحدود بالشبهات للشك فى ركن من أركان الجناية أو ركن من أركان الشهادة . فلا يقام الحد ، وينظر ولى الامر فى التأديب بعقوبة من عقوبات التعزير »

ولنضرب المثـل بأكبر جنايات الحدود وأشـيعها فى الجـاهلية العربية وجاهليات الامم فى عنفوانهـا ، وهى جناية قطع الطريق والعبث فى الارض بالفساد . ففى هذه الجناية يقول القرآن الكريم :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

(سورة المائدة)

« فهذه جناية لها عقوبات متعددة على حسب الاضرار والجرائر ، ومنها القتل والصلب وقطع الاطراف والنفي وهو بمعنى النبذ من الجماعة اما بالسجن أو بالاقصاء ، ويلزم العقاب من لزمته أحكام الدين ، فاذا كانت جنايته

قد انتهت بالتوبة قبل أن يلزمه قضاء الاسلام فهذا هو الباب الذى فتحه الاسلام لابتداء عهد وانتهاء عهد غـير بأوزاره وعاداته وانطوى حساب الجناية والعقاب فيه بانتهائه » ..

« وأشد هذه العقوبات لم يكن شديدا فى عرف أمة من الامم عوقب فيها من يقطعون الطريق ويعيشون فى الارض بالفساد مع حضور الحذر وكثرة مغرياته وقلة الزواجر الاجتماعية التى تحمى المجتمع من أضراره وجرائره . وقد كانت عقوبات القتل والتمثيل قائمة فى جميع الامم مع قيام الجريمة وقيام أسباب الحذر منها ، وظلت كذلك الى القرن السابع عشر فى البلاد الاوربية التى استقر فيها الامن بعد الفزع ، وانتظمت فيها حراسـة الطريق بعد الفوضى التى طغت عليهـا من جراء فوضى الجـوار بين الحكومات »

« وتلحق بجنـاية قطع الطريق جنـاية السرقة التى لا غصب فيها ، وشروطها أن يكون السارق عاقلا مكلفـا وأن يكون المـال المسروق محرزا مملوكا لمن يحـرزه بغير شبهة ، بالغا نصاب السرقة كما يتفق عليه الفقهاء ، وكل جريمة من قبيل السرقة لم تثبت فيهـا هـذه الاركان المشروطة فلا يؤخذ فيها الجـانى بحد السرقة ويؤخـذ فيها بعقوبات التعزير . وعنـد الضرورة القـاهرة التى يقدرها الامام يجوز العفو كما عفا عمر بن الخطاب رضوان الله عليه عن الغلامين السارقين فى عام المجاعة »

« ولا بد أن يمتد نظر الباحث على مدى مئات السنين قبل أن يسأل عن صلاح الشريعة لعصر من العصـور . ولا محل لسؤاله اذا أراد أن يحصر هذه الشريعة فى زمن واحد وبيئة واحدة . ولكنه يحسن السـؤال اذا عرض أمامه أحوالا للامم فيها القديم والحديث وفيها الهمجى

والمتحضر وفيها المسالم المأمون والشرير المحذور ثم سأل : هل فى الشريعة قصور عن حالة من الحالات التى تعرض لتلك الامم فى جميع أطوارها ؟ وهل هناك عقوبة نصت عليها الشريعة لم تكن صالحة من تلك الحالات ؟

« فكهذا توزن الشرائع التى تحيط بالمجتمعات فى مئات السنين ، وبغير هذا الوزن تكثر منافذ الخطأ أو يبطل السؤال فلا محل للسؤال (١) »

روح الاسلام سمحة

وغنى عن القول بعد هذه الاعتبارات أن فهم الشريعة بنصوصها لا يغنى عن فهمها بروحها وحكمتها ..

وروح التشريع الاسلامي كما ظهرت فى نصوص الاحكام وأركان الثبوت روح سمحة جانحة الى العذر وتمهيد الطريق للتوبة والصلاح . فليست العقوبة غرضا مطلوبا لذاته يبادر اليها ولى الامر خفيف الضمير معفى من الحرج والمراجعة . ولكنها ضرورة يدفعها ما دفعتها الشبهة والامل فى التوبة والصلاح . وليس الامام الذى يتحرج من اقامة الحد فى غير موقعه من الثبوت وتوافر الاركان مخالفا للاسلام مقصرا فى اقامة حدوده . بل المخالف للاسلام المقصر فى اقامة الحدود من يهجم على العقوبة قبل أن يستوفى أركانها ويدرأ كل شبهة فيها تأتى لمصلحة المتهم أو لمصلحة الجماعة . وانما الامام الحق فى الاسلام من يذكر أن اطلاق المذنب خير من ادانة البرىء ، وأن التحرج أولى ما يكون بمن يعاقب على الحرج فى أمور الدنيا والدين . »

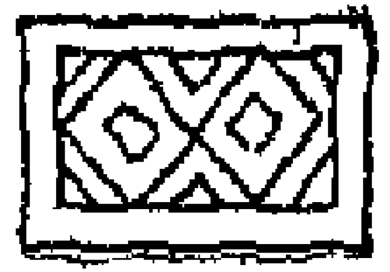
وسيأتى البيان عن مهمة الامام فى تطبيق الحدود

---

(١) من كتاب الشيوعية والانسانية للمؤلف

والاحكام وتقدير المصالح والضرورات فى أمور الجزاء وأمور السياسة الشرعية على التعميم . ولكننا ننتهى بهذه العجالة عن المعاملات الى غايتها اذا عرفنا أن الاسلام لا يوجب على الناس معاملة تضر ولا ينهاهم عن معاملة تفيد ، وأنه يؤدى للمؤمنين به خير ما تؤديه العقيدة الثابتة على تعاقب الاجيال : لا تمنع التجربة الصالحة أن تثبت صلاحها ولا تفرط فى الدائم اللازم ذهابا مع العاجل المشكوك فيه ..

الحقوق



الفصل الثالث



- الحرية الإسلامية
- الأمة
- الأسرة
- زواج النبي
- الطبقة
- الرق
- حقوق الحرب
- حق الإمام

الحرية الاسلامية

أصدق ما قيل فى الاديان العالمية انها ثورات واسعة ولا تقاس السعة فى هذه الثورات بامتداد المكان ولا بكثرة العدد لانها أوسع ما تكون اذا نشبت فى داخل النفس الانسانية وكانت القوة الثائرة والقوة المتغلبة فيها مملكة واحدة : هى مملكة الضمير

ولا نهاية يومئذ لمظاهر التبديل والتغيير التى تتكشف بها الثورة فى تلك المملكة الصغيرة الكبيرة ، لانها تلحق بكل ما تزاوله النفس من شئونها الباطنة والظاهرة : تلحق بالافكار والهواجس الخفية ، وتلحق بالعادات أو الاخلاق ، وتلحق بالعرف والقانون ، وتلحق بالنظم الاجتماعية والدساتير الحكومية ، وتلحق بالحاكمين والمحكومين ، وتلحق بكل مملكة لانها لحقت قبل ذلك بتلك المملكة الصغيرة الكبيرة .. مملكة الضمير !

وأوسع ما تكون ثورة الضمير اذا جاءت من قبل الثورة فى تقدير الحقوق ..

ان الثائر لضيق نزل به يهدأ اذا انفرج ذلك الضيق ، وانه ليثور كما تثور الريح المحجوزة والحيوان الحبيس ، ما هو الا أن يرتفع الحجاز وينفتح الباب حتى تهدأ الثورة ويسكن الثائر والمثير . ولكنه اذا وثب وثبته فى

سبيل حق يؤمن به لا يرجع عنه أو يظفر به كما يطلبه ، واذا ظفر به لنفسه لم يكفف عن الطلب وهو يراه مضيعا عند غيره ، ويكاد يلمس فى كل شىء نذيرا له بضياع الحق وحافزا على حمايته أن يضيع . فانما الثورة الباطنة هى محضأ الثورة الظاهرة ، وطالب الحق هو المطلوب الذى لا ينام عن طلبه ، وهو الرقيب على سريرته قبل كل رقيب ..

ولم تعلن فى ثورات العالم الدينية حقوق عامة للانسان قبل ثورة الاسلام فى القرن السادس للميلاد . لان الانسان نفسه لم يكن عاما فيوليه الدين حقوقا عامة ، وانما ولد هذا الانسان ـ العام ـ يوم آمن الناس باله يتساوى لديه كل انسان وكل انسان ، ويوم نيطت حقوقه بواجباته بغير تفرقة بين قبيل وقبيل .

فمن تحصيل الحاصل أن يقال ان حقوق الانسان لم تكن منظورة من ثورة دينية قبل ثورة الدين الذى دعا الناس الى عبادة رب العالمين ، فانما توجد الحقوق العامة اذا وجد صاحبها الذى يستحقها ويؤدى لها فرائضها ، ولم يوجد لهذه الحقوق صاحب مضطلع بها فى ثورة دينية قبل ثورة الاسلام .. اذ لم يكن هناك الانسان الذى يتساوى فى كل قبيل وكل مكان

على أننا نرجع الى تاريخ الثورات الاجتماعية أو السياسية قبل الاسلام فلا نراها تخالف الثورات الدينية المعاصرة لها فى كبير طائل ولا نرى بينهما حركة يصدق عليها أنها حركة « حقوق انسانية » بمعنى من معانى هذه العبارة كما نفهمها فى العصر الحاضر . فربما كان بينها ما يسمونه بحركات الديمقراطية فى بلاد اليونان ، وربما بدا لهم من كلمة الديمقراطية أنها من حركات الشعوب فهى على هذا خليقة أن تحسب من حركات الحقوق

الانسانية ، وليست هي كذلك حتى في دلالتها اللفظية التي نشأ منها الغلط في فهم حقيقتها . لان كلمة «ديموس» اليونانية كانت تطلق على المحلة التى تسكنها القبيلة ، ثم أطلق النظام الديمقراطى عندهم على الحكومة التى تشترك القبائل فى انتخابها ، ولم يكن اشتراكها فى الانتخاب اعترافاً بحق انسانى يتساوى فيه آحاد الناس ، وانما كان اعترافاً بالقبيلة واتقاء لمعارضتها واضرابها عن العمل فى الجيش وتلبية نفير الدفاع .

ومثل هذا الحق فى رومة حق « التربيون » الذى تنتخبه القبيلة ويشتق من اسمها ، Tribe ولا شأن لانتخابه بما نسميه اليوم حقوق الانسان

وقد توالت على اليونان والرومان أنواع من الحكومات الديمقراطية لم يكن لها من مبدأ تقوم عليه غير أنها خطط عملية لأمن الفتنة واستجلاب الولاء من المجندين للجيش والاسطول من أبناء القبائل وأصحاب الصناعات . وآية ذلك أن الحكومة الديمقراطية نشأت بين الاسبرطيين أصحاب النظم والاجراءات الادارية ولم تنشأ بين الاثينيين أصحاب الفلسفات والبحوث النظرية ، وليس هذا بالمستغرب من اليونان الأقدمين اذا نظرنا الى حقوق الانتخاب فى الديمقراطيات الغربية الى أواسط القرن العشرين .. فان هذا الحق كان يتدرج فى التعميم على حسب الحاجة الى الناخبين فى مصانع الحرب وفى جيوش المقاتلين ، فناله العمال فى البلاد الصناعية قبل أن يناله الزراع ، ونالته المرأة بعد ان اصبحت عاملة فى المصانع تنوب فيها عن الجند المقاتلين ، وناله السود فى الولايات المتحدة بعد اضطرار الدولة الى خدمتهم فى المصانع وفى الجيوش على التدريج بين الحربين العالميتين

غير هذا ولا ريب هو المقصود بالديمقراطية الانسانية،

فانها حقوق معترف بها للانسان وليست خطط عملية يوجبها تكافؤ القوى بين الطوائف وجماهير الناخبين . وليست الديمقراطية الانسانية مما يتصور بغير عناصرها الثلاثة التى لا انفصال بينها : وهى المساواة والمسئولية الفردية وقيام الحكم على الشورى وعلى دستور معلوم من الحدود والتبعات ، وهذه هى العناصر الثلاثة التى نادى بها الاسلام لاول مرة فى تاريخ الانسان

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » (سورة الحجرات)

« كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » (سورة الطور)

« وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » (سورة الشورى)

ونبى الاسلام هو القائل صلوات الله عليه :

« لاَفَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عجمىٍّ وَلاَ لِقُرَشِيٍّ عَلَى حَبَشِيٍّ إِلاَّ بِالتقْوَى »

وهو القائل صلوات الله عليه فى خطبة الوداع :

« أَيُّهَا النَّاسُ . إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، كُلُّكُمْ لآدَمَ وَآدمُ مِنْ تُرَابٍ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، وَلَيْسَ لِعَرَبِى عَلَى عَجَمِى وَلاَ لِعَجَمِى عَلَى عَرَبِى وَلاَ لِأَحمرَ عَلَى أَبْيَضَ فَضْلٌ إِلاَّ بِالتَّقْوَى »

وهو القائل صلوات الله عليه :

« يَا مَعشَرَ قُرَيْشٍ ! اشْتَرُوا أَنفُسَكُمْ . لاَ أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً . وَيَابَنِي عَبدِ مَنَافٍ ! لاَ أُغْنِي عَنكم منَ اللهِ شَيئاً . يَاعَبَّاسَ بنَ عَبدِ المطلِبِ ! مَاأغنى عنك من اللهِ شيئاً . يَافَاطمة بنتَ محمدٍ ! سليني مَا شئْتِ من مَالى . لاأغنى عنك من الله شيئاً »

***

وطالما قيل عن هذه الديمقراطية الاسلامية أنها هى الديمقراطية العربية نقلها الاسلام من بيئة الصحراء التى نشأ فيها ..

وهى كلمة من كلمات القشور التى تجوز على الاسماع بغير عناء لأن الطلاقة شبيهة بالمعهود من الصحراء فى الحس والخيال

الا أن الطلاقة الحسية — فيما وراء القشور — لا تشبه حرية الحقوق فى أصل من أصولها التى تقوم عليها .. انها كطلاقة الريح فى الفضاء وطلاقة العصفور فى الهواء وطلاقة الاوابد بعيدا من المطاردين والاعداء ، وشتان الحرية الانسانية — حرية الحقوق المرعية — وهذه الطلاقة التى يتمتع بها الحيوان والانسان على السواء بمعزل عن العوارض والرقباء ..

فاذا تركنا هذه الطلاقة فى بيدائها الغافلة عنها وبحثنا عن حرية الحقوق فى حكومة من حكومات الجاهلية لم نجد ثمة الا استبدادا بالامر كأشد ما عرف الاستبداد فى دولة

من دول الطغيان ذوات الصولة والصولجان . فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجـــاه فى عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها فى الجنوب الى أقصاها فى الشمال . وما كان الشاعر النجاشى الا قادحا مبالغا فى القدح حين استضعف مهجوه لان :

قبيلته لا يغدرون بذمة
ولا يظلمون الناس حبة خردل

وما كان حجر بن الحارث الا ملكا عربيا حين سام بنى اسد أن يستعبدهم بالعصا وتوسل اليه شاعرهم عبيد ابن الابرص حيث يقول :

انت المـــلك فــــوقهم وهم العبيـــد الى القيـــامه
ذلـــوا لســـوطك مثلمـــا ذل الاشـــيقر ذو الخزامه

وكان عمرو بن هند ملكا عربيا حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار ، وحين استكثر على سادةالقبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته فى داره ..

وكان النعمان بن المنذر ملكا عربيا حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوما للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم اليه خبط عشواء ، ويوما للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح الى المساء ..

وقد قيل عن عزة كليب وائل أنه سمى بذلك لانه كان يرمى الكليب حيث يعجبه الصيد فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه ، وقيل « لا حر بوادى عوف » لانه من عزته كان لا يأوى بواديه من يملك حرية فى جواره ، فكلهم أحرار فى حكم العبيد

ومن القصص المشهورة قصة عمليق ملك طسم وجديس الذى كان يستبيح كل عروس قبل أن تزف الى عريسها ، وفيه تقول فتاتهم عفيرة :

فان أنتم لم تغضبوا بعد هذه
فكونوا نساء لا تعاب على الكحل
ودونكم طيب العروس فانما
خلقتم لاثواب العروس وللنسل

ويستوى أن تصح هذه القصة على علاتها أو لا تصح منها الا الرواية وانظم الموضوع • فانها لصحيحة بجوهرها كل الصحة اذا وقر فى أذهان الرواة والسامعين أن الظلم حق للقادر المعتز بقدرته ، وأن اذلال الاعزاء علامة العزة فوق كل عزيز • ولو لم يكن هذا دأب الملوك فى معهود العرب الاولين لما قالت احدى الملكات فيما رواه القرآن الكريم على لسانها :

« إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » « سورة النمل »

***

فالديمقراطية الاسلامية اذن لم تكن نباتا عربيا نما فى الجاهلية وورثه الاسلام منها • لان الديمقراطية لم يكن لها وجود فى الجاهلية بوجود الامارة والرئاسة الحكومية ، وما كان منها غير ذلك من قبيل الطلاقة المرسلة فى الصحراء الواسعة فانما هو طلاقة مادية كطلاقة الطائر فى جوه أو كطلاقة الهواء الذى لا عائق له فى فضائه والماء الذى لا عائق له فى مجراه • وتلك الطلاقة المادية ــ ان جاز أن نسميها حرية ــ فانما هى الحرية التى يستمتع بها المرء لانها شىء مزهود فيه لا يجد من يضادره أو يرغب فيه ••

ولم تكن الديمقراطية الاسلامية كذلك نباتا منقولا من تربة أجنبية لان الديمقراطية الاسلامية ديمقراطية حقوق

تلازم الانسان ، وما نبت قبلها من الديمقراطيات فهو على أحسنه خطط عملية تمليها الضرورة على حسب الحاجة اليها ، وليس هناك « انسان » يحق له أن يطلبه اذا فقد القدرة عليه ، لان هذا « الانسان » صاحب الحق فى الديمقراطية باعتباره « انسانا » مساويا لسائر أبناء آدم وحواء لم يكن له وجود مفهوم قبل الدعوة الاسلامية ..

لم تنبت الديمقراطية الاسلامية فى تربة الصحراء ولا فى تربة الحضارة ، ولكنها كانت معجزة الهية مثلها فى الظهور بين الجاهليين كمثل الايمان بالاله الواحد الاحد الذى لا يحابى قوما لانهم قومه دون سائر الاقوام ولا يلعن قوما لانهم ورثوا اللعنة من الآباء والاجداد

حق الانسان والايمان بالله رب العالمين ـ كلاهما معجزة آلهية تجلت بها قدرة الله على غير مثال سابق متسلسل من أسبابه فى بيئته ولا فيما جاورها من البيئات فان السوابق التى سلفت قبل الدعوة الاسلامية كانت كسوابق المرض الذى يتطلب الدواء ولم تكن كسوابق العلاج الذى ينتهى بالشفاء ، وتلك هى السوابق التى تتجلى فيها قدرة الله على يد رسول من رسله ينبعث بالهداية ملهما موفقا بوحى من الله ، فيصنع المعجزة التى لم تمهد لها أسبابها ودواعيها ، لان أسبابها الخفية ودواعيها الكامنة فى السريرة الانسانية تفوت ذرع العقول ولا تدخل فى الحساب ..

ولسنا نحب أن يفهم القارئ من كلامنا أن المعجزة الالهية تقلب أوضاع الامور وتأتى فى أوانها بغير سبب مقدور ، وانما نريد أن الاسباب لا تنكشف كلها لعلم الانسان وان علم الله هو الذى يحيط بالخوارق التى لا تدخل فى الحسبان ..

فالمرض الذى يؤدى الى الموت سبب ، والمرض الذى يؤدى الى العلاج المنقذ سبب ، فاذا اختلط علينا السببان وجاء الشفاء من حيث نتوقع الهلاك والفناء . فتلك معجزة من المعجزات الالهية علمها عند الله ، واسبابها غير الاسباب التى نقدرها لها قبل وقوعها ..

نشأت الدعوة الاسلامية فى بيئة مريضة بأدواء العصبيات وضروب الضلال فى اختلاط من العبادات والخرافات . فلو جرت الاسباب التى ندركها فى مجراها المعهود فالدعوة التى تأتى من قبل هذه البيئة لن تدعو الى اله واحد يتساوى لديه جميع الناس ، ولن تمنح الانسان حقا واحدا يتساوى فيه جميع الناس ..

ولكن هذه الدعوة جاءت بهذا وذاك : جاءت بالدعوة الى رب العالمين والى الحق الذى يتساوى فيه ابناء ادم وحواء ، وجاءت بذلك لان انسانا واحدا خلق الله فيه من قوة الروح ما يكافىء تلك العصبيات جميعا وتلك الضلالات جميعا ويتغلب عليها ويجريها فى غير مجراها. ذلك هو رسول الله ..

وتلك هى المعجزة الالهية ..

واسبابها نفهمها الان ، بعد ان هدينا اليها ، ولكننا لم نكن لنفهمها لو ترقبناها قبل وقوعها وانتظرناها من حيث تنتظر الاسباب العاملة فى حياتنا ، ولا سيما الاسباب التى نحسبها اليوم من الاسباب « الطبيعية » دون سواها ..

معجزة من المعجزات الالهية أن تجيء الدعوة الى رب العالمين من صحراء لا تعرف غير الفوارق بين العصبيات والانساب ..

ومعجزة مثلها أن يجيء من تلك الدعوة حق الانسان

الذى يرفعه عمله ولا يرفعه نسبه ، أيا كان هذا النسب بين الاعراق والاقوام ..

ولا انفصال بين المعجزتين بعد الروية فى السبب الذى تنبعثان منه والنهاية التى تؤديان اليها ..

كلتا المعجزتين صادرة من ينبوع واحد .. فمن آمن برب العالمين لم يؤمن برب فريق دون فريق من الناس ، ومن آمن بالمساواة بين أعمال الناس وحقوقهم فلن يؤمن برب غير ربهم أجمعين ..

ويقال بحق ان الانسان يتطلب المثل الاعلى فى الصفات الالهية ، وانه من أجل هذا لاينزه حاكمه عن صفة يقبل الاتصاف بها فى حق الله

ومن البديه أنه لايتخيل حاكمه منزها عن المحاباة بين رعاياه اذا جاز عنده أن الله لايتنزه عن المحاباة بين خلقه فى غير عمل ولا مزية

فلا جرم كان الايمان برب العالمين ايمانا بحق العدل والمساواة ، وايمانا بالديمقراطية التى تقوم على هذا الحق فى الارض وفى السماء

ولله المثل الاعلى

والله فى عقيدة المسلم هو أحكم الحاكمين

فهو الحاكم الذى لايظلم أحدا ولا يحاسب أحدا بغير تكليف ولا يغير ما بالعبد حتى يغير ما بنفسه ، ولا يأمر الحاكم بأمر الا كان هذا الامر من شريعته فى عباده ، ومن نواميسه فى قضائه وقدره ..

« وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » . (سورة الكهف)

« إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » . (سورة النساء)

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » . (سورة الانفال)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » (سورة الرعد)

« وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » . (سورة الاسراء)

« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » . (سورة فاطر)

***

واذا كان هذا عهد الله على نفسه أمام خلقه فالثورة التى جاء بها الاسلام فى عالم الحقوق أرفع وأوسع من أن تحسب من تلك الثورات التى تبتدىء وتنتهى فى نطاق الحركات الاجتماعية أو السياسية . انها ثورة كونية ترتفع بالحقوق والقيم فى نظر الانسان الى أعلى فأعلى والى أكمل فأكمل . فلا تبقى له من علاقة ببنى نوعه أو بالكون الذى يحتويه الا ارتفعت بمقدار ما ارتفع عنده من حق ومن قيمة . .

***

ومن أجمل ما فى الاسلام أن هذه الحقوق العليا فيه لا تحرم الانسان حقه فى الحياة ولا تزهده فى طيباتها ومحاسنها ، فحق الضمير لايجور على حقه فى الحياة الدنيا . وهو مأمور بالسعى والعمل والاستمتاع بما يكسبه بسعيه وعمله من نعمتها وزينتها ، أمره بذلك كأمره برعاية حقه من العدل والحرية والكرامة . .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً » .
(سورة البقرة)

« يَا أَيُّهَا الذينَ آمنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ » .
(سورة البقرة)

« يَا بَنِي آدمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا
وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا » . (سورة الاعراف)

« لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ » . (سورة المائدة)

ونقول ان الامر بحق الحياة من اجمل ما جاء به الاسلام . لان الانسان لم يتعود من الدين قبله أن يأمره بهذا الحق ، وانما تعود من أديان كثيرة أن تنهاه عنه ، وأن تجعل زهده فى الارض شرطا لحظوته فى السماء

الأمـــة

آمن المسلمون بالحق الالهى فجعلوا الامة مصدرا لجميع السلطات ومرجعا لجميع المسئوليات . وهذا هو الحق الالهى اذا فهم على سوائه ولم تنحرف به الأهواء الى غير معناه ، خدمة للمطامع وتزجية للمآرب عند ذوى السلطان

لا مصدر للسلطة العامة فى الاسلام غير الامة ..

ولا مرجع فيه للمسئولية العامة غير الامة ..

ولا تعارض بين هــذا وبين نصــوص الكتــاب وسنة الرسول ..

فان النصوص والسنن لا تقوم بذاتها ، بل تقوم بمن يفهمها ويعلمها ويعمل بها ويؤديها على وجوههــا ، وكل أولئك تشمله الامة بما انطوت عليه خاصتها وعامتها ، وجملة ذوى الحل والعقد والعاملين من عليتها وسوادها .

فهى التى تأتمر بنصــوص الكتــاب والسنــة ، وهى المسئولة عن صوابها وخطئهــا حيث ائتمرت به واتفقت عليه او اختلفت فيه ..

واول ما تقرر من ذلك الحق كان فى حياة النبى عليه السلام . فانه كان مأمورا بمشــاورة أمتــه ، وكان الامر بينهم شورى فى كل شأن من الشئون غــير التبليغ الذى خصه الله به ولولاه لم تكن الدعوة الى هذا الدين ..

«وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ» . (سورة آل عمران)

«وَأَمْرُهُمْ شورَى بَيْنَهُمْ» . (سورة الشورى)

ولما قبض عليه السلام الى الرفيق الاعلى كانت ولاية الامر بعده لمن توليه الامة وتبايعه على الخلافة ، وتولاها من تولاها من الخلفاء الراشدين بالبيعة العامة ، ولم يدع احد بعدهم حقا فى ولايتها بغير هذه البيعة ..

ولا يوجد فى الاسلام حق بغير تبعة . فحق الامة فيه وتبعتها متكافئان متساويان ..

حقها تام وتبعتها تامة ..

حقها تام لايصدها عنه ذو سلطان بغير رضاها ، وتبعتها تامة لايعفيها من جرائرها عذر من الاعذار ..

وهى متكافلة متضامنة فى حقوقها وتبعاتها ، لانها متكافلة متضامنة فيما يصيبها من عواقب أعمالها ..

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ..

فلا عذر لها فى ضلال تنساق اليه متابعة لأسلافها ، ولا عذر لها فى ضلال تنساق اليه متابعة لأحبارها وكبرائها ، فان اللائمة لتعود عليها فى ذلك كله كما عادت على الذين من قبلها ..

«وَإِذَا قِيلَ لهم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُون شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ» (سورة البقرة)

«قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » . (سورة التوبة)

***

« قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ! قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا » .

(سورة النساء)

هذه المسئولية التامة المتناسقة بين طوائف الامة وطبقاتها — تمليها شريعة تامة متناسقة فى عقائدها وتكاليفها ، ولولا هذا التناسق فى الدين الاسلامى لكان اضطلاع الامة بمسئولياتها العامة من النقائض التى لاتعقل فى قسطاس العدل أو فى منطق الواقع ، لانها تسوم الناس من جانب ماتبطله من الجانب الآخر

فالاحبار والكهان فى الامم الخالية كانوا يقومون بينها هيئة مفروضة عليها مرسومة بمراسمها الموروثة وأزيائها المقررة وأتاواتها المضروبة عليها كأنها ضرائب الدولة ، وكانت هذه الهيئة قائمة فى الطليعة تهتدى فيهتدى من يليها ، وتضل فلا يملك أحد سبل الهداية من ورائها . وكان سبيل الهداية الوحيد أن يتصدى نبى من الانبياء لهذا السد المغلق فيحطمه ويفتح فيه الثغرة التى يسلكها من يتطلع الى بصيص من النور يطالعه من لدنها

ولو فرض الاسلام على الامم هيئة كهذه الهيئة لما استقام للامة حقها العام ولا تسنى لها أن تضطلع بتبعاتها العامة . الا أنه أعفاها من طغيان الكهانة وفتح أمامها منادح للفكر الانسانى لم تكن مفتوحة من قبله ، فجعل النصيحة حقا لكل قادر عليه من أولى الفهم والدراية ، وجعل العلم

وظيفة عامة يطلبها من يشاء ويتولاها من يشاء ولا سلطان له على الناس غير سلطان القدوة الحسنة والاقناع بالحجة والبينة الصادقة ، وهو المسئول ان خان هذه الامانة ، والمستمعون له هم المسئولون ان سمعوها فلم يستجيبوا لندائها

« وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ » . (سورة آل عمران)

***

« وَمَا هَلَكَ الاممُ مِنْ قَبْلِهِمْ إِلاَّ لأَنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ » .

(سورة المائدة)

***

وأن كلمة « المنكر » وحدها لكافية فى الدلالة على هذه الفريضة العامة . فانها من الانكار الذى يشيع بين الناس فلا يجرى بينهم أمر من الامور أنكروه ولم يتعارفوا عليه . فاذا اصطلحوا على المنكر وجهلوا الامر بالمعروف فتلك أيضا جريرتهم يحاسبون عليها مادام من حقهم أن يتجنبوها ، ولا ظلم ولا حيف فى هذه المسئوليات العامة بين الامم . بل الظلم والحيف أن يتساوى الجاهلون والعارفون ، أو تتساوى جماعة الجهلاء الذين نفعتهم ويلات الجهل وبلاياه فجهدوا جهدهم للخلاص منه ، وجماعة الجهلاء الذين سدروا مع الجهل ولم يشعروا بويلاته وبلاياه . ولا يحل فى قسطاس العدل على كل حال أن تكون الأمة مصدرا لجميع السلطات الا اذا كانت مع هذا مرجعا لجميع التبعات والمسئوليات . .

«ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»
(سورة آل عمران)

ولا يحسب على الاسلام أن المسلمين لم يحفظوا حقهم ولم يضطلعوا بتبعتهم ، وانما يحسب عليه أنهم حفظوا الحق ثم ندموا على حفظه واضطلعوا بالتبعة ثم ندموا على الاضطلاع بها ، أو يحسب عليه أنهم ضيعوا الحق فلم يصبهم بلاء من تضييعهم اياه ، وانهم نكصوا عن التبعة فلم يصبهم بلاء من النكوص عنها . ولم يحدث من هذا مايدعو المسلم الى الندم على ايمانه بدينه ، ولكنه قد حدث منه مرارا مايدعوه الى الندم على التفريط فى أوامر هذا الدين القويم ونواهيه

***

ولعله من علامات الخير أن تدول الدول وأن يذهب ما أفسدت من أمور الدين والدنيا وتبقى للمسلم عقيدته فى حقوق أمته مصونة فى قلوب المحافظين والمجددين ، ملحوظة فى آراء الوادعين والثائرين ، يقول أشدهم محافظة ما يقوله أشدهم قلقا وثورة ، ويتلاقى الماضى والمستقبل لديهم أجمعين على كلمة سواء يسمعها من شاء بعد أربعة عشر قرنا كما سمعها أسلافه قبل اربعة عشر قرنا فى صدر الاسلام وأبان الدعوة المحمدية

يقول امام من أشهر الائمة المتأخرين بالمحافظة على القديم :

ان كتب الكلام ... « كلها مطبقة متفقة على أن منصب الخليفة والامام انما يكون بمبايعة أهل الحل والعقد وأن الامام انما هو وكيل الامة وأنهم هم الذين يولونه ملك السلطة وانهم يملكون خلعه وعزله وشرطوا لذلك شروطا أخذوها من الاحاديث الصحيحة . وليس لهم مذهب سوى هذا المذهب ... » (١)

(١) الشيخ محمد بخيت فى كتابه عن حقيقة الاسلام واصول الحكم

ولا يفوتنا فى ختام هذه الكلمة عن حقوق الامة أن ننبه الى حقيقة النسبة الى الامة حيثما وردت فى القـرآن الكريم . فان كتاب الله يعنى بهذه الكلمة أن الخطاب الالهى موجه الى الامم عامة لاتستأثر به أمة ولا تحجب عنه أمة خـلافا لمن قال من بنى اسرائيل ان « الامم » لاتتلقى خطابا من الله وانهم وحدهم ـ أمة اسرائيل ـ قد استأثروا بهذا الخطاب دون خلق الله.

ويدل على ذلك أن كلمـة « الاميين » قد وردت فى القرآن الكريم مقابلة لاهل الكتاب أو لاهل الكتاب من بنى اسرائيل خاصة فى غير موضع ، فالاميون قد وردت فى سورة آل عمران مرتين منسوبة الى كل أمة غير بنى اسرائيل :

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ »

(سورة آل عمران)

« وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ »

(سورة آل عمران)

***

وقد وردت بهذا المعنى حيث جاء فى القرآن الكريم أن الله « بعث فى الاميين رسولا » .. تكذيبا لدعوة الذين يزعمون أن الله تعالى لايخاطب الامم ، وتذكيرا لهم بأن الامة هى موضع الخطاب من الله كلما بعث اليها برسول

« وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ » (سورة فاطر)

الأسرة

الاسرة هى الامة الصغيرة ، ومنها تعلم النوع الانسانى أفضل أخلاقه الاجتماعية ، وهى فى الوقت نفسه أجمل أخلاقه وأنفعها ..

من الاسرة تعلم النوع الانسانى الرحمة والكرم ، وليس فى أخلاقه جميعا ماهو أجمل منهما وأنفع له فى مجتمعاته

فالرحمة فى اللغة العربية من الرحم أو القرابة ، وهى كذلك فى اللغات الهندية الجرمانية . لان كلمة « كايند kind » مأخوذة كذلك من الرحم ، وكلمة الطفل التى تتمثل الرحمة كلها فى العطف عليه مأخوذة منها ..

والكرم فى اللغة العربية مأخوذ من النسب الصريح الذى لا هجنة فيه ، وهو فى اللغات الهندية الجرمانية مأخوذ كذلك من « الجانر » Genre ... والمنسوب اليها هو الكريم ..

واذا تتبعنا سائر الفضائل والمناقب الخلقية المحمودة بلغنا بها فى أصل من أصولها على الاقل مصـــدرا من مصادر الحياة فى الاسرة . فالغيرة والعزة والوفاء ورعاية الحرمات كلها قريبة النسب من فضائل الاسرة الاولى ، ولاتزال من فضائلها بعد تطور الاسرة فى أطوارها العديدة منذ عشرات القرون ..

ولا بقاء لما كسبه الانسان من أخلاق المروءة والايثار اذا هجر الاسرة وفكك روابطها ووشائجها

فمن عادى الاسرة فهو عدو للنوع الانسانى فى ماضيه ومستقبله . ولا يعادى الاسرة أحد الا تبينت عداوته للنوع الانسانى من نظرته الى تاريخ الاجيال الماضية . كأنه ينظر الى عدو يضمر له البغضاء ويهدم كل ما أقامه من بناء ..

وما من سيئة تحسب على الاسرة بالغة ما بلغت سيئاتها من الكثرة والضرر هى مسوغة لمحب بنى الانسان أن يهدم الاسرة من أجلها ويعفى على آثارها ..

فحب الاسرة — حقا — قد سول للناس كثيرا من الجشع والاثرة ، ومن الجبن والبخل ، ومن الكيد والاجرام ..

وكذلك حب الانسان نفسه قد فعل هذا فى العالم الانسانى وزيادة ..

ولكننا لانمحو الانسان ولا نمحو الاسرة من أجل الاثرة وأضرارها . وانما نمحو الاثرة ما استطعنا ونوفق بينها وبين الايثار غاية ما يستطاع التوفيق بين الخليقتين ، ونفلح فى ذلك مع الزمن لاننا أفلحنا كثيرا فى تعميم روابط الاسرة الصغيرة بين أبناء الاسرة الكبيرة ، وهى الامة ، ولاننا أفلحنا كثيرا فى تعميم المنافع والمرافق من هذه المثابة فضلا عن المناقب ومكارم الاخلاق . فلولا الاسرة لم تحفظ صناعة نافعة توارثها الابناء عن الآباء ثم توارثها أبناء الامة جمعاء ، ولولا الاسرة ما اجتمعت الثروات التى تفرقت شيئا فشيئا بين الوارثين وغير الوارثين من الاعقاب ، ولولا الاسرة لاستجاب لدعوة الهدم والتخريب كل من لا خلاق له من حثالات الخلق ونفاياتهم فى كل جماعة بشرية . فالاسرة هى التى تمسك اليوم ما بناه

النوع الانسانى فى ماضيه ، وهى التى تؤول بهغدا الى أعقابه وذراريه حقبة بعد حقبة وجيلا بعد جيل ..

لا امة حيث لا أسرة ..

بل لا آدمية ، حيث لا أسرة ..

ولن ينسى الناس أنهم أبناء آدم وحواء الا نسوا أنهم أبناء رحم واحد وأسرة واحدة ، كائنا ما كائن تأويلهم لقصة آدم وحواء ..

ومتى علمنا أن واجب الانسان لبنى نوعه فى الاسلام ـ انما هو واجب الاسرة الكبرى التى جمعت أخوة الشعوب والقبائل لتتعارف بينها ، فقد علمنا شأن الاسرة فى هذا الدين وعلمنا ان قرابة الرحم والرحمة حجة القرابة بين الاخوة من أبناء آدم وحواء ، وأنها هى شفاعة كل انسان عند كل انسان ..

***

تقوم الاسرة فى الاسلام على أنها كيان دائم تراد له السعة والامتداد والوئام ..

وتتحقق سعة الاسرة وامتدادها ووئامها بنظامين من النظم التى شرعها لها الاسلام ، وهما نظام المحارم فى الزواج ونظام الميراث ..

فالاسلام يحرم الزواج بالاقربين ولا يبيح من ذوى القرابة الا من أوشكوا ان يكونوا غرباء ، فالزواج يجمع منهم فى الاسرة من أوشكوا أن يتفرقوا كأبناء العمومة والخؤولة ..

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ

وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ
وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ
نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ
وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأختَيْنِ إِلَّا مَاقَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
غَفُورًا رَحِيماً » (سورة النساء)

والمقاصد من هذا التحريم منوعة لانحصيها فى هذا المقام ، أجلها وأجداها توسعة الاسرة ووقايتها من شواجر الخصومة والبغضاء ، وأن يتحقق بالزواج من أسباب المودة والنسب مالم يتحقق بالقرابة ، فيرجع الى الاسرة من أوشك أن ينفصل عنها ، ويحرم الزواج بذوى القرابة الحميمة التى لا حاجة بها الى توثيق النسب والمصاهرة ، وهما فى القرآن الكريم من آيات خلق الانسان كما جاء فى سورة الفرقان :

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً
وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً » (سورة الفرقان)

ويشرع الاسلام نظام الميراث لان الاسرة كيان يعيش ويتصل بعد انقضاء أعمار أعضائه . ولا اعتراض على نظام الميراث من وجهة النظر الى طبائع الاحياء ولا من

وجهة النظر الى المصلحة الاجتماعية ، فان الابناء يرثون من آبائهم ما أرادوه وما لم يريدوه ، وحق لهم أن يرثوا ماخلفوه من عروض كما ورثوا عنهم ماخلفوه من خليقة لا فكاك منها ، ولا غبن على المجتمع فى اختصاص الابناء بثمرة العمل الذى توفر عليه الآباء ، لان هذه الثمرة اذا بقيت فى المجتمع كان الورثة أحق بها من سواهم ، وكان الغبن فى النهاية أن يتساوى العامل لغده والعامل الذى لاينظر الى غير يومه وساعته ، أو يتساوى من يعمل ويبنى للدوام ومن لايعمل ولا يبالى مايصيب المجتمع بعد يومه الذى يعيش فيه

***

ويتحقق وئام الاسرة وامتدادها بما فرضه الاسلام من حقوق لكل عضو من أعضائها ، فلا حق لانسان على انسان أعظم من حق الآباء والامهات فى الاسلام على الابناء والذرية . وبحسبك أنه كاد أن يكون البر بهم مقرونا بالايمان بوحدانية الله

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً) (سورة الانعام)

وكادت الطاعة لهم الا يسبقها واجب غير واجب الطاعة للاله المعبود

(وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ

جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) (سورة لقمان)

***

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

(سورة الاسراء)

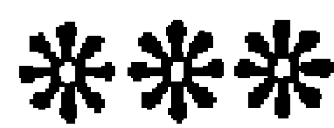
وفى القرآن الكريم غير الوصايا فى هذه الآيات وصايا مثلها تذكر كلما ذكر الوالدان ، وفيه من الآيات ما يتصل به شكر الانسان لنعمة الله على أبويه بدعائه الى الله أن يصلح له ذريته وان يلهمه العمل الذى تصلح به حياته الباقية

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة الاحقاف)

وربما سبق الى الخاطر فى عصرنا هذا أن البر بالابناء لا يحتاج الى وصية دينية كوصية الابناء بالآباء ، لما ركب فى طباع الاحياء من حب البنين والرقة لصغار الاطفال على العموم . الا أن أحوال الامم وأحكام شرائعها قبل الاسلام تنبيء عن مسيس الحاجة الى هذه الوصية ، لان أخطاء العرف الشائع فيها كانت أشد من أخطاء العرف الشائع فى معاملة الابناء للآباء .. فكان الولد فى شريعة الرومان بمثابة العبد الذى يملكه والده ويتصرف فيه برأيه فى كل ما يرتضيه له قبل بلوغ رشده ، وكانت شريعة حمورابى توجب على الاب الذى يقتل ولدا لغيره أن يقدم ولده لابى القتيل يقتص منه بقتله ، وكان اليهود يقتلون الابناء والبنات مع أبيهم اذا جنى الاب جنساية لم يشتركوا فيها ولم يعلموها ، ومن ذاك ما فى الاصحاح السابع من كتاب يشوع حين اعترف عخان بن زارح بسرقة الرداء النفيس والفضة :

« فأرسل يشوع رسلا فركبوا الى الخيمة واذا هى مطمورة فى خيمته والفضة تحتها . فأخذوها من وسط الخيمة وأتوا بها الى يشوع والى جميع بنى اسرائيل وبسطوها أمام الرب . فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم الى وادى عجور فقال يشوع: كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم.فرجمه جميع بنى اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورجموهم بالحجارة واقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة الى هذا اليوم. فرجع الرب عن حمو غضبه ولذلك دعى اسم ذلك المكان وادى عجور الى هذا اليوم »



أما عرب الجاهلية الذين نزل فيهم القرآن الكريم فقد أبيح بينهم قتل الاولاد وجرت بينهم شريعة الثأر من الابن بذنب أبيه مجرى العرف المحمود . فلما جاء الاسلام أثبت للولد حقا فى الحيـــاة والملك كحق أبويه ،

وشرع له من مولده حقوق الرضاع والحضانة ، وكان أبر بالابناء من آبائهم وأمهاتهم ، لانه كان يأخذ العهد عليهم ألا يقتلوا أبناءهم ويحميهم مما لا يحتمون منه بحنان الابوة والامومة ..

***

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَلاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ) (سورة الممتحنة)

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ) (سورة الانعام)

وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) (سورة الاسراء)

***

أما حقوق الاسرة من حيث الروابط الزوجية فقد جاء الاسلام فيها بالجديد الصالح واقام حقوق الزوجين على أساس العدل بينهما ، وأقام العدل على أساس المساواة بين الحقوق والواجبات ، وهى المساواة العادلة حقا فى هذا الموضوع . اذ كانت المساواة بين الذين لا يتساوون بأعمالهم وكفايتهم ظلما لا عدل فيه

ولم يهبط الاسلام بمنزلة المرأة فى جانب من جوانب حياتها العامة او حياتها البيتية التى وجدها عليها ، ولكنه ارتفع بها من الدرك الذى هبطت اليه فى الحضارة الغابرة

وعقائد الأمم التى تأثرت بتلك الحضارات قبل ظهوره ، وكلها لم تكن على حالة مرضية فى بلاد العالم المعمور

كانت المرأة فى الحضارة الرومانية تابعا له حقوق القاصر أو ليست له حقوق مستقلة على الاطلاق

وكانت فى الحضارة الهندية عائقا للخلاص من دولاب الحياة الجسدية ، وخلاص المرء مرهون « بالموكشا » أى بالانفصال عنها ، وكان حقها فى الحياة منتهيا بانتهاء أجل الزوج ، تحرق على جدثه عند وفاته ولا تعيش بعده الا حاقت بها اللعنة الأبدية وتحاماها الآل والأقربون

وكان للمرأة فى الحضارة المصرية القديمة حظ من الكرامة يجيز لها الجلوس على العرش ويبوئها مكان الرعاية فى الاسرة ، ولكن الامة المصرية كانت من الامم التى شاعت فيها عقيدة الخطيئة بعد الميلاد وشاع فيها مع اعتقاد الخطيئة الابدية ان المرأة هى علة تلك الخطيئة وخليفة الشيطان وشرك الغواية والرذيلة ، ولا نجاة للروح الا بالنجاة من أوهاقها وحبائلها

وكانت معيشة البداوة فى الجاهلية العربية تمنح المرأة بعض الحرية لانها كانت عضوا نافعا فى تلك المعيشة البدوية تسقى وترعى وتنسج وتستخرج الطعام من الالبان والثمرات ، ولكن هذه المعيشة البدوية نفسها كانت ترغب الآباء فى ذرية البنين وتزهدهم فى ذرية البنات ، لأن البنين جند القبيلة وحماة حوزتها وعدتها فى شن الغارات والتأهب لردها ، فلم يكن أبغض الى الاب من خبر يأتيه بمولد أنثى ولو كان ذا وفر ووفرة ، ومنهم من كان يئد البنات أشفاقا من العار ان لم يئدهن خشية املاق ، والى ذلك يشير القرآن الكريم حيث جاء فى سورة النحل

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة النحل)

وتكررت الاشارة اليه حيث جاء فى سورة الزخرف بعد تسفيه الذين جعلوا للرحمن جزءا من عباده :

(... أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) (سورة الزخرف)

فلما بعث النبى صلوات الله عليه بالدعوة الاسلامية لم تكن للمراة منزلة مرضية ولا حقوق مرعية فى وطن من أوطان الحضارة أو البداوة ، فرخص الاسلام عنها هـذه الوصمة وخولها من الحقوق ما يساوى حقوق الرجل فى كل شىء الا فى حق القوامة :

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) (سورة النساء)

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) (سورة البقرة)

وهذا الذى عنيناه بالمساواة بين الحقوق والواجبات لأن المساواة بين الرجل والمرأة فى جميع الكفايات والأعمال امر لم يقم عليه دليل من تكوين الفطرة ولا من تجارب الامم ولا من حكم البداهة والمشاهدة ، بل قام الدليل على نقيضه فى جميع هذه الاعتبارات . ولم تتجاهل الامم فوارق الجنسين الا كان تجاهلها لها من قبيل تجاهل الطبيعة التى تضطر من يتجاهلها الى الاعتراف بها بعد حين ، ولو من قبيل الاعتراف بتقسيم العمل بين جنسين لم يخلقا مختلفين عبثا بعد ان غبرت عليهما ألوف السنين وأحرى أن يكون طول الزمن مع تطور الاحوال الاجتماعية سببا لاختصاص كل منهما بوظيفة غير وظيفة الجنس الآخر ، ولا سيما فى الخصائص التى تفترق فيها كفاية الحياة البيتية وكفاية الحياة الخارجية ، فان طول الزمن لا يلغى الفوارق بل يزيدها ويجعل لكل منها موضعا لا يشابه سواه ..

ان تكوين الفطرة فى مسألة النسل التى هى قوام حياة الاسرة يفرق بين الذكر والانثى تفرقة لاسبيل الى الاغضاء عنها فى حياة النوع الانسانى على الخصوص . فان وظيفة النسل طليقة فى الرجل يصلح لها ما صلحت بنيته طول حياته الى السبعين وما بعد السبعين ، ووظيفة التناسل فى المرأة مقيدة بالحمل مرة واحدة فى كل عام وقلما تصلح لها المرأة بعد الخامسة والاربعين او الخمسين فى أكثر الاحوال ..

وفى تجارب الامم شواهد ملموسة على الفارق الاصيل بين الجنسين فى الكفاية العقلية والكفاية الخلقية . فان المرأة على العموم لا تساوى الرجل فى عمل اشتركا فيه ، ولو كان من الاعمال التى انقطعت لها المرأة منذ عاش الجنسان فى معيشة واحدة . لا تطبخ كما يطبخ ولا تتقن

الازياء كما يتقنها ولا تبدع فى صناعة التجميل كما يبدع فيها ولا تحسن أن ترثى ميتا عزيزا عليها كما يرثى موتاه ، وهى منذ بدء الخليقة تردد النواح وتنفرد بأكثر مراسم الحداد . ومن اللغو ان يقال ان هذه الفوارق انما نجمت من عسف الرجل واستبداده ، فان الرجل لم يكن ينهى المرأة أن تطبخ وأن تخيط الثياب وأن تتزين أو ترقص أو تترنم بالاغانى والاناشيد ، ولو أنه نهاها فاستطاع ان ينهاها فى بيتها وفى الدنيا الرحيبة لقد كان ذلك منه دليلا على غلبة العقل والارادة لا ريب فيه

وندع الارادة فى كل شىء ونتأمل الغريزة الجنسية المركبة فى اناث جميع الانواع . فهل من المجهول الخفى أن الانثى تكتم ارادتها ولا تجهر بها وأنها تتصدى للذكر حتى يلتفت اليها ؟ وهل من المجهول الخفى أن أصوات الذكور تغلظ وتقوى بعد بلوغ النضج لانفرادها بالدعاء الجنسي واقتران هذا الدعاء بالنمو فى كل قوة تكفل لها الغلبة والسبق فى صراع الانتخاب الجنسي ؟ وهل مما يستطاع ادعاؤه هنا أن هذه الفوارق الاصيلة قد خلقها ذكور الحيوان ولم تكن عن حكمة عميقة فى بنيان الجنسين . ينقاد اليها الذكور كما ينقاد اليها الاناث ؟

واذا اعتبرنا مسألة القوامة من وجهة « ادارية » بحت واعتبرنا ان الاسرة هيئة لا غنى لها عن قيم يتولاها فمن يكون هذا القيم من الزوجين ؟ اتكون القوامة للمرأة أم تكون للرجل ؟ . اتكون حقوق الابناء فى ذمتها أم تكون فى ذمته ؟ ..

ان هذه الامور من وقائع الحياة التى لا ترحم من يتجاهلها ولا تحلها تحيات الاندية ولا جعجعة الفروسية الكاذبة فى بقاياها المتخلفة من عصورها المنقرضة ، وما كان للمرأة فى أحسن حالاتها فى تلك العصور المنقرضة

من مكانة غير مكانة العشيقة في قصص الغرام .. كأنما هي مباهاة الفارس بشجاعته تعلو به في كل موقف له مع المخلوقة الضعيفة ان يكون كموقفه مع الانداد والنظراء

ولا نحب ان نغضي عن البـــاعث الذى يتذرع به من ينكرون قوامة الرجل لادعاء المساواة بين الجنسين . فانهم يتذرعون لدعواهم هذه باضطرار المرأة الى الكدح لنفسها أحيانا فى ميدان العمل طلبا للقوت ولوازم المعيشة فهذه ولا مراء حالة واقعة تكثر فى المجتمعات الحديثة كلما اختلت فيها وسائل العيش وتأزمت فيها اسباب الكفاح على الارزاق . ولكننا نراهم كأنهم يحسبونها حالة حسنة يبنون عليها دعائم المستقبل ولا يحسبونها حالة سـيئة تتضافر الجهود على اصلاحها وتدبير وسائل الخلاص منها، وما هى فى الواقع الا كالحـالة السيئة التى دفعت الآباء والامهات الى الزج بأطفالهم فى ميدان الكفاح على الرزق فأنكرتها القوانين وحرمتها أشد التحريم ، ولم تجعلهـا حجة تسوغ بقاءها وتقيم عليها ما تستتبعه من النظـم الحديثة فى الاسرة أو فى الحياة الخارجية

واذا أعطيت هذه الاعتبارات قسطها من الجد والروية صح لدينا ان الاسلام قد جاء بالهداية الصالحة فى تقرير مكان المرأة من الاسرة بالقياس الى الحالة التى كانت عليها قبل الدعوة الاسلامية ، وبالقياس الى الحالات التى يحتمل ان تؤول اليها فى جميع الظروف والعوارض الاجتماعية . اذ رفعها الاسلام من الهوان الذى ران عليهـا من ركام العادات الخالية ، وأقام حقوقها الزوجية على الاساس الذى يحسن فى جميع الاحوال ان تقام عليه

ان الاسلام لم يمنع الاكتفاء بزوجة واحـــدة بـل استحسنه وحض عليه ، ولم يوجب تعدد الزوجـات بل أنكره وحذر منه ، ولكنه شرع لأزواج يعيشون على الارض

ولم يشرع لارواح تعيش فى السماء ، ولا منـــاص فى كل تشريع من النظر الى جميع العوارض والتقـــدير لجميع الاحتمالات ، وفى هذه الاحتمالات ولا ريب ما يجعل اباحة التعدد خيرا وأسلم من تحريمـــه بغير تفرقة بين ظروف المجتمع المختلفة او بين الظروف المختلفة التى يدفع اليهــا الازواج ..

***

وينبغى أن ننبه الى وهم غالب بين الجهلاء والمتعجلين من المثقفين عن سنن الاســلام فى تعــدد الآزواج قبــل الاسلام .. اذ الغالب على أوهامهم أن الاسلام هو الدين الوحيــد الذى أباح تعــدد الزوجات أو انه أول ديــن أباحه بعد الموسوية والمسيحية

وليس هذا بصحيح كما يبــدو من مراجعة يســيرة لاحــكام الــزواج فى الشرائع القديمة ، وفى شرائع أهل الكتاب . فلا حجر على تعدد الزوجات فى شريعة قديمة سبقت قبل التوراة والانجيل . ولا حجــر على تعــدد الزوجات فى التوراة او فى الانجيل ، بل هو مباح مأثور عن ألانبياء أنفسهم من عهد ابراهيم الخليل الى عهد الميلاد، ولم يرد فى الاناجيل نص واحــد يحرم ما أباحه العهــد القديم للآباء والانبياء ولمن دونهم من الخاصة والعامة ، وما ورد فى الاناجيل يشير الى الاباحة فى جميع الحالات والاستثناء فى حالة واحــدة . وهى حالة الاسقف حين لا يطيق الرهبانية فيقنع بزوجة واحــدة اكتفــاء بأهون الشرور . وقد استحسن القديس أوغسطين أن يتخــذ الزجل سرية مع زوجته اذا عقمت هذه وثبت عليهــــا العقم ، وحرم مثل ذلك على الزوجة اذا ثبت عقم زوجها لان الاسرة لا يكون لها سيدان (١) واعترفت الكنيســة

(١) كتاب الزواج الامثل Bono Conjugali

بأبناء شرعيين للعاهل شرلمان من عدة زوجات ، وقال وستر مارك Westermark العالم الثقة فى تاريخ الزواج أن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقى الى القرن السابع عشر وكان يتكرر كثيرا فى الحالات التى لاتحصيها الكنيسة والدولة ، وعرض جروتيوس Grotius العالم القانونى المشهور لهذا الموضوع فى بحث من بحوثه الفقهية فاستصوب شريعة الآباء العبرانيين والانبياء فى العهد القديم

فالاسلام لم يأت ببدعة فيما أباح من تعدد الزوجات ، وانما الجديد الذى أتى به انه أصلح ما أفسدته الفوضى من هذه الاباحة المطلقة من كل قيد ، وأنه حسب حساب الضرورات التى لا يغفل عنها الشارع الحكيم ، فلم يحرم أمرا قد تدعو اليه الضرورة الحازبة ويجوز أن تكون اباحته خيرا من تحريمه فى بعض ظروف الاسرة او بعض الظروف الاجتماعية العامة

أما أن هذه الظروف قد تضطر أناسا الى الزواج بأكثر من واحدة فالامر فيها موكول الى الذين يعانون تلك الضرورات من الرجال والنساء ، ومن تلك الضرورات أن يحتفظ الرجل بزوجته عقيما أو مريضة لا يريد فراقها ولا تريد فراقه ، ومنها أن يتكاثر عدد النساء فى أوقات الحروب والفتن مع ما يشاهد من زيادة عدد النساء على عدد الرجال فى كثير من الاوقات ، فاذا رضيت المرأة فى هذه الاحوال أن تتزوج من ذى حليلة فذلك أكرم لها من الرضا بعلاقة الخليلة التى لا حقوق لها على زوجها وأكرم لها كثيرا من الرضا بابتذال الفاقة أو بذل النفس فى سوق الرذيلة

ومن حسنات التشريع فى جميع هذه الضرورات أنه يحسب حسابها ولا ينسى الحيطة لاتقاء ما يتقى من

أضرارها ومن سوء التصرف فيها .. وكذلك صنع الاسلام بعد اباحة تعدد الزوجات للضرورة القصوى ، فانه اشترط فيه العدل ونبه الرجال الى صعوبة العدل بين النساء مع الحرص عليه :

(فإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تَعْدِلُوا فوَاحِدَةً) (سورة النساء)

(وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)

(سورة النساء)

واشترط على الازواج القدرة على تكاليف الحياة الزوجية والتسوية فى السكن والرزق بينهم وبين الزوجات ...

(... أسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ)

(سورة الطلاق)

(... وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بالمعْرُوفِ)

(سورة البقرة)

ولا يسقط عن الزوج واجب الاحسان فى المعاملة سواء اتصلت بينه وبين حليلته آصرة الزواج أو انتهت بينهما هذه الآصرة الى الفراق بغير رجعة :

(الطَّلاَقُ مَرَّتَان فإمْسَاكٌ بمعْرُوفٍ أوْ تَسْرِيحٌ بإحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيئاً إلاَّ أنْ يَخَافَا ألاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ)

(سورة البقرة)

بل لا يسقط عنه هذا الواجب حتى فى حالة الطلاق بعد زواج لم تنعقد فيه الصلة بين الزوجين :

(يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً)

(سورة الاحزاب)

وهناك حيطة تعدل سلطان التشريع كله فى أمر تعدد الزوجات ، لانها تكل القول الفصل فيه الى اختيار المرأة فان شاءت قبلته وان لم تشأ رفضته فلا يجوز اكراهها عليه ولا يصح الزواج اذا بنى على الاكراه

وفى الحديث الشريف :

« لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن »

وفيه : « ان الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر واذنها سكوتها »

وقد أبطل النبى عليه السلام زواجاً اكرهت فيه فتاة بكر على الزواج بأمر أبيها لمصلحة له فى زواجها بابن اخيه ، وحدثت عائشة رضى الله عنها فيما رواه النسائى : « أن فتاة دخلت عليها فقالت : ان أبى زوجنى من ابن اخيه يرفع لى خسيسته وانا كارهة ، فقالت : أجلسى حتى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأرسل الى أبيها فدعاه فجعل الامر اليها فقالت : يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت ان اعلم النساء ان ليس للاباء من الامر شيء »

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فيما رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجة « ان جارية بكرا أتت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة فخيرها رسول الله ... »

وعلماء الفقه متفقون على أن للمرأة الرشيدة أن تلى جميع العقود بنفسها وأن توكل فيها من تشاء ولا يعترض عليها ، وأنها أحق من وليها بالامر فى عقود الزواج اذا خالفها ولم يستأمرها

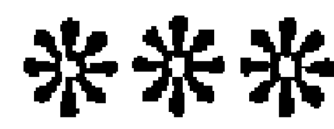
ولا حرج على المرأة فى تشريع تعدد الزوجات متى كان الرأى فيه موكولا الى مشيئتها تأبى منه ما تأباه وتقبل منه ما لا ترى فيه غضاضة عليها أو ترى أنه ضرورة أخف لديها من ضرورات تأباها ..

ثم يأتى العرف الاجتماعى فيتولى تنظيم التشريع فوق هذه الولاية الموكولة الى الزوجات ، وان العرف الاجتماعى ليقدر فى هذه الشئون على تنظيم أقوى من كل سلطان ، ومن أمثلة التنظيم الذى يتولاه العرف كما قلنا فى غير هذا الكتاب : « انه يحد من رغبات الطبقة الغنية فى هذه المسألة كما يحد من رغبات الطبقة الفقيرة فيها على اختلاف أنواع الحدود . فالطبقة الغنية أقدر على الانفاق وأقدر من ثم على تعدد الزوجات ، ولكن الرجل الغنى يأبى لبنته أن تعيش مع ضرة أو ضرائر متعددات ، والمرأة الغنية تطلب لنفسها ولابنائها نفقات ترتفع مع ارتفاع درجة الغنى حتى يشعر الاغنياء أنفسهم بثقلها اذا تعددت بين زوجات كثيرات . فلا ينطلق الغنى فى رغباته على حسب غناه ، بل يقيم له العرف حدودا وموانع من عنده تكف من رغباته لتثوب به الى الاعتدال ولهذا نرى فى الواقع أن الطبقات الغنية تكتفى بزوجة واحدة فى معظم الاحيان . وربما كان للاختيار نصيب

من ذلك كنصيب الاضطرار . لان الاغنياء يستوفون حظوظهم من العلم والثقافة فيدركون بلطف الذوق مزايا العطف المتبادل بين زوجين متكافئين فى الكرامة والشعور

« والطبقة الفقيرة لا ترفض المرأة فيها ما ترفضه المرأة الغنية من معيشة الضرائر ، ولكن العجز عن الانفاق يمنعها أن تنطلق مع الرغبة كما تشاء ، فلا تستبيح تعديد الزوجات بغير حدود . وهكذا تقوم الشريعة فى تعدد الزوجات بما عليها ويقوم العرف الاجتماعى بما عليه ، ويقع الالزام حيث ينبغى أن يقع مع الرغبة والاختيار (١) »

ومما يعمله العرف الاجتماعي فى أحوال الضرورة أن يكون الزوج غنيا وأن تكون المرأة المرغوب فيها من الطبقة الفقيرة ، ففى هذه الحالة ترغب المرأة المخطوبة فى قبول تعدد الزوجات باختيارها أو تضطر اليه تطلعا منها الى معيشة أحب من معيشتها ، فلا تزال الضرورة فى هذه الحالة أكرم لها من ضرورة تغريها بالتفريط فى العرض طمعا فى المال



على أن العرف الاجتماعى — مع سلطانه الغالب — قد يستفيد من روح الدين وحكمة التشريع فوق ما يستفيده من نصوصه فى أوامره ونواهيه . وروح الدين الاسلامى التى سرت الى العرف فى المجتمعات الاسلامية أن الزواج رحم ومودة وسكن

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم)

---

(١) كتاب الفلسفة القرآنية للمؤلف

فلا زواج بغير مودة ورحمة ، ولا حكمة للزواج ان لم يكن ملاذاً يأوى منه الزوجان معا الى سكن يلقيان عنده أعباء الصراع العنيف فى الحياة الخارجة الى حين . وخير الزواج ما استطاع أن يدبر للانسان كهفا أمينا يثوب اليه كلما ألجأته المتاعب والشواغل الى ظلاله . وانه ليعيش من الدنيا فى جحيم موصول العذاب ان لم يكن له فيها ذلك الكهف الامين وذلك الملجأ الحصين .. فان عز عليه أن يجده كما أراده فليس ذلك بحجة على أن حياة الجحيم هى الحياة المثلى وان كهوف الامان ليست بالمطلب الجدير بالطلب والصيان

ومن قديم الزمن هيأت الامومة طبيعة المرأة لتدبير ذلك السكن وتزويده بزاد المودة والرحمة . ومن أراد أن يتكلم بلغة « الاستغلال » والانتفاع بالفرص فله أن يقول ان النوع الانسانى خليق أن يستغل الفوارق بين طبيعتى الجنسين لينتفع بكل منهما غاية ماينتفعه فى موضعه وبحاله . وليكن ذلك من قبيل تقسيم العمل وتخصيص كل طبيعة لما يناسبها ولا يكن خصومة على دعاوى المساواة أو الرجحان . فما خلق الجنسان ليكون كل منهما مساويا لصاحبه فى طراز واحد من المزايا والملكات ، وانما خلقت لكل منهما مزاياه وملكاته ليكمل بها صاحبه ويزيد بها ثروة النوع كله من خصائص النفس وألوان الفهم والشعور

وعلى هذه السنة الطبيعية الاجتماعية ، من تقسيم العمل واتقان كل عامل لضرب من ضروبه يتعاون الزوجان كل فيما هو أصلح له من مطالب الحياة : على الرجل شطر الكفاح فى سبيل الرزق وكفاية أهله مئونة الكدح فى مضطرب الزحام والصراع ، وعلى المرأة شطر السكن الامين وكلاءة الجيل المقبل فى نشأته الاولى ، وليس

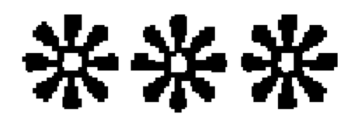
بالشطر الزهيد حضانة الغد واعداد مستقبل الانسانية مرحلة بعد مرحلة على الدوام

***

وتحتوى الشريعة الاسلامية تفصيلا مسهبا عن حقوق كل من الزوجين قبل الآخر وقبل الاسرة في مجموعها ، وكلها تتجه الى هذه الغاية المقصودة من اقامة الاسرة على المودة والرحمة ، ولا ينحرف عنها حق من الحقوق عن هذه الغاية بلا استثناء حق التأديب لرب الاسرة . فان حق التأديب لاينفي المودة والرحمة ولم ينفهما فيما هو أمس بالمودة والرحمة وهو تربية البنين وتربية المتعلمين ، وتخويل رب الاسرة حق التأديب بدل من احوال كثيرة كلها غير صالح وكلها غير معقول في شئون القوامة البيتية، فاما أن يكون لرب الاسرة هذا الحق فى معظم الشئون البيتية واما أن يستغنى عن التأديب فى الاسرة أو يوكل التأديب فيها الى دور الشرطة والقضاء فى كل كبيرة وصغيرة تعرض للزوجين على الرضا والغضب والجهر والنجوى . هذا أو يكون التأديب المسموح به أن ينصرم حبل الزواج وأن ينهدم بناء البيوت على من فيها من الآباء والامهات والبنين

ولا يخفى أن عقوبات التأديب انما توضع للمسيئات والمسيئين ولا توضع لمن هم غنيون عن التأديب متورعون عن الاساءة ، وليس من أدب التشريع أن تسقط الشرائع حساب كل نقيصة تسترذلها وتأنف منها ، فما دامت النقيصة من النقائص التى تعرض للانسان ولو فى حالة من ألوف الحالات فخلو التشريع منها قصور يعاب على الشريعة ولا يمتنع به الضرر الواقع من تلك النقيصة . ولو حذف من القوانين كل عيب تأنف من ذكره لما بقيت فى تلك القوانين بقية تستلزمها الضرورة الموجبة لبقائها .

اذ كانت العيوب التى لا تأنف الاسماع منها أهون الاضرار الاجتماعية وأغناها عن التشريع والعقاب



والادب العام — بعد — شيء غير عقوبات التأديب فى القانون . فالحياء يأبى للرجل الكريم أن يضرب امرأته وأن يعاملها بما يغض من كرامتها . ومما أنكره النبى عليه السلام غير مرة أن يضرب الرجل امرأته وهو يأنس اليها فى داره : « أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العير » ؟

الا أن الخلائق المستحسنة — خلائق الكرامة والحياء — ليست هى الخلائق التى توجب الحساب والعقاب وليست هى الخلائق التى يقف عندها التشريع وتبطل بعدها فرائض الزجر والمؤاخذة . فاذا وضعت العقوبات فى مواضعها فلا مناص من أن يحسب فيها الحساب للحميد والذميم من الاخلاق والعيوب ، بل لا مناص لحسبان الحساب للذميم خاصة لان الضرورة هنا ضرورة النهى والردع وليست ضرورة الثواب والتشجيع . وبين الوعظ والهجر والعقوبة البدنية تتفاوت العقوبات الزوجية فى الاسلام ثم يكون التحكيم أو الفراق :

(وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً . وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحاً

يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا انَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً) ..

(سورة النساء)

وانه لمن السخف الرخيص أن يقال ان جنس النساء قد بريء من المراة التى يصلحها الضرب ولا يصلحها غيره ، ونقول انه سخف رخيص وخيم لانه ذلك السخف الذى يضر كثيرا ولا يفيد أحدا الا الذى يشترى سمعة الكياسة فى سوق الحذلقة « التقليدية » ويسميه الفربيون بينهم باسمه الذى هو به حقيق : وهو اسم الدعى المتحذلق Snols ولقد وجد هؤلاء فى أمم لم تستكثر عقوبة الجلد على كرامة الرجولة وكرامة الجندية ، وغبرت مئات السنين وهى تعلن القوانين التى توجب العقوبة البدنية لمن يخالفون الاوامر او النظم العسكرية ، وان لهم مع ذلك لندحة من العقوبات المستطاعة فى المعاهد العامة كالحبس والتأخير وتنزيل الرتبة وقطع الاجور والحرمان من أنواط الشرف والفصل من الخدمة . فلولا أنها حذلقة خاوية لا تفيد أحدا ولا تدل على كياسة صادقة لما جاز فى عرف هؤلاء الادعياء أن تسرى عقوبة الجلد فى مؤاخذة الجنود وأن تمتنع بعد اخفاق الحيل جميعا فى عقوبة النشوز

ولم تترك هذه العقوبة على كراهتها بغير حدها المعقول الذى تمليه كل مشكلة بحسبها من الخلق المعهود فى آداب الزوجين ، وانما حدها الصالح أن تكون أصلح من الفراق وهدم بناء الاسرة فى تقدير الرجل والمراة . فان لم تكن كذلك فهى المضارة التى توجب التحكيم بين الاسرتين ، أو توجب الطلاق بحكم الشريعة مرجعها الاخير الذى ينبغى أن يؤخر الى أقصاه بعد انقطاع الحيلة وذهاب الرجاء فى الوفاق ..

(وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) .

(سورة البقرة)

ويحق للمرأة عند نشوز زوجها واعراضها أن تلجأ الى حكم غير حكمه ترضاه قبل شكواها من أذى المضارة التى توجب الطلاق ..

(وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)

(سورة النساء)

***

فاذا جاز لباحث يتوخى الصدق أن يعقب على تشريع الأسلام فمن واجبه أن يحمد لهذا التشريع أنه قدر للواقع حسابه وأحاط كل تقدير بما يستدعيه من الحيطة والضمان الميسور فى أمثال هذه العلاقات ، وان نظرة الشريعة الاسلامية الى حقوق المرأة من مبدئها قد كانت نظرة تصحيح لما سلف من الشرائع ، واتمام لما نقص فيها ..

فلم يكن للزواج حدود فى الشرائع الوضعية ولا فى الشرائع الدينية قبل الاسلام ، ولا كان فيها ما يعتبر شريعة واقية مقدرة لاحواله وضروراته عند المقارنة بينها وبين الشريعة الاسلامية

كانت المرأة كالرقيق فى قوانين الدولة التى كانت تسمى أم القوانين وهى الدولة الرومانية

وكانت حطاما يحرق بقيد الحياة على ضريح زوجهـا فى الديانة البرهمية ..

وكانت ديانة العهد القديم تبيح لمن يشاء أن يتزوج ما يشاء بلا قيد ولا ضمان ، وبهذه الاباحة وردت فيه أخبار ابراهيم ويعقوب وموسى وداود وسليمان

ثم جاءت المسيحية فلم تنقض حكما من أحكام الناموس فى أمر الزواج . وسئل بولس الرسول عن شرط الاسقف فكتب فى رسالته الاولى الى تيموثاوس انه ينبغى أن يكون « بلا لوم بعل امرأة واحدة » وهو تخصيص لا موجب له لو كان هذا هو الحكم العام المرعى بين جميع المؤمنين بالدين

***

وظل آباء الكنيسة فى الغرب يبيحون تعدد الزوجات ويعترفون بأبناء الملوك الشرعيين من أزواج متعددات ، فلما منعته بعد القرن السابع عشر على أثر الخلاف بينها وبين الملوك الخارجين عليها كانت حجة منعه أن الاكتفاء بالواحدة أخف الشرور لمن لا يقدر على الرهبانية ، ولم يكن منعه اكبارا لشأن المرأة يوم كان الخلاف بينهم على أنها ذات روح أو أنها جسد بغير روح ... ولم يكن بينهم خلاف يومئذ على أنها حبالة الشيطان ، أبعد ما يكون الانسان عنها أسلم مايكون .

وبينما أمم الحضارة فى اجماعها هذا على تلك النظرة الزرية الى المرأة كانت أمة الصحراء تقضى فيها قضاء لا خيار بينه وبين ماعداه : كانت تتشاءم بمولدها ولا تبالى أن تعاجلها بالدفن فى مهدها ، مخافة العار أو مخافة الاملاق

ومن تلك الزاوية النائية عن العالم تقبل عليه دعوة سماوية تنصفها من ظلم وترفعها من ضعة وتبسط لها

كنف المودة والرحمة وتنتزع لها من القلوب عدلا أعيى على الرؤوس ، وتقيد من مباح الزواج ما لم يقيده عرف ولا قانون ، وتجعل لها الخيار بين ما ترضاه منه وما تأباه، وتستجد لها حياة يستحى المنصف والمكابر أن يجحدا فضلها العميم على ماكانت عليه

وأما بعد هذا فماذا جاءت به القرون بعد القرون من زيادة لها على نصيبها من عدل الاسلام ؟ ..

خير مالها فى الاسلام لم يدركه خير مالها فى العصر الحديث ، وشر مايصيبها من الاسلام رحمة ونعمة بالقياس الى الشر الذى يسلمها العصر الحديث اليه ..



ولاتزال فضائل العصر الحديث فى حاضرها ومآلها دعوى لم يؤيدها ثبوت من حوادث الواقع ولا من مبادىء النظر ..

فأما حوادث الواقع فشكوى المرأة منها فى بيتها وفى دنياها كأسوأ ماكانت فى عهد من العهود ..

وأما مبادىء النظر فلا خير للمرأة أن تكون على مبدأ القرون الوسطى شيطانا يسلم الانسان ماسلم منه ، ولا خير لها أن تكون على مبدأ الفروسية الكاذبة ملكا فى مباذل السوقة ، ولا هى فى خير مع الناس حتى يقنعوا لها الطبيعة ــ ان استطاعوا ــ ويقنعوا أنفسهم قبلها أن المرأة والرجل ندان متساويان متعادلان ..

زواج النبىّ

يندر أن يطرق خصوم الاسلام موضوع الزواج دون ان يعرجوا منه الى زواج النبى ويتذرعوا به الى القدح فى شخصه الكريم والتشكيك من ثم فى دعوته المباركة ودينه القويم ..

وللاسلام خصوم محترفون وخصوم ينكرونه على قدر جهلهم به وبسيرة نبيه عليه السلام

ولا خفاء بخصومه المحترفين .. فهم جماعة المبشرين الذين اتخذوا القدح فى الاسلام صناعة يتفرغون لها ويعيشون منها ، وصناعتهم هذه لا تصطنع عملا لها اهم واخطر من عملها فى تبشير المسلمين او الوثنيين واشباه الوثنيين لكيلا يتحولوا من الوثنية الى الاسلام . فلا غنى لاصحاب هذه الخصومة ــ او هذه الحرفة ــ من اختلاق المآخذ وتصيد التهم التى تجرى بها أرزاقهم وتتصل بها أعمالهم ، سواء عرفوا الحقيقة من وراء هذه المآخذ وهذه التهم أو جهلوها وأعرضوا عن البحث فيها ، لانهم يريدون الاتهام ولا يستريحون الى معرفة تهدم كل ما عملوه وتصرفهم عن كل ما ألفوه وعقدوا النية عليه

أما خصوم الاسلام من غير زمرة المبشرين فأكثرهم يخاصمونه على السماع ، ولا يعنيهم ان يبحثوه ولا أن

يبحثوا دينا من الاديان حتى الدين الذى آمنوا وشبوا من حجور أمهاتهم عليه • وقليل من اولئك الخصوم غير المحترفين من يتلفق الدراسات الاسلامية تلفقا لايفيد الدارس ولا يبتغى منه الا ان يعلم ما تعلمه لطائفة من التلاميذ يكفيهم منه أن يعرف من أخبار الاسلام مالم يعرفوه • وبعض هؤلاء الدارسين المدرسين حسن النية لا يأبى أن يعترف بالحقيقة اذا استمع اليها ، وبعضهم سيء النية لانه مسخر فى خدمة الاستعمار وما اليها من الدعايات الدولية ، فلا يعنيه من المعرفة الا ما يملى له فى عمله ويمهد لدعايته ..

وما اتفق خصوم الاسلام عن سوء نية على شيء كما اتفقوا على خطة التبشير فى موضوع الزواج على الخصوص فكلهم يحسب أن المقتل الذى يصاب منه الاسلام فى هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبى عليه السلام ، وتمثيله لاتباعه فى صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق فى طلب الاصلاح ، وأى صورة تغنيهم فى هذا الغرض الاثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد العازف فى معيشته البيتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح

انهم لعلى صواب فى الخطة التى تخيروها لاصابة الاسلام فى مقتله من هذا الطريق الوجيز ..

وانهم لعلى أشد الخطأ فى اختيارهم هذه الخطة بعينها ، اذ أن جلاء الحقيقة فى هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه ، فاذا بمقتلهم المظنون حجة يكتفى بها المسلم ولا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه من قالة السوء الذى يفترى عليه

فلا حجة للمسلم على صدق محمد عليه السلام فى

رسالته أصدق من سيرته في زواجه وفي اختيار زوجاته، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها في معيشة نبي الاسلام من مطلع حياته الى يوم وفاته

ما الذي يفعله الرجل الشهوان الغارق في لذات الجسد اذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد بين قومه ؟

لم يكن عسيرا عليه أن يجمع اليه أجمل بنات العرب وأفتن جواري الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية

ولم يكن عسيرا عليه أن يوفر لنفسه ولاهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه

فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟ ..

هل فعل محمد ذلك في مطلع حياته ؟ ..

كلا : لم يفعله قط بل فعل نقيضه وكاد أن يفقد زوجاته لشكايتهن من شظف العيش في داره ..

ولم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لانها مليحة أو وسيمة ، ولم يبن بعذراء قط الا العذراء التي علم قومه جميعا أنه اختارها لانها بنت صديقه وصفيه وخليفته من بعده : أبي بكر الصديق رضي الله عنه

هذا الرجل الذي يفتري عليه الاثمة الكاذبون أنه الشهوان الغارق في لذات حسه ـ قد كانت زوجته الاولى تقارب الخمسين وكان هو في عنفوان الشباب لا يجاوز الخامسة والعشرين وقد اختارته زوجا لها لانه الصادق الامين فيما اشتهر به بين قومه من صفة وسيرة ، وفيما لقبه به عارفوه وعارفو الصدق والامانة فيه ، وعاش معها الى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ، ثم وفى لها بعد موتها فلم يفكر في الزواج حتى عرضته عليه سيدة مسلمة رقت له في عزلته فخطبت له السيدة عائشة

باذنه ، ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها

وما بنى — عليه السلام — بواحدة من أمهات المؤمنين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة وانما كانت صلة الرحم والضن بهن على المهانة هى الباعث الاكبر فى نفسه الشريفة على التفكير فى الزواج بهن • ومعظمهن كن أرامل مأيمات فقدن الازواج أو الاولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الاكفاء لهن ان لم يفكر فيهن رسول الله

فالسيدة سودة بنت زمعة مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة الى الحبشة ولا مأوى لها بعد موته الا أن تعود الى أهلها فيكرهوها على الردة أو تتزوج بغير كفؤ لها أو بكفؤ لا يريدها

والسيدة هند بنت أبى أمية — أم سلمة — مات زوجها عبد الله المخزومى ، وكان أيضا ابن عمها ، أصابه جرح فى غزوة أحد فقضى عليه ، وكانت كهلة مسنة فاعتذرت الى الرسول عليه السلام بسنها لتعفيه من خطبتها ،فواساها قائلا : سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك وأن يخلفك خيرا ، فقالت : ومن يكون خيرا لى من أبى سلمة ؟ وكان الرسول عليه السلام يعلم أن أبا بكر وعمر قد خطباها فاعتذرت بمثل ما اعتذرت به اليه ، فطيب خاطرها وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها

والسيدة رملة بنت أبى سفيان تركت أباها وهاجرت مع زوجها الى الحبشة فتنصر زوجها وفارقها فى غربتها بغير عائل يكفلها ، فأرسل النبى عليه السلام الى النجاشى يطلبها من هذه الغربة المهلكة وينقذها من أهلها اذا عادت اليهم راغمة من هجرتها فى سبيل دينها ، ولعل فى الزواج بها سببا يصل بينه وبين أبى سفيان بوشيجة النسب فتميل

به من جفاء العداوة الى مودة تخرجه من ظلمات الشرك الى هداية الاسلام

والسيدة حورية بنت الحارث سيد قومه كانت بين السبايا في غزوة بني المصطلق فأكرمها النبي عليه السلام أن تذل ذلة السباء فتزوجها وأعتقها وحض المسلمين على اعتاق سباياهم فأسلموا جميعا وحسن اسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة اليه والبقاء عند رسول الله فاختارت البقاء في حرم رسول الله

والسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت وعرضها على عثمان فسكت . وبث عمر أسفه للنبى فلم يشأ أن يضن على صديقه ووليه بالمصاهرة التى شرف بها أبا بكر قبله ، وقال له : يتزوج حفصة من هو خير لها من أبى بكر وعثمان

والسيدة صفية الاسرائيلية بنت سيد بنى قريظة خيرها النبى بين أن يردها الى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت البقاء عنده على العودة الى ذويها ، ولولا الخلق الرفيع الذى جبلت عليه نفسه الشريفة لما علمنا أن السيدة صفية قصيرة يعيبها صواحبها بالقصر ، ولكنه سمع احدى صواحبها تعيبها بقصرها فقال لها ما معناه من روايات لا تخرج عن هـذا المعنى : انك قد نطقت بكلمة لو ألقيت فى البحر لكدرته ، وجبر خاطر الاسيرة الغريبة أن تسمع فى بيته ما يكدرها ويغض منها

والسيدة زينب بنت جحش ــ ابنة عمته ــ زوجها من مولاه ومتبناه زيد بن حارثة ، فنفرت منه وعز على زيد أن يروضها على طاعته ، فأذن له النبى فى طلاقها ، فتزوجها عليه السلام لانه هو المسئول عن زواجها ، وما كان جمالها خفيا عليه قبل تزويجها بمولاه . لانها كانت بنت عمته

يراها من طفولتها ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها

والسيدة زينب بنت خزيمة مات زوجها عبد الله بن جحش قتيلا فى غزوة أحد ، ولم يكن بين المسلمين القلائل فى صحبته من تقدم لخطبتها ، فتكفل بها عليه السلام ، اذ لا كفيل لها من قومها

وهذا هو الحريم المشهور فى أباطيل المبشرين وأشباه المبشرين ، وهذه هى بواعث النفس التى استعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها ، فلم يفهموا منها الا أنها بواعث انسان غارق فى لذات الحس ، شهوان !

ولقد أقام هؤلاء الزوجات فى بيت لا يجدن فيه من الرغد ما يجده الزوجات فى بيوت الكثيرين من الرجال مسلمين كانوا أو مشركين • وعلى هذا الشرف الذى لا يدانيه عند المرأة المسلمة شرف الملكات أو الاميرات ، شقت عليهن شدة العيش فى بيت لا يصبن فيه من الطعام والزينة فوق الكفاف والقناعة بأيسر اليسير ، فاتفقن على مفاتحته فى الامر واجتمعن يسألنه المزيد من النفقة وهى موفورة لديه لو شاء أن يزيد فى حصته من الفيء ، فلا يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه • الا أن الرجل المحكم فى الانفس والاموال سيد الجزيرة العربية ـ لم يستطع أن يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة ، فأمهلهن شهرا وخيرهن بعده أن يفارقنه ولهن منه حق المرأة المفارقة من المتاع الحسن ، أو يقبلن ما قبله لنفسه معهن من ذلك العيش الكفاف ••

ولو أن هذا الخبر من أخبار بيت النبى كان من حوادث السيرة المحمدية التى تخفى على غير المطلعين المتوسعين فى الاطلاع لقد كان للمبطلين بعض العذر فيما يفترونه على نبى الاسلام من كذب وبهتان • الا أنه خبر يعلمه كل من

اطلع على القرآن ووقف على أسباب التنزيل ، وليس بينها ما هو أشهر فى كتب التفسير من أسباب نزول هذه الايات فى سورة الاحزاب :

(يَا أَيُّهَا النبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ان كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً . وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً)

(سورة الاحزاب)

***

وأقل المبشرين المحترفين ولعا بالتفتيش عن خفـــايا السيرة النبوية خليق أن يطلع على تفاصيل هذا الحادث بحذافيره . لانه ورد فى القرآن الكريم خاصا بالمسألة التى يتكالب المبشرون المحترفون على استقصاء أخبارها واحصاء شواردها ، وهى مسألة الزواج وتعدد الزوجات

وقد كان لهذا الحادث الفريد فى سيرة النبى صدى لم يبلغه حادث من الحوادث التى عنيت بها العشيرةالاسلامية حين كانت فى بيئتها المحدودة تحيط بايمانهـــا احاطة الاسرة بأبيها

حدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « كنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابى ضربا شديدا وقال : أثم هو ؟ ففزعت فخرجت اليه ، وقال : حدث أمر عظيم ! قلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول .. طلق النبى صلى الله عليه وسلم نساءه .. »

ولما تألب ربات البيت يشكون ويلحفن فى طلب المزيد من النفقة لبث النبى فى داره مهموما بأمره ، وأقبـــــل أبو بكر فوجد الناس جلوسا لا يؤذن لاحد منهم • فدخل الدار ولحق به عمر بن الخطاب فوجد النبى واجما وحوله نساؤه ، فأحب أبو بكر أن يسرى عنه بكلمة يقولها •• وكأنه فطن لسر هذا الوجوم من النبى بين نسائه المجتمعات حوله • فقال : « يا رسول الله ! لو رأيت بنت خارجة •• سألتنى النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها • ! فضحك النبى وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة • فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ، ويقولان : تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ فقلن : والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده •• »

وهجر النبى نساءه شهرا ، يمهلهن أن يخترن بعدالروية بين البقاء على ما تيسر له ولهن من الرزق وبين الانصراف بمتعة الطلاق • وبدأ بالسيدة عائشة فقال : انى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك فسألته : وما هو يا رسول الله ؟ فعرض عليها الخيرة مع سائر نسائه فى أمرهن • فقالت : أفيك يا رسول الله أستشير قومى ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة • وأجاب أمهات المسلمين بما أجابت به السيدة عائشة ، وانتهت هذه الازمة المكربة بسلام ، وما استطاع صاحب الدار ــ وهو يومئذ أقدر رجل فى العالم المعمور ــ أن يحل أزمة داره بغير احدى اثنتين : أن يجمع النية على فراق نسائه أو يقنعن معه بما لديهن من رزق كفاف ••

أعن مثل هذا الرجل يقال انه حلس شهوات وأسير لذات ؟ ••

أعن مثله يقال انه ابتغى من رسالته مأربا يبغيه الدعاة

غير الهداية والاصلاح ؟ ..

فيم كان هذا الشقاء بأهوال الرسالة وأوجالها من ميعة الشباب الى سن لا متعة فيها لمن صاحبه التوفيق والظفر أو لمن صاحبته الخيبة والهزيمة ؟ ..

ومن أراد الدعوة لغير الهداية والاصلاح فلماذا يريدها ، وما الذى يغنمه من ورائها ؟ ..

أتراه يريدها مخاطرا بأمته وحياته مستخفا بالهجرة من وطنه والعزلة بين أهله ، ليسوم نفسه بعد ذلك عيشة لا يقنع بها أقرب الناس منه وأعلاهم شرفا بالانتماء اليه ؟

أمن أجل الحس ولذاته يتزوج الرجل بمن تزوج بهن وهو سيد الجزيرة العربية وأقدر رجالها على اصطفاء النساء الحسان من الحرائر والاماء ؟ ..

وهل يتزوج بهن الشهوان الغارق فى لذات الحس ليقتدين به فى اجتواء الترف والزينة وخلوص الضمير للايمان بالله وابتغاء الدار الآخرة ؟

وما مأربه من كل ذلك ان كان له مأرب فى طويته غير مأربه فى العلانية ؟ وعلام يجاهد نفسه ذلك الجهاد فى بيته وبين قومه ان لم تكن له رسالة يؤمن بها ولم تكن هذه الرسالة أحب اليه من النعمة والامان ؟

ان المبشرين المحترفين لم يكشفوا من مسألة الزواج فى السيرة النبوية مقتلا يصيب محمدا أو يصيب دعوته من ورائه ، ولكنهم كشفوا منها حجة لا حجة مثلها فى الدلالة على صدق دعوته وايمانه برسالته واخلاصه لها فى سره كاخلاصه لها فى علانيته ، ولولا أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لاجتهدوا فى السكوت عن مسألة الزواج خاصة أشد من اجتهادهم فى التشهير بها واللغط فيها ..

وعلم الله ما كانت براءة محمد من فريتهم مرتهنة بجلاء

الحقيقة فى مسألة الزواج والزوجات • فان أحدا يفقه ما يفوه به لا يسيغ أن يقول أن عملا كالذى قام به محمد يضلطع به رجل غارق فى لذات الحس مشغول بشهوات الجسد • ولئن كان كذلك ثم استطاع أن يتم دعوته فى حياته وأن يبقيها تامة قوية لخلفائه ليكونن اذن آية الآيات على تكوين من الخلق لا يدانيه تكوين ••

ولسنا نعتقد أن دينا رفيعا يسوِل للمتدين به أن يفترى الاباطيل على خلق الله ، وأقبح من ذلك فى شرع الدين الرفيع أن يكون الافتراء على الناس سبيلا الى التبشير بكلمات الله ، ولكن المبشرين المحترفين لا يدينون بالله ولا بالناس ، وانما يدينون بعبادة الجسد الذى ينكرونه ذلك الانكار ويؤمنون به في أعمالهم وأقوالهم أخس الإيمان

الطبقة

الطبقة فى المجتمع هى الفئة التى تتشابه به فى درجة العمل ونمط المعيشة ومأثور الخلق والعـــادة ، وهى — بعد الامة والاسرة — أكثر الوحدات الاجتماعية ذكرا وأكبرها خطرا فى العصر الحاضر

والناس مصطلحون على تقسيم الطبقـــات الى ثلاث : غنية وفقيرة وميسورة ، أو عليا ودنيا ووسطى ، ولعـله تقسيم مستعار من مرتفعات المكان التى يمكن أن تنقسم الى فوقية وتحتية ومستوية ، أو من الرسوم الجغرافية التى يمكن أن تنقسم الى شرقية وغربية ومتوسطة ، أو من تنظيمات الجيوش التى يمكن أن تنقسم الى طليعة وساقة وقلب . أما تقسيم المجتمع الى ثلاث طبقات من حيث درجات العمل وانماط المعيشة ومأثورات الخلق والعادة فهو تقسيم على وجه التشبيه والتقريب ، كأنه تقسيم الناس الى ثلاثة الوان بين البياض والســواد ، أو تقسيمهم الى ثلاثة أشكال من ملامح الوجوه . وكلها تقسيمات تقبل على وجه التشبيه والتقريب لا على وجه الدقة والتحقيق

فلا نهاية للفوارق بين الناس فى الطائفة الواحــدة ولا فى العمل الواحد ، ولا يوجد فاصل واحد تنحصر فيه

أسباب التفرقة بين طائفة وطائفة أو بين واحد وواحد من أبناء الطائفة .. لان المرجع في أسباب هذه التفرقة لا يقف بنا فى النهاية دون الظاهرة الكونية التى لا يشذ عنها كائن واحد بين السموات والارضين ، فليس فى أجرام السموات الواسعة جرمان يتساويان فى الحجم أو فى الحركة أو فى الضوء أو فى المسافة ، وليس على فرع واحد من شجرة ورقتان تتساويان فى السعة أو فى اللون أو فى الموضع أو فى مادة العصارة النباتية ، وليست هنالك ورقة واحدة تتساوى فى وقتين من أوقات النهار والليل ..

واذا بلغ من عمق هذه الظاهرة الكونية واتساعها أن تتمثل فى المادة الجامدة فى تركيبها المحدود فأحرى بالجماعة الانسانية التى لا تنحصر تراكيبها الحسية والمعنوية ألا تضيق فيها عوامل هذه الظاهرة حتى تنحصر برمتها فى سبب من أسباب الاخلاق أو سبب من أسباب الفكر أو أسباب الاقتصاد أو أسباب العوارض الطبيعية . فان هذه العوامل المتشابكة فى كل جماعة انسانية تتساند وتتناظر وتعمل عمل الاضداد كما تعمل عمل الاشباه فى كل معرض من معارض الحياة . ونحسب أنه لو جاز أن يكون بينها عامل أضعف من سائر العوامل لكان أضعفها جميعا عامل الاقتصاد الذى زعم جماعة الماديين التاريخيين أنه هو عاملها الوحيد أو عاملها الذى لا يقوى على مناهضته عامل سواه ..

فى بلاد الطبقات ــ بلاد الهند ــ لم تكن السيادة العليا لطبقة التجار وذوى الاموال والمرافق الصناعية والزراعية ، بل كان هؤلاء معدودين من الطبقة الثالثة أو الثانية على أكبر تقدير ، ومن فوقهم جميعا طبقة المقاتلين

وفرسان الحروب وذوى الشجاعة والدربة على استخدام السـلاح ..

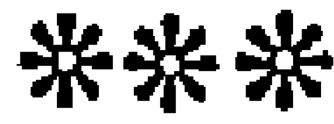
والإقطاعيون فى أوربا لم يكونوا يوما من أيامهم طبقة متفقة فى المصلحة أو متجاورة على وئام وسلام . بل كان اسمها نفسه مشتقا من المنازعة والخصـومة ، وكانت العداوة بين كل فارس منها وجيرانه أشد من العداوة بين الفـارس والفـلاح

ورأس المال زال من البلاد الروسيـة ، وزال معـه أغنياؤها وسراتها ونبلاؤها ، وظهرت فيها ـ مع هـذا ـ طبقة حاكمة من الخبراء والمهندسين لا تدانيها فى سطوتها واستبدادها طبقة حاكمة فى أشهر البلاد باستبداد نظم الصناعة ورؤوس الاموال

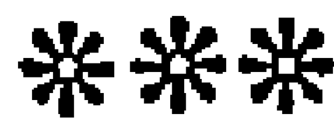
والصناعة الكبرى لم تكن هى الطور الاقتصادى الاخير الذى جرد العمال طبقة مستقلة تتقدم الصفوف لما يسمونه حرب الطبقـات ، ولكنهم تجردوا لهذه الحرب لانهم تجمعوا فى أمكنة متقـاربة يتفقون فيها على المطالب والحركات ويستطيعون باتفاقهم أن يعطلوا الاعمـال فى المصانع ويكرهوا أصحابها على الاصغاء اليهم ، وكذلك فعل العمال فى عهد الرومان قبل عهد الصناعة الـكبرى بنحو عشرين قرنا حين ثاروا بقيادة « سبارتكوس » . وفعل عمال سبرطة قبلهم ما فعـلوه ، ومنهم طوائف « الهيلوب » الذين كانوا يقتسمون حصة من غلال الارض الزراعية كما كانوا يتقاضون الاجور

والطبقة الغنية يخرج منها من يخرج ويدخل اليها من يدخل كلما تغيرت فيهم صفاتهم النفسية أو الفكرية . فغنى اليوم فقير الغد ، وفقير الامس غنى اليوم ، على حسب صفاتهم أو حسب الفرص التى تتهيـأ لهم ويسوسـونها بعقـولهم وأخـلاقهم ، لا لان العوامل

الاقتصادية وحدها هى التى تخلق طبقات المجتمع وتبقيها الى أن تتبدل هذه فتتبدل تلك معها ، كأنهما — معا — كتلة صماء تتغير من فترة الى فترة ولا عمل فيها لارادة الداخلين فيها ولا الخارجين منها



وستبقى الطبقات ما بقى الناس مختلفين ، وسيبقى الاختلاف بينهم بلا عد وبلا حد ، يقسمه من يريد التقريب والايجاز ثلاثا ثلاثا أو أربعا أربعا أو اثنتين اثنتين ، الا انه سيرجع فى مئات الفوارق والوفها الى تلك الظاهرة الكونية التى لا تدع ورقتين على فرع واحد من الشجرة الواحدة متشابهتين كلّ التشابه فى تركيب الاجزاء ، وأحرى الا يتشابه التركيب فى الجماعات الانسانية ولو تشابهت ظروفها الاقتصادية كل التشابه فيما بدا واستتر وفيما يملكه الافراد أو تملكه الجماعات من ارادة وتدبير



ويحق لنا أن ننظر الى المسألة من وجهة أخرى غير وجهة الواقع الذى لا حيلة لنا فيه . فنسأل : أترانا نسلم لهذه الظاهرة الكونية لانها قضاء حتم ينفذ فينا كما ينفذ فى الكون كله من أعلاه الى أدناه ؟ أترانا نبدل من هذه الظاهرة الكونية لو ملكنا التبديل فى حياتنا الانسانية ، فلا ندع بين الانسان والانسان موضعا لاختلاف التركيب فى الاجسام أو فى الاخلاق أو فى العقول أو فى الاحوال والاطوار ؟

لو أننا فعلنا ذلك لظلمنا أنفسنا وحرمنا النوع الانسانى ثروة من الافكار والعواطف والاذواق يجنى علينا الحرمان منها أفرادا وجماعات .. فان هذه الثروة النفسية هى التى تميزنا من الاحياء الدنيا ، وهى التى تميز المتقدمين

منا على المتأخرين ، وهى التى تفيدنا من تنويع الكفايات وتوزيع الاعمال وتجعل كل فريق منا لازما لكل فريق بين سكان الكرة الارضية قاطبة أو بين السكان فى كل بقعة من بقاعها على انفراد . ويظل هذا التنويع فى أفكارنا وأخلاقنا وأذواقنا ثروة نفسية نحرص عليها ولو ثبت أنها ـ فى أصولها ـ ضرورات اجتماعية تقسرنا عليها المنفعة المادية والحاجة الحيوانية . فان الضرورات التى تفتح لنا آفاقا من الفكر والخلق والذوق تنوعها وتوسع جوانبها خير من الضرورة التى تحبسنا فى أفق ضيق يهبط بنا شيئا فشيئا الى حضيض تحت حضيض من الحيوانية العجماء

فلو أننا ملكنا زمام أمانينا بأيدينا لما طاب لنا أن نلغى طبقات الناس التى يخلقها تنوع الافكار والاذواق ، ولا بد أن يخلق معها اختلافا فى درجات الأعمال وانماط المعيشة ومأثورات العرف والعادة . فان شر المجتمعات لمجتمع متشابه قليل المزايا يصدق عليه ما قاله الشاعر العربى بفطرته السليمة فى بنى الهجيم :

وبنو الهجيم قبيلة ملعونة
حص اللحى متشابهو الالوان

وان مجتمعا كهذا المجتمع الضيق المتشابه فى أحوال أبنائه وأطوارهم لشر من المجتمع الذى تتنوع فيه الاحوال والاطوار ولو طغى فيه أناس على آخرين وثار فيه المقهورون على الطغاة القاهرين ، فانه يؤول فى آخرة المطاف الى بقاء الاصلح من الفريقين أو بقاء الصالح من أخلاق كل فريق

ولعلنا نرجو من هذا الصراع خيره فى هذا العصر اذا كان من آثار شروره أن نعلم بها ، وأن نعرف ما نحذره

منها ، ونسعى الى اجتنابه بما فى وسعنا . فاذا لم يكن من أمانينا أن نمحو الاختلاف لانه محو للتنويع أو محو لثروتنا الانسانية — فليكن من أمانينا ان نجعله اختلافا لا طغيان فيه ولا استئثار ، ولا مذلة فيه من الجانب الاخر ولا حرمان

وخير المجتمعات اذن مجتمع يسمح للكفايات والمزايا الخلقية بالمجال الذى يناسبها فى الحياة العامة ، ولكنه لا يسمح لها بأن تحرم أحدا حقه أو تقف بينه وبين مجاله الذى استعد له بما هو أهله ، ولو لم يولد فيه ولم يكن منه بالنسب والوراثة

وهذا المجتمع هو الذى يأمر به الاسلام ويحمده ويزكيه بتعاليمه ووصاياه ..

فهو لا يمنع التفاوت بين أقدار الناس وان كانوا من الانبياء والمرسلين :

***

(وَلَقَدْ فَضلنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة الاسراء)

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كلَمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) (سورة البقرة)

ولا يسوى الاسلام بين العلماء والجهلاء ، ولا بين المؤمنين فى صدق الايمان

(هَلْ يَسْتَوِى الذينَ يَعْلَمُونَ وَالذينَ لاَيَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر)

(يَرْفَعِ اللهُ الذينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ)
(سورة المجادلة)

وليس من العدل فى الاسلام أن يختلف الناس فى العمل ويتساووا فى الارزاق ، فهم مختلفون فى درجات الرزق كاختلافهم فى درجات العلم والايمان

« نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ »
(سورة الزخرف)

« وَاللهُ فَضَلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ »
(سورة النحل)

الا ان هذا التفاضل فى العلم او فى الرزق لايقوم على النسب الموروث ولا على الغصب والسطوة ، وانما يقوم على العمل ولا يحق لاحد أن يحتفظ به الا بمقدار ما يبتغى فيه بعمله

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »
(سورة الحجرات)

« وَهُوَ الذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » .
(سورة الانعام)

(وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)
(سورة الانعام)

ولا يخفى ان المجتمع الاسلامى مجتمع ضمائر ونفوس يخاطبها الدين ، ولديها سبل الخطاب الذى يراد به صلاح العقول والأبدان . فاذا خص الاسلام طائفة بالخطاب فتلك هى الطائفة التى تمتاز بالعلم والقوامة الفكرية فى الأمة ، ولا يحمد الاسلام من مجتمع انسانى ان يخلو من هـــذه الطائفة التى تناط بها النصيحة وتوكل اليها مهمة الهداية الى الرشد والتحذير من الضلالة فى مصـــــالح الدين والدنيا . وتلك هى جماعة أهل الذكر وجماعة الداعين الى الخير والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكـــــر ، وهى الجماعة التى سماها فقهاء الاسلام بعد ذلك بأولى الحل والعقد ووكلوا اليها ترشـــــيح الامام والرقابة على ولاية الأمور ، تطوعا لاينتدبهم له أحد ولا يفرضه أمر مرسوم يتحكم فيه سلطان الدولة ، ولكنها أمانة العلم ينهض بها من هو أهل لها ويستمع له من يستمع وهو مسئول عن صوابه أو خطئه فى الثقة والاختيار

***

(فاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَتَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

***

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ) (سورة آل عمران)

***

واسوأ المجتمعات فى الدين الاســــلامى مجتمع اقوام لا يتواصون بالخير ولا يتناهون عن منكر فعلوه . الا ان

الاسلام يعنى بالضمائر والنفوس ويقرن الى ذلك عـــلى الدوام عنايته بمرافق الدنيا ومصالح الأجسام

فالمسلم مأمور كما تقدم ــ فى غير موضع ــ بأن يستوفى نصيبه من طيبات دنياه ، وله أن يجمع من المال مايستحقه بعمـــــله وتدبيره ولكن فى غير اسراف ولا اســـتئثار ولا احتكار

كسب المال مباح محمود ، ولكن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى الخير ملعونون مســـــــتحقون للعذاب الأليم :

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (سورة التوبة)

وصلاح المال أن تتداوله الأيدى

(كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ)

(سورة الحشر)

وليس من الخير فى غنى المال أن يجمعه الانسان حتى يطغيه

(إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

أما المحتكرون فهم منبوذون من المجتمع الاســـلامى يبرأ منهم ويلعنهم الله ، كما جاء فى الأحاديث النبـــوية الشريفة : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » وكما جاء فيها : « من احتكر طعاما اربعين يوما يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه »

ودفعا للحيلة فى المضاربة بالنقد أو بالطعام لاحتكاره وتحليل الربا عليه قد نهى عليه السلام أشد النهى عن مبادلة المعادن والأطعمة المتماثلة بزيادة فيها فقال فى روايات متشابهة : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد . فمن زاد أو اشتراه فقد أربى .. »

والاسلام يحب للمسلم أن يعمل ويكسب ويكره له أن يتبطل ويتكل على غيره . وأحاديث النبى عليه السلام تؤكد الأوامر الالهية فى هذا المعنى فيما يجمعه قوله تعالى :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُه وَالْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة)

والنبى عليه السلام يقول « ان الله يحب العبد المحترف ويكره العبد البطال » ..

ويقول : « أفضل الكسب كسب الرجل بيده »

وكان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب مؤسس الدولة الاسلامية يقول : « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . فان من قصر به عمله لا يسرع به حسبه ... »

فلا عذر فى المجتمع الاسلامى لمن يقعد عن العمل والكسب وهو قادر عليهما . أما الذى يقعد عنهما اضطرارا لعجز أصابه أو حرج وقع فيه فله على المجتمع حق مفروض لا هوادة فيه يؤديه عنه كل من ملك نصاب الزكاة وهى احدى الفرائض الخمس التى بنى عليها الاسلام ، ولم يتكرر فى القرآن الكريم ذكر فريضة منها كما تكرر ذكر هذه الفريضة بلفظها أو بلفظ يدل عليها

كالصدقة والاحسان والبر واطعام اليتامى والمساكين ومن الآيات التى ورد فيهـا الحض على الزكاة ما يعلم المسلم أن البر فى العقيدة وايتاء المال لأصحاب الحق المشروع فيه :

(لَيْسَ البِرَ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ).
(سورة البقرة)

ومما ورد فى الحض على الزكاة باسم الصدقات مع بيان مستحقيها قوله تعالى فى سورة التوبة :

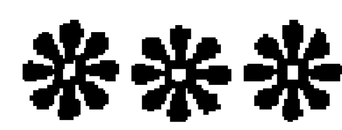
(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينَ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالمؤلفةِ قُلوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ) (سورة التوبة)

وتجب الزكاة على الأنعام والماشيـة وعلى الأموال وعروض التجارة وغلات الزروع . ونصـاب الزكاة فى الابل خمس وفى البقر ثلاثون وفى الغنم أربعـون ، ونصابها فى الأموال والعروض وثمرات الزروع يضارع هذه القيمة على وجه التقريب ، والحصة المفروضة على النصاب تضارع ربع العشر من رأس المال ، والحصة المفروضة على الثمرات تضارع العشر مما يسقيه المطر

ونصف العشر مما تسقيه الغروب وأدوات الري على اجمالها ..

ففي كل سنة يستحق الموزون المفتقرون الى المعونة جزءا من أربعين جزءا من رؤوس الاموال في الامة ، أو جزءا من عشرة أجزاء من ثمرات الزراعة وما اليها، وهو مقدار من الثروة العامة لا يخصص مقدار مثله في الامم الحديثة التي تقررت فيها حصة من موارد الدولة للانفاق على العجزة والشيوخ ومن يستحقون العون لغير تفريط أو تقصير ..

ومن الآيات المتقدمة نعلم أن المستحقين للزكاة ثمانية أصناف هم : (١) الفقراء وهم الذين يملكون شيئا دون نصاب الزكاة ويستنفدونه في حاجاتهم وضروراتهم و(٢) المساكين وهم الذين لا يملكون شيئا و (٣) عمال الزكاة وهم موظفو الدولة الذين يحصلونها أو يوزعونها و (٤) المؤلفة قلوبهم وهم المسلمون حديثو العهد بالاسلام ممن تخشى عليهم الفتنة أو الكفر يتألفهم الاسلام ولا يعملون ما يؤذي المسلمين و (٥) الأرقاء الذين يفتدون من الأسر بالمال و(٦) المنكوبون بالمغارم و(٧) المجاهدون الذين يحتاجون الى النفقة و (٨) الغرباء المنقطعون عمن يعولهم ، وكل من هو في حكم هؤلاء اضطرارا الى رعاية المجتمع وعجزا عن ولاية أمره بنفسه



ولم يقصد الاسلام بفريضة الزكاة أن يجعلها حلا لمشكلة الفقر في المجتمعات الانسانية . فانما تحل مشكلة الفقر في المجتمع الاسلامي بالعمل والسعي في طلب الرزق يتعاون على تدبير وسائلهما ولاة الأمر وطلاب الأعمال ويحاسب الامام على التواني في هذه المهمة كما يحاسب

على التوانى فى سائر مصالح الرعية. ولاشك أن الاسلام قد صنع فى حل مشكلة الفقر من أساسها صنيعه الذى لم يسبقه اليه دين من الأديان الكتابية أو أديان الحضارات الغابرة . فانه مسح عن الفقر قداسته التى جللته بها عبادات الأمم وأحاطته بها فى الصوامع والبيع والمحاريب المنقطعة عن العمران، ومسح عنه تلك القداسة من جذورها حين أنكر تعذيب الجسد وحرمانه ، وحين رفع عن الجسد مسبة الدنس والنجاسة المتأصلة فى دخيلة التكوين . فأوجب على المسلم أن ينعم بطيبات الرزق وأنكر عليه أن يحرم مما أحل الله من تلك الطيبات التى لا تقف عند حدود الضروريات بل تتخطاها الى الزينة والجمال . ومن استهان بأثر هذه النظرة السليمة الى الفقر فليتخيل كيف كانت مشكلة الفقر تساس للعلاج بين أناس ينظرون اليه نظرة التقديس وينظرون الى متاع الجسد نظرة الزراية والتدنيس ؟ وليتخيل الفارق البعيد بين مجتمع يعمل على تعظيم الفقر واعتبار العمل فى طلب الرزق غلطا تبتلى به الروح من غواية الجسم المرذول ، وبين مجتمع يعمل على ايجاب السعى ويلوم أبناءه على تحريم الطيبات والزهد فى الدنيا، ويؤاخذ الانسان اذا مد يده بالسؤال وعنده قوت يكفيه مؤونة السؤال ..

ان الاسلام قد جاء بالوسيلة التى لا غنى عنها فى مكافحة الفقر وحل مشكلته يوم جعله ضرورة لا تباح للمسلم الا كما تباح الضرورات التى لا حيلة فيها ولا اختيار معها . وانما فرض الزكاة لمن أصابتهم تلك الضرورات وأقعدتهم عن السعى واستنفدوا — مع المجتمع — كل حيلة فى تدبير العمل المستطاع . ومن لم يكن منهم مستطيعا عملا بتدبير من الامام أو بتدبير من

نفسه فهو مكفول الرزق بما تجبيه الدولة من حصـــة الزكاة حقا معلوما يتقاضونه من الأمام ولا هوادة فيه

وليست حصة الزكاة بالقدر الصغير عند المقارنة بينها وبين الحصة التى تخصص من ثروة الأمة فى المجتمعات الحديثة للانفاق على العجزة والشيوخ والمنقطعين عمن يعولهم ، فانها ــ كما هو معلوم ــ تضارع جزءا من أربعين جزءا من ثروة الأمة فى كل سنة، أو تضارع عشر الثمرات الزراعية وما اليها ، وليس فى مجتمع من المجتمعات ــ حتى الشيوعية منها ــ من يزيد على هذا القدر فى الانفاق على ذوى الحاجات من العجزة والشيوخ . الا أن الاسلام مع هذا لم يقصر الاحسان على فريضة الزكاة ولا أسقط عن القادرين واجب الغوث لمن يعرفونهم ويقدرون على امدادهم بما يعينهم على شدائدهم . اذ ليست الزكاة هى كل ما يصنعه المحسنون القادرون على الاحسان ، ولكنها هى الاحسان الذى تفرضه الدولة وتستـــــخلصه من المفروض عليهم عنوة أن لم يؤدوه طواعيـــة فى موعده المعلوم ..

واذا انفصلت مشكلة الفقر ومشكلة الطبقات على هذا النحو فالعاطلون كلهم فى كفالة المجتمع والطبقات كلهـا عاملة منتجة تنحل مشكلتها بتصحيح أوضاعها وتوطيد هذه الاوضاع على نظام عادل فى مجتمع سليم

وآخر الحلول التى أسفرت عنها تجارب القـــرون المتطاولة فى مشكلة حرب الطبقات ــ أن هذه المشكلة لا تزال بازالة الطبقات بل بازالة الحرب بينها ، وأن هذه الحرب تمنع كلما تقاربت الفجوة الواسعة بين الطبقات فلا افراط فى الغنى ولا افراط فى الفقر ولا سبيل لفريق منها أن يجور على فريق سواه . وقد ابتـــدع خبراء الصناعة والاقتصاد فى العصر الأخير وسيلة للتقارب بين

ذوى الأموال وطوائف الصناع والعمال أن يشتركوا فى المصلحة الكبرى متعاونين عليها مساهمين فيها ، اما بتوزيع الحصص على تفاوت مقاديرها ، واما بتعميم المرافق التعاونية التى تتلاقى فيها منافع المنتجين والمستنفدين وأرباح البائعين والشراة

وليس فى هذا الحل شرط من شروطه لا تيسره تعاليم الاسلام ووصاياه . فان التعاون أدب من آدابه يأمر به الناس جميعا وتندب للتنبيه اليه أمة تتواصى بالمعروف وتتناهى عن المنكر

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ) . (سورة المائدة)

(وَتَواصَوْا بالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ) . (سورة العصر)

***

وواجب الكبار فيه كواجب الصغار . فليس من المسلمين كبير لا يرحم الصغير وصغير لا يوقر الكبير كما جاء فى الحديث الشريف: « ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر »

وانه لما ييسر هذا التعاون بين طوائف الأمة أن تقرر فيها كفالة الضعفاء فرضا محتوما على القادرين ، وأن يمتنع حبس المال فى أيدى فريق من الناس فلا افراط فى الغنى ولا افراط فى الفاقة ، ولا استئثار ولا حرمان

ولا تحل مشكلة الطبقات بالرأى أو بالواقع الا على هذا النحو الذى ينتهى الى ازالة حرب الطبقات ولا ينتهى الى ازالة الطبقات . فالعالم بخير ما دام فيه

أنواع الكفايات وفوارق المزايا والصفات ، ومادامت هذه الأنواع والفوارق فيه يتمم بعضها بعضا ويجرى بعضها على معونة بعض • والعالم على شر ما يكون اذا زال فيه كل خلاف بزوال الأداة المختلف عليها : يتنازع الناس الأموال فتزول الأموال ، ويتنازعون الحكم فيزول الحكم ، ويتنازعون الحرية فتزول الحرية ، وما هم فى الحق بقادرين على ازالة شيء واحد يتنازعون عليه، فلو أزالوا فوارق الأرزاق لم يزيلوا الفوارق بينهم على الذكاء والغباء ، أو على القوة والضعف أو على الجاه والخمول ، أو على الوسامة والدمامة ، أو على الذرية والعقم ... ولو أنهم أزالوها لزالوا أجمعين ؛ ولكنهم باقون برحمة الله

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) (سورة هود)

الــرّق

شرع الاسلام العتق ولم يشرع الرق . اذ كان الرق مشروعا قبل الاسلام فى القوانين الوضعية والدينيـــة بجميع أنواعه : رق الأسر فى الحروب ، ورق البيـــع والشراء ، ومنه رق الاستدانة أو الوفاء بالديون

وكانت اليهودية تبيحه ، ونشأت المسيحية وهـــو مباح فلم تحرمه ولم تنظر الى تحريمه فى المســـتقبل ، وأمر بولس الرسول العبيد باطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح ، فقال فى رسالته الى أهل أفسس :

« أيها العبيد ! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين ان مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أم حرا .. »

وأوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية ، وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديهـــا العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم ، وأضاف القديس الفيلسوف توما الاكوينى راى الفلســـفة الى رأى الرؤساء الدينيين فلم يعترض على الرق بل زكاه. لأنه على راى أستاذه أرســـطو حالة من الحالات التي

خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الايمان أن يقنع الانسان من الدنيا بأهون نصيب ..

ومذهب أرسطو فى الرق أن فريقا من الناس مخلوقون للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التى يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر والمشيئة . فهم آلات حية تلحق فى عملها بالآلات الجامدة ، ويحمد من السادة الذين يستخدمون تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الاداة المسخرة الى منزلة الكائن العاقل الرشيد ..

وأستاذ أرسطو ــ أفلاطون ــ يقضى فى جمهوريته الفاضلة بحرمان العبيد حق « المواطنة » واجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم أو من السادة الغرباء ، ومن تطاول منهم على سيد غريب أسلمته الدولة اليه ليقتص منه كما يريد

وقد شرعت الحضارة اليونانية نظام الرق العام ، كما شرعت نظام الرق الخاص أو تسخير العبيد فى خدمة البيوت والأفراد ، فكان للهياكل فى آسيا الصغرى أرقاؤها الموقوفون عليها ، وكانت عليهم واجبات الخدمة والحراسة ، ولم يكن من حقهم ولاية أعمال الكهانة والعبادة العامة

وانقضى على العالم عصور بعد عصور وهذا النظام شائع فى أرجائه بين الأمم المعروفة فى القارات الثلاث ، ينتشر بين أمم الحضارة وقبائل البادية التى تكثر فيها غارات السلب والمرعى ، ويقل انتشاره بين الأمم الزراعية عند أودية الأنهار الكبرى كوادى النيل وأودية الأنهار الهندية . الا أن الأمم فى الأودية الهندية كانت

تأخذ بنظام الطبقة المسخرة أو الطبقة المنبوذة ، وهى فى حكم الرقيق العام من وجهة النظر الى المكانة الاجتماعية والحقوق الانسانية

وعلى هذه الحالة كان العالم كله يوم مبعث الدعوة الاسلامية من قبل الصحراء • ليس فيه من يستغرب هذه الحالة أو من يشعر بحاجة الى تعديل فيها حيث يكثر الارقاء أو حيث يقلون ••

ففى البلاد التى كثر فيها عدد الأرقاء كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فيها مرتبطة بأعمال الرقيق فى البيوت والمزارع والمرافق العامة ، فلم يكن تغيير هذه الاوضاع مما يخطر على البال ، ولم يكن تغييرها مستطاعا بين يوم وليلة ، لو أنه خطر على بال أحد

وفى البلاد التى قل فيها عدد الارقاء لم تكن هناك مسألة حازبة أو معجلة تسمى مسألة الرقيق وتستدعى من ذوى الشأن اهتماما بالتغيير والتعديل

وكان عدد الأرقاء قليلا فى البادية العربية بالقياس الى أمم الحضارة اذ كان عددهم بين المسلمين الأوائل لا يزيد على عدد الأصابع فى اليدين ، فلم يكن بدعا من الدين الجديد ان يترك الحالة فى الصحراء العربية — وفى العالم — على ما كانت عليه : حالة لا يستغربها أحد ، ولا يفكر أحد فى تغييرها أو تعديلها . ولكنه لم يتركها ، ولم يغفلها ، ولم يؤجلها بين الاغضاء والاستحسان لهوانها وقلة جدواها • بل جرى فيها على دأبه فى علاج المساوىء الاجتماعية والأخلاقية : يصلح منها ما هو قابل للاصلاح فى حينه ، ويمهد للتقدم الى المزيد من الاصلاح مع الزمن كلما تهيأت دواعيه

ونحن نحب أن نلخص ما صنعه الاسلام فى هذه المسألة

قبل أربعة عشر قرنا فى بضع كلمات : أنه حرم الرق جميعا ولم يبح منه إلا ماهو مباح الى الآن . وفحوى ذلك أنه قد صنع خير ما يطلب منه أن يصنع ، وان الأمم الانسانية لم تأت بجديد فى هذه المسألة بعد الذى تقدم به الاسلام قبل ألف ونيف وثلثمائة عام ..

فالذى أباحه الاســــلام من الرق مباح اليوم فى أمم الحضارة التى تعاهدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر الى الآن ..

لأن هذه الأمم التى اتفقت على معاهدات الرق تبيح الأسر واستبقاء الأسرى الى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة ..

وهذا هو كل ما أباحه الاسلام من الرق او من الأسر ، على التعبير الصحيح ..

وغاية ما هنالك من فرق بين الماضى قبل أربعــة عشر قرنا وبين الحاضر فى القرن العشرين ان الدول فى عصرنا هذا تتولى الاتفاق على تبادل الأسرى أو على افتــــداء بعضهم بالغرامة والتعويض . أما فى عصر الدعوة الاسلامية فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين ، فمن وقع منهم فى الأسر بقى فيه حتى يفتدى نفسه بعمله أو بماله ، اذا ســـمح له الآسرون بالفداء ..

فماذا لو ان الدول العصرية بقيت على خطة الدول فى القرن السادس للميلاد ؟ ماذا لو أن الحروب اليوم انتهت كما كانت تنتهى فى عصر الدعوة الاسلامية بغير اتفاق على تبــادل الأسرى أو على افتكاكهم من الأسر بالتعــــويض والغرامة ؟ ..

كانت حالة الأسرى اليوم تشبه حالة الأسرى قبـــل أربعة عشر قرنا فى حقوق العمل والحرية والتمتع بالمزايا

الآجتماعية ، وكان كل أسير يظل فى موطن أسره رقيقـــا مسخرا فى الخدمة العامة أو الخاصة محروما من المساواة فى حقوق المواطنة بينه وبين أبناء الآمة الغالبة ..

حالة كحالة الرق التى سمح بها الاســـلام على كره واضطرار ..

ولكن الاسلام لم يقنع بها فى ابان دعوته ، وأضاف الى شريعته فى الرق نوافل وشروطا تسبق الشريعة الدولية بأكثر من ألف سنة . فاذا كانت الشريعة الدوليـــة لم تعرف الدولة فى فكاك رعاياها من الأسر فقد سبق الاسلام الى فرض هذا الواجب على الدولة فجعل من مصـــارف الزكاة انفاقها « فى الرقاب » أى فــكاك الأسرى ، وان يحسب للأسرى حق من الفىء والغنيمة كحق غيرهم من المقاتلين ..

واذا كان ارتباط الأسرى ضربة لازب فى الحـــروب الحديثة فالاسلام لم يجعله حتما مقضيا فى جميع الحروب، وحرص على التخفيف من شـدته ماتيسر التخفيف منه وجعل المن فى التسريح أفضل الخطتين :

(فإما مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا)

(سورة محمد)

وحث المسلمين على قبول الفدية من الاســـير أو من أوليائه :

(وَالذينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الذى آتَاكُمْ)

(سورة النور)

وقد كثرت وصايا النبى عليه السلام بالأرقاء فقال فى بعض الاحاديث « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت ان الناس لا تستعبد ولا تستخدم » وكانت من آخر وصاياه قبل انتقاله الى الرفيق الاعلى وصيته « بالصلاة وما ملكت ايمانكم » ونهى المسلمين ان يتكلم أحد عما ملك فيقول : عبدى وأمتى . وانما يذكرهم فيقول فتاى وفتاتى كما يذكر أبناءه وبناته . وكان عليه السلام يعلم صحابته بالقدوة فى معاملة الرقيق كما يعلمهم بالفريضة والوصية ، فكان يتورع عن تأديب وصيفته ضربا بالسواك ، وقال لوصيفة أرسلها فأبطأت فى الطريق : « لولا خوف القصاص لاوجعتك بهذا السواك »

ومن الوسائل الفردية التى تحرى بها الاسلام تعميم العتق وتعجيل فكاك الأسرى انه جعل العتق كفارة عن كثير من الذنوب ، كالقتل الخطأ والحنث باليمين ومخالفة قسم الظهار

(وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا . فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ . وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) . (سورة النساء)

(لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ

مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَاتُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ
أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) (سورة المائدة)

(وَالذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا) (سورة المجادلة)

ويحسب من الرذائل المأخوذة على الانسان السيىء أنه لا يقتحم هذه العقبة أو لا ينهض بهذه الفدية المؤكدة :

(فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ
إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ)
(سورة البلد)

فالعتق اذن هو الذى شرعه الاسلام فى أمر الرق ، وأما نظام الرق بأنواعه فقد وجده مشروعا فحرمه جميعا ، ولم يبح منه الا ماهومباح الى اليوم فىنظام الاسرىوتسخيرهم فى أعمال من يأسرونهم من المتقاتلين . وسبق القوانين الدولية بتقريره الزام الدولة واجب السعى فى اطلاق أسراها واعتاقهم بالفداء ، وشفع ذلك بالوسائل الفردية فيما تنتقل به الذمة الى الافراد من مالكى الارقاء بعد وفاء الدولة بذمتها

ولا يقال هنا أنه عمل كثير أو قليل ، بل يقال انهالعمل الوحيد الذى أستطيع فى محاربة نظام الرق ولم تستطع أمم الانسانية ماهو خير منه فى علاج هذه المسائل الى الان ..

أى شفاعة كانت لاولئك المساكين المنسيين فى عصر يصفونه بحق — فى تاريخ العالم — بأنه عصر الجهالة والظلمات ؟

لقد كانوا — على كثرتهم أو قلتهم — أهون شأنا من أن يحفل بهم صاحب شريعة أو ولاية ، ولم يبلغ من مسألتهم فى جزيرة العرب ولا فى بلد من بلاد العالم أن تسمى مشكلة تلح على ولاة الامر أن ينظروا فى حلها بما يرضى العبيد أو بما يرضى السادة المتحكمين فيهم : كانت مسألتهم من المسائل المفروغ منها أو من مسائل العادة التى يتقبلها الناس على علاتها ولا يستغربون منها شيئا يدعوهم الى تعديلها ، بل الى الكلام فيها . فاذا بالاسلام يملى لهم على المجتمع حلا كحل الظافر المنتصر فى كفاح يسام مغلوبه مالم يكن ليرضاه باختياره ، واذا بالنظام العريق فى أمم الحضارة بقية من بقايا الامس رهينة بيومها الموعود

شأن الارقاء فى الجزيرة العربية أهون يومئذ من أن يدعو ولاة الامر الى عناية به على قصر أو على اختيار

وشأن الاسرى فى حروب الدول يومئذ كشأن الطريدة من الحيوان لاتسلم من التمزيق الا لتغنى غناء المطية المسخرة فى غير رحمة ولا مبالاة بحساب . وشرائع الدين — كشرائع العرف — قدوة لا يقاس عليها ما شرعه الاسلام بغير سابقة فى أمر الاسرى ولا فى أمر الارقاء

شريعة العهد القديم كما نص عليها الاصحاح العشرون من كتاب التثنية تقول للمقاتل المؤمن بها :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح . فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك . وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب

الهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الامم هنا . أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبقى منها نسمة ما بل تحرمها تحريما ... »

وأقسى من هذا الجزاء جزاء المدن التى ينجم فيهاناجم بالدعوة الى غير آله اسرائيل ، فانها كما جاء فى الاصحاح الثالث عشر من كتاب التثنية

« فضربا تضرب بحد السيف وتحرم بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف تجمع كل أمتعتها الى وسط ساحتها وتحرق بالنار .. المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب الهك ، فتكون تلا الى الابد لا تبنى بعده ... »

فالقدوة فى حروب الدين وحروب الفتح تغرىبالقسوة ولا تغرى بالعفو والرحمة . وأحرى بعرب الجاهلية أن يكونوا فى قسوة بنى اسرائيل أو أشد منهم قسوة لانهم أهل بادية مثلهم « يدهم على كل انسان ويد كل انسان عليهم » كما قيل عنهم فى العهد القديم .. فاذا عللت وصايا الرق فى الاسلام بالعلل الطبيعية التى تسيغها عقول منكريه فماذا يقول الذين ينكرون الدعوة الاسلامية تعصبا لدين آخر ؟ وماذا يقول الذين ينكرونها من الجاحدين للاديان ؟ ..

يقول المنكرون المتعصبون لدين غير الاسلام أن الدعوة برمتها تلفيق رجل دجال . ولا ندرى كيف تسيغ عقولهم أن يكون الرسول الدجال أرفع أدبا واشرف خلقا وأبر بالانسانية الضعيفة من الرسل الصادقين المصدقين

ويقول المنكرون من أنصار العلل الطبيعية أن الدعوة الاسلامية وليدة البلاد العربية خرجت من أطواء عقائدها وتقاليدها ومأثوراتها . ولا ندرى كيف يكون الابهام والغموض اذا كان هذا هو التعليل والتفسير ، فاننا لانقول شيئا ترضاه العقول وتستريح اليه اذا قلنا ان البيئة

العربية جاءت بنقيض المنتظر منها .ونقيض المنتظر من العالم حواليها ..

ان تصديق أعجب الخوارق لاجدر بعقول الفريقين من قبول هذا اللغو الذى صدقوه واطمأنوا اليه . ونحن أيضا نريد للدعوة الاسلامية سببها المعقول فلا نرى تناقضا بين هذا السبب وبين الواقع الذى لاغرابة فيه الا اذا أوجبنا نحن على عقولنا أن نستغربه متعسفين

فالغريب عندنا أن يأتى رجل دجال بما لم تأت به أرفع الحضارات والديانات من قبله ، والغريب عندنا أن يكون محمد مبعوثا بارادة الامة العربية وهى ماهى فى أيام الجاهلية ..

أما الواقع الموافق للعقل ، ولا مناقضة فيه لنواميس الكون ، فهو أن يخلق الله انسانا كاملا يلهمه الحق والرشد ويعينه الى الهداية عليهما بعمل يستطيعه ويستطيع الناس ان يفهموه — متى حدث — كما يفهمون جلائل الاعمال — الا انهم لايستطيعون أن يتوقعوه اذا قصروه على المألوف المعهود فى سياق التاريخ

وهذا تفسيرنا لوصايا الرق فى الاسلام ، ترتضيه عقولنا ونقول عن يقين أنه أقرب الى العقل من معجزة الدجل ومعجزة النقائض المستحيلة ، ونحسب أن المكابرة تقصر عن الذهاب الى الامد الذى يدفعها اليه من لايفرقون بين الدجل والصدق أو لايفرقون بين الواقع والمستحيل

***

وتنطوى القرون ويتكشف الزمن عن أزمة الرق الكبرى فى التاريخ الحديث

ان وصايا الاسلام فى مسألة الرق خولفت كثيرا وكان من مخالفيها كثير من المسلمين ، ولكن الاسلام — على الرغم

من هذه المخالفة المنكرة ـ لايضيره ولا يغض منه قضاء التجربة العملية عند الموازنة بين جناية جميع المسلمين على الارقاء وجناية الاخرين من اتباع الاديان الكتابية

فالقارة الافريقية ـ فى بلاد السود ـ مفتوحة أمام أبناء السواحل المجاورة لها منذ مئات السنين ، ولم تفتح للنخاسين من الغرب الا بعد اتصال الملاحة على ساحل البحر الاطلسى فى العالم القديم والعالم الجديد

وفى أقل من خمسين سنة نقل النخاسون الغربيون جموعا من العبيد السود يبلغ عدد الباقين من ذريتهم ـ بعد القتل والاضطهاد ـ نحو خمسة عشر مليونا فى الامريكتين : عدد يضارع خمسة أضعاف ضحايا النخاسة فى القارات الثلاث منذ أكثر من الف سنة ، وهو فارق جسيم بحساب الارقاء يكفى للابانة عن الهاوية السحيقة فى التجربة العملية بين النخاستين ، ولكنه فارق هين الى جانب الفارق فى حظوظ أولئك الضحايا بين العالم القديم والعالم الجديد . فان فى الامريكتين الى اليوم أمة من السود معزولة بأنسابها وحظوظها وحقوقها العملية ، وليس فى بلد من بلاد الشرق أمة من هذا القبيل ، لان الاسود الذى ينتقل اليها يحسب من أهلها بعد جيل واحد ، له مالهم وعليه ماعليهم بغير حاجة الى حماية من التشريع أو نصوص الدساتير

حقوق الحرب

شاع عن الاسلام أنه دين السيف ، وهو قول يصح في هذا الدين اذا أراد قائله أنه دين يفرض الجهاد ومنه الجهاد بالسلاح ، ولكنه غلط بين اذا أريد به أن الاسلام قد انتشر بحد السيف أو أنه يضع القتال في موضع الاقناع ..

وقد فطن لسخف هذا الادعاء كاتب غربي كبير هو توماس كارليل صاحب كتاب « الابطال وعبادة البطولة » فانه اتخذ محمدا عليه السلام مثلا لبطولة النبوة وقال ما معناه :

« ان اتهامه بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم . اذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته ، فاذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها »

والواقع الثابت فى أخبار الدعوة الاسلامية أن المسلمين كانوا هم ضحايا القسر والتعذيب قبل أن يقدروا على دفع الاذى من مشركي قريش فى مكة المكرمة ، فهجروا ديارهم وتغربوا من أهليهم حتى بلغوا الى الحبشة فى هجرتهم ، فهل يأمنون على أنفسهم فى مدينة عربية قبل

التجائهم الى « يثرب » واقامتهم فى جوار أخوال النبى عليه السلام ، مع مابين المدينتين من التنافس الذى فتح للمسلمين بينهما ثغرة للامان ؟ ولم يكن أهل يثرب ليرحبوا بمقدمهم لولا مابين القبيلتين الكبيرتين فيهما « قبيلتى الاوس والخزرج » ـ من نزاع على الامارة فتح بينهما كذلك ثغرة أخرى يأوى اليها المسلمون بعد أن ضاق بهم جوار الكعبة ، وهو الجوار الذى لم يضق من قبل بكل لائذيه فى عهد الجاهلية

ولم يعمد المسلمون قط الى القوة الا لمحاربة القوة التى تصدهم عن الاقناع ، فاذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها لان القوة لاتحارب بالحجة والبينة ، واذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء

لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها ، ولذلك حاربوا الفرس لان كسرى أرسل الى عامله فى اليمن يأمره بتأديب النبى أو ضرب عنقه وارسال رأسه اليه ، وحاربوا الروم لانهم أرسلوا طلائعهم الى تبوك فبادرهم النبى عليه السلام بتجريد السرية المشهورة الى تخوم الحجاز الشمالية ، وعادت السرية بغير قتال حين وجدت فى تبوك أن الروم لايتأهبون للزحف على بلاد العرب ذلك العام

ولم يفاتح النبى عليه السلام أحدا بالعداء فى بلاد الدولتين . انما كتب الى الملوك والامراء يبلغهم دعوته بالحسنى ، ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم الا بعد تحريضهم القبائل العربية في العراق والشام على غزو الحجاز واعدادهم العدة لقتال المسلمين . وقد علم المسلمون باصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة ، ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخلية فى بلادهما

لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهبوا لمدافعتها أو التحصن دونها

وفى الجزيرة العربية لم تقع حرب بين المسلمين وقبائلها الا ان تكون حرب دفاع أو مبادرة الى اتقاء الهجوم المبيت فى أرض تلك القبائل ، وكانت العداوة سافرة بين المسلمين ومشركي قريش لايكتمها المشركون ولا يواربون فيها ولا يخفون أنهم عقدوا النية على الايقاع بمحمد وأصحابه وفض العرب من حوله وايذاء كل من يدخل منهم فى دينه . فلم تكن بين المسلمين والمشركين حالة غير حالة الحرب الا فى أيام صلح الحديبية ، ثم عادت الحرب سجالا بين الفريقين حتى تم فتح مكة وانتقلت الحرب من قتال سافر بين المشركين والمسلمين الى قتال بالدس والمكيدة بين هؤلاء وزمرة المنافقين . وقد حرص الاسلام على تسمية كل عدو من أعدائه باسمه لايعدوه ولم يخلط بين حرب الشرك وحرب النفاق . لانه لايحاسب على العداوة بالنيات كما يحاسب على العداوة بالاعمال

أما قبائل الجزيرة العربية فى غير قريش فلم يحاربهم الاسلام الا حرب دفاع أو حرب مبادرة لاتقاء الهجوم من جانبها ، وأخبار السرايا الاسلامية فى بلاد العرب معروفة محفوظة بأسبابها ومقدماتها ، وكلها كما أحصاها المؤرخ العصرى - أحمد زكى باشا - حروب دفاع واتقـــاء هجوم ..

« ونذكر من بعد ذلك غزوة بنى قينقاع من يهود المدينة ، فقد حاربهم المسلمون لنقضهم العهد بعد غزوة بدر الكبرى وهتكهم حرمة سيدة من نساء الانصار ، ثم غزوة بنى غطفان ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا بعد أن علموا ان بنى ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برئاسة دعثـــور المحاربى للاغارة على المدينة ، ثم سرية عاصم بن ثابت

الانصارى وكانوا مع رهط عضل والقارة الذين خانوهم ودلوا عليهم هذيلا قوم سفيان بن خالد الهذلى الذى قتله عبد الله بن انيس ، ثم سرية المنذر بن عمرو وهم سبعون رجلا يسمون القراء أخذهم عامر بن مالك ملاعب الاسنة لطمعه فى هداية قومه وايمانهم فلم يرع قومه جواره وقتلوا القراء ، ثم غزوة بنى النضير من يهود المدينة وذلك لنقضهم العهد والقائهم صخرة على النبى صلى الله عليه وسلم لما كان فى ديارهم ، ثم غزوة دومة الجندل ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا لما علموا أن فى ذلك المكان أعـــرابا يقطعون الطريق على المارة ويريدون الاغارة على المدينة ، ثم غزوة بنى المصطلق وهؤلاء ممن ساعدوا المشركين فى أحد ولم يكتفوا بذلك بل أرادوا جمع الجموع للاغارة على المدينة ، ثم غزوة الخندق وكانت مع الاحزاب الــذين حاصروا المدينة ، ثم غزوة بنى قريظة من يهود المدينـــة لنقضهم العهد واجتماعهم مع الاحزاب ثم غزوة بنى لحيان لقتلهم عاصم بن ثابت واخوانه الذين حزن عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم غزوة الغابة لاغارة عيينة ابن حصن فى أربعين راكبا على لقاح للنبى صلى الله عليه وسلم كانت ترعى الغابة ، ثم سرية محمد بن مسلمة الى القصة لما بلغ المسلمين أن بذلك الموضع ناســـا يريدون الاغارة على نعم المسلمين التى ترعى بالهيفاء ، ثم سرية زيد بن حارثة لمعاكسة بنى سليم الذين كانوا من الاحزاب يوم الخندق ، ثم سرية زيد كذلك للاغارة على بنى فزارة الذين تعرضوا له ، ثم سرية عمر بن الخطاب لمـا بلغ المسلمين من أن جمعا من هوازن يظهرون العــــداوة للمسلمين ، ثم سرية بشير بن سعد لما بلغهم من أن عيينة ابن حصن واعد جماعة من غطفان مقيمين بقرب خيبر

للاغارة على المدينة . ثم سرية غالب الليثى ليقتص من بنى مرة بفدك لانهم أصابوا سرية بشير بن سعد ، ثم غزوة مؤتة وكانت لتعرض شرحبيل بن عمرو الغسانى للحارث ابن عمير الازدى رسول النبى صلى الله عليه وسلم الى أمير بصرى يحمل كتابا وقتله اياه ، ولم يقتل للنبى صلى الله عليه وسلم رسول غيره حتى وجد لذلك وجـــدا شديدا . ثم سرية عمرو بن العاص لما بلغهم من ان جماعة من قضاعة يتجمعون فى ديارهم وراء وادى القرى للاغارة على المدينة ، ثم سرية على بن أبى طالب لما بلغهم من أن بنى سعد بن بكر يجمعون الجموع لمساعدة يهــود خيبر على حرب المسلمين ، ثم غزوة خيبر لان أهلها كانوا أعظم محرض للأحزاب ، ثم سرية عبد الله بن رواحة لما بلغهم من أن باين رزام رئيس اليهود يسعى فى تحريض العرب على قتال المسلمين ، ثم سرية عمرو بن أمية الضمرى لقتل أبى سفيان جزاء ارساله من يقتل النبى عليه الصلاة والسلام غدرا ، ثم حرب العراق لما ارتكبه كسرى عندما أرسل اليه كتابا عرض عليه فيه الاسلام ، فانه مزق الكتاب وكتب الى بازان – أمير له باليمن يقول له : « بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى فسر اليه فاستتبه فان تاب والا فابعث الى برأسه . أيكتب الى هذا الكتاب وهو عبدى ؟ » فبعث بازان بكتاب كسرى الى النبى صــلى الله عليه وسلم مع فارسين يأمره أن ينصرف معهما الى كسرى فقدما اليه وقالا له : شاهنشاه بعث الى الملك بازان يأمره أن يبعث اليك من يأتى بك ، وقد بعثنا اليك فان أبيت هلكت وأهلكت قومك وخربت بــلادك . فليس بعد ذلك عذر للمسلمين فى امتناعهم عن حرب الفرس خصوصا وقد كان للعرب ثارات كثيرة فى ذمة العجم .. ثم غزوة تبوك لما بلغ المسلمين من أن الروم جمعت الجموع تريد غزوهم

فى بلادهم ، وقد أعقبها فتح الشام والقسم الاعظم من دولة الروم » (١)

فهذا حق السيف كما استخدمه الاسـلام فى أشد الاوقات حاجة اليه ..

حق السيف مرادف لحق الحياة ، وكلما أوجب الاسلام فانما أوجبه لانه مضطر اليه أو الى التخـلى عن حقه فى الحياة وحقه فى حرية الدعوة والاعتقاد . فان لم يكن درءا للعدوان والافتيات على حق الحيـاة وحق الحرية فالاسلام فى كلمتين هو دين السلام ..

وأيسر من استقصاء الحروب وأسبابها فى صـدر الاسلام أن نلقى نظرة عامة على خريطة العالم فى الوقت الحاضر لنعلم أن السيف لم يعمل فى انتشار هذا الدين الا القليل مما عمله الاقناع والقدوة الحسنة . فان البلاد التى قلت فيها حروب الاسلام هى البلاد التى يقيم فيهـا اليوم أكثر مسلمى العالم ، وهى بلاد أندونيسية والهند والصين وسواحل القارة الافريقية وما يليها من سـهول الصحارى الواسعة . فان عدد المسـلمين فيها قريب من ثلثمائة مليون ، ولم يقع فيها من الحروب بين المسـلمين وأبناء تلك البلاد الا القليـل الذى لا يجدى فى تحويل الآلاف عن دينهم بله الملايين ، ونقارن بين هـذه البـلاد والبلاد التى اتجهت اليها غزوات المسلمين لاول مرة فى صدر الدعوة الاسلامية : وهى بلاد العراق والشام . فان عدد المسلمين فيها اليوم قلما يزيد على عشرة ملايين يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين أو أشباه الوثنيين . ومن المفيد فى هذا الصدد

---

(١) المحاضرة السابعة من المحاضرات الاسلامية

أن نعقد المقارنة بين البلاد التى قامت فيها الدولة الاسلامية والبلاد التى قامت فيها الدول المسيحية من القارة الاوربية. فلم يبق في هذه القارة أحد على دينه الاول قبل دخول المسيحية . وقد أقام المسلمون قرونا فى الاندلس وخرجوا منها وأبناؤها اليوم كلهم مسيحيون ...

وأنفع من الاحصاءات والمقارنات أن تتفهم دخيلة الدين من روحه التى تصبغ العقيدة بصبغتها فيما يعيه المتدين على قصد منه أو فيما ينساق اليه بوحى من روح دينه كأنه عادة مطبوعة لا يلتفت الى قصده منها . وروح الاسلام فى العلاقة بين المسلم وسائر بنى الانسان تشف عنها كل آية وردت فى القرآن الكريم عن حكمة الاجتماع من أكبر الجماعات الى أصغرها ، ومن جماعة النوع الانسانى فى جملته الى جماعة الاسرة ، وطبيعة الاجتماع فى كل مخلوق انسانى منذ تكوينه فى أصلاب آبائه وأجداده . فما هى حكمة الاجتماع فى الشعوب والقبائل ؟ وما هى حكمة الاجتماع فى بنيان الاسرة ؟ وما هى حكمة الاجتماع فى خلق الانسان فى بطن أمه ؟ ..

حكمتها كلها فيما يتعلمه المسلم من كتابه أنها وشيجة من وشائج المودة والرحمة ، وسبيل الى التعارف والتقارب بين الغرباء

فالتعارف هو حكمة التعدد والتكاثر بين الشعوب والقبائل من أبناء آدم وحواء :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا). (سورة الحجرات)

والمودة والرحمة هى حكمة الاجتماع فى الاسرة :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) .

(سورة الروم)

والنسب هو حكمة الاجتماع من خلق الانسان منذ تكوينه فى صلب ابيه :

(وَهُوَ الذِى خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَه نَسَباً وَصِهْراً).

(سورة الفرقان)

والمؤمنون اخوة ، والناس اخوان من ذكر وانثى ، وشر ما يخشاه الناس من رذائلهم انها تلقى بينهم العداوة والبغضاء :

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ) (سورة المائدة)

والعداوة والبغضاء هما الجزاء الذى يصيب الله به من ينسون آياته ويكفرون بنعمته ، وهما الجزاء الذى اصاب الله به اهل الكتاب بعد ما جاءهم من البينات فضلوا عن سوائه ولم يبق لهم من دينهم غير اسم يدعونه :

(وَمِنَ الذينَ قَالُوا إِنَّا نَصارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

(سورة المائدة)

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (سورة المائدة)

***

ولا خفاء بروح الدين كما توحيه الى وجدان المسلم هذه الآيات وما في معناها من كلمات كتابه . فانها تلهمه أن المودة والرحمة حكمة الله فى خلقه ، وأن العداوة والبغضاء عقاب لمن يضلون عن حكمته ومغبة السوء التى تستدرجهم اليها الرذيلة والمعصية . ومن آمن بالله على هدى هذا الدين فقد آمن باله يرضيه من عباده أن يسلكوا سبيل المودة والسلام ويسخطه منهم أن يسلكوا سبيل العداوة والعدوان ..

***

وقد تعددت آراء المشترعين وأصحاب الآراء فى القوانين بين طائفة ترى أن الانسان مطبوع على الشر وأن حالة الحرب هى الحالة الطبيعية بين الناس حتى تتقرر بينهم حالة غيرها من أحوال المصالحة والتراضى على المسالمة والامانة ، وطائفة ترى أن الانسان ـ بطبعه ـ مخلوق وديع يدفعه الخوف والحاجة الى الشكاسة فيتعدى على كره ويصد

العدوان على كره وتجرى عادته على وفاق ما تمليه عليه معيشة الامن والرخاء أو معيشة القلق والاضطراب

والاسلام دين ينظر الى هذه المشكلة نظرة الدين ولا يعنيه الواقع ليجعله مثلا مختارا للعلاقة بين الناس . بل يعنيه الواقع ليختار لهم ما هو أجدر باختيارهم وأصلح لشئون أفرادهم وجماعاتهم ، ويروضهم على أن يكونوا خيرا من الواقع فيما يطيقونه وينفعهم أن يطيقوه

فالعلاقة بين الناس فى دستور الاسلام علاقة سلم حتى يضطروا الى الحرب دفاعا عن انفسهم او اتقاء لهجوم تكون المبادرة فيه ضربا من الدفاع . فالحرب يومئذ واجبة على المسلم وجوبا لا هوادة فيه ، وهو — مع وجوبها — مأمور بأن يكتفى من الحرب بالقدر الذى يكفل له دفع الاذى ، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة الى الصبر والمسالمة ويتكرر هذا الامر كلما تكرر الاذن بالقتال والتحريض عليه، وكل تحريض أمر به ولى الامر فى القرآن فهو التحريض على تجنيد الجند وحض العزائم على حرب لم يبق له محيد عنها ، ولا غرض له منها الا أن يكف بأس المعتدين عليه وعلى قومه ، ثم لا اكراه له فى هذه الحرب على متطوع لقتال أو نجدة وهذا هو موضع التحريض فى قوله تعالى :

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً) . (سورة النساء)

أما اوامر القتال فمن آياتها فى القرآن الكريم ماورد فى سورة البقرة :

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ)

وفى سورة النحل :

(أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)

وفى سورة الانفال :

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ)

وفى سورة النساء :

(فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً)

***

أما المشركون الذين لم يصدوا المسلمين عن دينهم ولم

يبادئوهم بالعدوان فلا حرج على المسلم أن يبر بهم ويعدل في معاملتهم وأن يعاهدهم ويوفى لهم عهدهم الى مدته والى أن ينقضوه مخالفين بما عاهدوا عليه ان لم يكن له أجل محدود :

(لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الممتحنة)

***

(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

(سورة التوبة)

ولم يجعل الاسلام وفاء المعاهدين بعهودهم تدبيرا من تدبيرات السياسة أو ضرورة من ضروراتها التى تجوز فيها المراوغة عند القدرة عليها . بل جعله امانة من أمانات العقل والضمير وخلقا شريفا يكاد الخارج عليه ان يخرج من آدميته ويسلك فى عداد السائمة التى لا ملامة عليها :

(وَأَوْفوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً)
(سورة النحل)

***

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ . الذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ)
(سورة الانفال)

***

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)
(سورة التوبة)

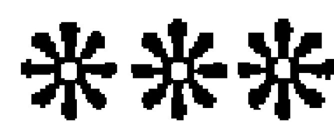
***

ومن توكيد الاسلام لواجب الوفاء بالعهد أنه يحرم على المسلمين أن يستجيبوا القوم منهم يستنصرونهم فى الدين اذا كان بينهم وبين أعداء المستنصرين لهم عهد وميثاق :

(وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ)
(سورة الانفال)

ولا يبيح الاسلام لولى الامر أن يستخدم السيف فيما شجر بين المسلمين من نزاع يخاف أن يفضى بينهم الى القتال الا اذا بغت طائفة منهم على الاخرى فله بعد استنفاد الحيلة فى الاصلاح بينهما أن يقاتل الفئة الباغية حتى تكف عن بغيها :

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأخْرَى فَقَاتِلوا الَّتِي تَبْغِي حَتَى تَفِيَ إِلَى أمرِ اللهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (سورة الحجرات)



وفيما عدا العلاقة التى تنعقد بين المسلمين وأبناء دينهم أو بينهم وبين المعاهدين لا تكون الامة التى لا ترتبط بالدين ولا ترتبط بالعهد الا عدوا يخاف ضرره ولا يؤمن جانبه الا على وجه من الوجهين : أن يقبل الدين أو يقبل الميثاق

والاسلام يسمى بلاد هذا العدو « دار حرب » لانها بلاد لا سلام فيها للمسلم ، ويفرق بين حقوقها وحقوق المسلمين أو حقوق المعاهدين ، ولا يعترف لها بهذه الحقوق أو تلك الا أن تدين بالاسلام أو تقبل الصلح على عهد متفق عليه ..

وليس معنى هذا التقسيم الطبيعى فى الحقوق أن الاسلام يكره القوم على قبوله اذ أن نص القرآن الكريم يمنع الاكراه فى الدين :

(لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (سورة البقرة)

ولكن معنى تقسيم البلاد الى بلاد سلم وبلاد حرب ان بلاد الحرب لا تدخل فى السلم الا اذا قبلت الدين وتعاهدت على الصلح بقتال أو بغير قتال .. وتأبى طبيعة الامور تقسيما لحقوق السلم والحرب غير هذا التقسيم

ومتى وقعت الحرب فلا قتال لاحد غير المقاتلين ولو كان من بلاد الاعداء ، ولم يكن النبى عليه السلام وخلفاؤه يتركون المقاتلين من المسلمين المتوجهين الى الحرب بغير وصاية مشددة يحاسبونهم عليها فيما يتبعونه من خطة قبل الرعايا المسالمين من أعدائهم ، وخلاصة هذه الوصايا كما أجملها الخليفة الاول أبو بكر الصديق : « ألا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم للصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له »

وتشتمل تعاليم الاسلام على أحكام مفصلة لكل حالة من الحالات التى تعرض بين المتحاربين فى اثناء القتال او بعده . وهى حالات الامان والاستئمان والمهادنة والموادعة والصلح على معاهدة

فالامان هو « رفع استباحة الحربى ورقه وماله حين قتاله أو العزم عليه »

والاستئمان هو « تأمين حربى ينزل لامر ينصرف بانقضائه » ..

والمهادنة « عقد لمسلم مع حربى على المسالمة مدة ليس هو فيها على حكم الاسلام » ..

والموادعة « عقد غير لازم محتمل النقض ، للامام أن ينبذه حسب قوله تعالى : « وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » ..

ويشترط فى حالة النبذ أن يبلغه القائد الى جنده والى الاعداء وهم على حكم الامان حتى يعلموا بانتهاء الموادعة (١) ..

والوفاء بالشرط المتفق عليه فى كل حالة من هذه الحالات فريضة مؤكدة بنصوص القرآن الكريم ونصوص الاحاديث النبوية ، تقدمت بها الامثلة فى معاهدات النبى عليه السلام ومعاهدات خلفائه رضوان الله عليهم ، وأشهرها عهد الحديبية قبل فتح مكة وعهد بيت المقدس بعد فتح الشام ..

فالنبى عليه السلام قد اتفق على عهد الحديبية بعد هجرته من مكة بست سنوات .. وكان يريد الكعبة معتمرا مع طائفة من صحبه فتصدى له المشركون وحالوا بينه وبين البيت الحرام ، فقال النبى عليه السلام لرسولهم : « انا لم نجيء لقتال احد ، ولكن جئنا معتمرين . وان قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس .. فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا والا فقد حموا ، وان هم ابوا فوالذى نفسى بيده لاقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى وينفذن الله أمره » . ثم أنفذت قريش رسولها

---

(١) تراجع البدائع للكاسانى وشرح حدود الامام الاكبر للتونسى وزاد المعاد لابن القيم

سهيل بن عمرو العامرى فاتفق مع النبى عليه السلام على أن يرجع النبى وصحبه فلا يدخلوا مكة تلك السنة ، فاذا كانت السنة القادمة دخلوها فأقاموا فيها ثلاثا بعد أن تخرج منها قريش ، وتهادنوا عشر سنين لا حرب فيها ولا أغلال ولا أسلال ، ومن أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده اليهم ، ومن أتى قريشا من المسلمين لم يردوه ، واستكثر المسلمون هذا الشرط فقال عليه السلام : نعم انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فيجعل الله له فرجا ومخرجا . ومن أحب منهم أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ..

ثم أخذ النبى عليه السلام فى املاء العهد وابتدأه «بسم الله الرحمن الرحيم » فأبى سهيل بن عمرو أن يبدأ العهد بهذه الفاتحة الاسلامية وقال بل يكتب : باسمك اللهم . فأجابه النبى الى ما طلب ومضى يملى قائلا : هذا ما قاضى عليه رسول الله . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك ولا قاتلناك ، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك ..

وبينما هم يكتبون العهد لم يفرغوا منه أقبل أبو جندل ابن سهيل بن عمرو يرسف فى القيود فرمى بنفسه بين المسلمين ، فقال سهيل : هذا يامحمد أول ما أقاضيك عليه وأخذ بتلابيب ولده . فقال النبى لابى جندل :«يا أبا جندل ! قد لجت القضية بيننا وبينهم ولا نغدر ..» ومضى النبى وصحبه على رعاية عهدهم حتى نقضته قريش وأمدت بنى بكر بالسلاح والأزواد فى حربهم لبنى كعب فأصبح المسلمون فى حل من نقض ذلك العهد ، وعمدوا الى مكة فاتحين ففتحوها بعد ذلك بقليل

أما عهد بيت المقدس فذلك هو العهد الذى كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل ايليا ، وهو أشهر العهود فى

صدر الاسلام بعد عهد الحديبية ، وفيه يقول الخليفة العظيم : « انه أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، وانه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار على أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وأن يخرجوا منها الروم واللسوت ، ومن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام معهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية .. ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينه وبين صلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم »

وقد حدث أثناء التعاهد على هذا الصلح حادث كحادث أبي جندل عند كتابة صلح الحديبية ، فحان موعد الصلاة والخليفة العظيم فى كنيسة بيت المقدس ، ولا مانع عند المسلم من اقامة الصلاة فى الكنائس أو فى معابد الاديان غير الاسلام . اذ أينما تكونوا فثم وجه الله ، ولكنه أشفق أن يقيم الصلاة فى مكان فيحرص المسلمون بعده على احتجاز ذلك المكان الذى صلى فيه أمير المؤمنين . فخرج من الكنيسة وصلى فى جوارها ولم يبح لنفسه أن يورط اتباعه فى ذريعة يتعللون بها لمخالفة عهد من عهوده

وكلا العهدين ، عهد مكة وعهد بيت المقدس ، يفند زعم الزاعمين أن الاسلام يعتمد على الاكراه فى نشر دعوته وثانيهما — وهو عهد الصلح فى الشام بعد هزيمة دولة الروم — واضح فى بيان الشروط التى يعرضها الاسلام على المعاهدين بعد الحرب التى ينتصر فيها . فمن أحب أن يقيم فى مكانه فله أن يقيم وهو آمن على نفسه ودينه

وحريته ، ومن أحب ان يرحل الى بلاد الدولة المنهزمة فله أن يرحل كما أراد وهو آمن فى طريقه ، ومن دان بالاسلام فهو مقبول فى زمرة المسلمين ، ومن بقي على دينه فليس عليه الا أن يؤدى الجزية فتحميه الدولة مما يحمى منه سائر رعاياها وله ما لهم وعليه ما عليهم الا الحرب ، فانها لا تطلب منه فى خدمة دين غير دينه

وشرع الاسلام القتال على درجات فلم يشرع حالة الا وضع لها حدودها وبين للمسلمين ما يجب عليهم فيها ، وتم له فى نحو عشرين سنة قانون دولى كامل لأحوال الحرب مع المقاتلين على اختلافهم ، فأتم فى القرن السادس ما بدأت فيه أوربا فى القرن السابع عشر ، ولم يزل قاصرا عن غايته مهملا فى ساعة الحاجة اليه

بدأ النبى عليه السلام دعوته واستجاب له من استجاب من قومه وهو لا يأذن بقتال . فلما اشتد به وبأصحابه ما أصابهم من أذى المشركين فعذبوهم وفتنوهم وأخرجوهم من ديارهم كان ذلك بداءة الاذن بمقاتلة المعتدين فى الحد الذى يكفى لدفع العدوان ، كما تقدم ، ولا يبقى بعده آثر للضغينة والانتقام :

(أُذِنَ لِلّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ) . (سورة الحج)

وكان النبى صلوات الله عليه يعاقب فى حروبه بمثل ما عوقب به ولا يجاوزه الى اللدد فى الخصومة ، فاذا انتهت الحرب على عهد من العهود وفى به وأخذ على اتباعه أن يفوا به فى غير أغلال ولا أسلال ، أى فى غير خيانة ولا

مراوغة . وثابر على الوفاء فى جميع عهوده ، وثابر أهل الجزيرة من المشركين واليهود على الغدر بكل عهد من تلك العهود ، وعقدوا النية سرا وجهرا على اعنات المسلمين واخراجهم من ديارهم .. لا يحرمون حراما فى مهادنتهم ولا فى مسالمتهم ولا يزالون يؤلبون عليهم الاعداء من داخل الجزيرة وخارجها . وأصروا على ذلك مرة بعد مرة حتى أصبحت معاهداتهم عبثا لا يفيد ولا يغنى عن القتال فترة الا ردهم اليه بعد قليل ، ووضح من لدد القوم واصرارهم عليه أنهم لا يهادنون الا ليتوفروا على جمع العدة وتأليب العدو من الخصوم والاحلاف ، فبطلت حكمة الدعوة الى العهد ولم يبق للمسلمين من سبيل الى الامان معهم الا أن يخرجوهم من حيث ارادوا أن يخرجوا المسلمين ولا يبقوا أحدا غير مسلم فى تلك الجزيرة التى أبت أن تكون وطنا للمشركين وأحلافهم دون سواهم . فانتهت حكمة التخيير بين المعاهدة والقتال ، ووجب الخيار بين أمرين لا ثالث لهما ، وهما الجوار على الاسلام أو على الخضوع لحكمه ، فلا جوار فى الجزيرة لاحد من المشركين وأحلافهم اليهود الا أن يدين بالاسلام أو بالطاعة

« وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ » (سورة البقرة)

وقال النبى عليه السلام يومئذ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن قالها عصم منى ماله ودمه الا بحقها وحسابهم على الله »

وفى هذا المعنى ينص القرآن الكريم على محاربة أهل الكتاب الذين تحالفوا مع المشركين ونقضوا العهود المتوالية بينهم وبين النبى كما تقدم فى ذكر الغزوات والسرايا :

(قَاتِلوا الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَاحَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) . (سورة التوبة)

والوجه الوحيد الذى ينصرف اليه هذا الحكم أنه حيطة لا محيد عنها لضمان أمن المسلمين مع من يجاورونهم فى ديارهم ويتآمرون على حربهم ، فلا يحل للمسئول عن المسلمين أن يكل أمانهم الى عهد ينقض فى كل مرة . ولكنه يأمن عليهم فى جوار قوم مسلمين او قوم مطيعين للدولة يؤدون لها حقها ، فهم اذن لا يملكون من الاستقلال بالعمل فى طاعة تلك الدولة ما يملكه المعاهد المؤمن على عهوده

***

وعلى الجملة شرع الاسلام حكما لكل حالة يمكن أن توجد بينه وبين جيرانه على الحذر أو على الامان . فنص على حالة الدفاع والعدوان ، ونص على الدفاع الواجب فى حدوده على حسب العدوان ، ونص على التعاهد والمسالمة الى مدة أو الى غير مدة ، ولما بطلت جدوى المعاهدة لم تبق له خطة يأخذ بها أعداءه غير واحدة من اثنتين : الحرب أو الخضوع للاسلام ايمانا به أو طاعة لموالاته ، ولم يجعل الايمان بالاسلام حتما على أعدائه المصرين على العداء . بل جعله خيارا بين امرين ، ومن سام الاسلام ان يرضى بغير هذين الامرين فقد سامه ان يرضى بحالة ثالثة لا يرضاها أحد وهى حالة الخوف الدائم من عدو متربص

به لا تجدى معه المهادنة ولا يؤمن على عهد من العهود

وانقضى عهد النبى صلوات الله عليه والمسلمون يعلمون حدودهم فى كل علاقة تعرض لهم بين أنفسهم وبينهم وبين جيرانهم : علاقة المودة والوئام ، وعلاقة الشغب والفتنة . وعلاقة الحرب أو علاقة التعاهد أو علاقة الموادعة والمهادنة أو علاقة الامان والاستئمان • وهذه العناية باقامة الحدود وبيان واجباتها هى وحدها حجة قائمة للاسلام على خصومه الذين يتهمونه بأنه دين الاكراه الذى لا يعرف غير شريعة القوة أو شريعة السيف . فمن كان لا يعرف غير شريعة السيف فما حاجته الى بيان لكل حالة من حالات السلم والحرب بأحكامها وواجباتها وحدودها وتبعاتها ؟ لا حاجة به الى حد من هذه الحدود ما دام معه السيف الذى يجرده متى استطاع ، ولا حاجة به الى حد من هذه الحدود ما دام عزلا من السيف مغلوبا على كل حال • فانما يبحث عن تلك الحدود من يضع السيف فى موضعه ويأبى أن يضعه فى موضع المسالمة والاقناع ، وكذلك كانت شريعة الاسلام منذ وجب فيه القتال ، ولم يوجبه الا البغى والقسر والعنت والاخراج من الديار

***

وبينما كانت هذه الحدود معلومة مقسومة بأقسامها وتبعاتها فى شريعة الاسلام كانت العلاقة بين الامم فى القارات الثلاث فوضى لا تثوب الى ضابط ولا يستقر بينها السلام الا حيث يمتنع وجود المحارب فيمتنع وجود الحرب بالضرورة التى لا اختيار فيها ••

كانت شريعة الرومان أن كل قوى يجاورك عدو تقضى عليه . فلم يكن للقارة الحديثة (التى سموها بقرطاجنة) من ذنب الا انها دولة قوية تعيش على العدوة الاخرى

من بحرهم الذى أغلقوه دون غيرهم Mare clausum أو الذين سموه بحرنا وحرموا على غيرهم أن يشاركهم فيه Mare Nostrum وكذلك كانت شريعة فارس فى الشرق مع من يجاورها ، وكذلك كانت شريعة الاسكندر وخلفائه على دولته الواسعة، وكذلك بقيت شريعة الدول فى القارة الاوربية الى القرن السابع عشر أول عهدهم بالبحث فى الشرائع الدولية وحقوق الحرب والسلام • فلم يلتفتوا قط الى البحث فى الحقوق يوم كان الحق كله للسيف تتولاه دولة واحدة تخضع من حولها من الرعايا المتفرقين ولا تنازعها دولة أخرى فى ولايتها عليهم واستبدادها بأمرهم : لم تكن هناك شريعة فى الحقوق يوم كانت شريعة السيف كافية مغنية لمن يملكه اذا غلب ولمن يخضع له اذا حقت عليه الغلبة • فلما انقسمت الدولة الكبرى فى القارة الاوربية تفرقت الدول شيعا وتنازعت العروش والتيجان تنازع الحطام الموروث لا تنازع الحقوق والواجبات بين الامم والشعوب • ويومئذ – فى أوائل القرن السابع عشر – بدأت بحوثهم فى حدود الحرب والسلام وتصدى فقيههم الكبير جروتيوس Grotius لاستنباط هذه الحدود من وقائع الاحوال فيما سماه بقانون الحرب De Jury Belt ، ولا يزال بينهم أساس المراجع الى العصر الحديث . لم يحدث فيه جديد ذو بال الا انهم يرجعون عنه الى الوراء عدة قرون ، فيبيحون اليوم ما كان محظورا من اقتحام الحرب بغير علة أو بلاغ

وان القارىء المسلم ليبتسم حين يقرأ فى مراجع تلك البحوث الفجة انها بحوث فى شريعة تسرى على العالم الأوربى الذى كان معروفا يومئذ باسم العالم المسيحى Christendom ولا تسرى على العالم المحمدى Mohammedenism لانه عالم جهالة لا يفقه هذه الحدود ولا يلتزم بواجباتها وتبعاتها .. فمن دواعى السخرية حقا ان يقال هذا عن

دين يتناول المتعلم المبتدىء فيه مرجعا من مراجع أصوله التى فرغ البحث فيها منذ القرن السادس للميلاد فيرى فيه احكام الاعلان والتبليغ والنبذوالمعاهدةوالصلحوالذمة والهدنة والموادعة والسفارة والوساطة ، ويرى لكل حكم من الاحكام واجباته على المسلم فى حالتى ابرامه ونقضه وواجبات الامام والرعية فيه مفصلة مرددة كأنها صيغ العقود التى يتحرى فيها الموثقون غاية التوكيد والتقييد منعا للاغلال والاسلال كما جاء فى أول عهد بين الاسلام والمشركين . فان القارىء المسلم حين يمر بذلك السخف المضحك فى بواكير القانون الدولى عند القوم ليحس كأنه على مشهد من الاعيب أطفال يتواصون فيما بينهم على كتمان أسرارهم عن كبارهم .. لان هؤلاء الكبار الخبثاء اغرار لا أمان لهم على تلك الاسرار !

***

ومن البديهى أن الاديان تعليم يبين للناس مواطن التحليل والتحريم ، وليست هى بالقوى المادية التى تجرهم من أعناقهم الى الخير وتحيطهم بالسدود لتصدهم عن مقارفة الشر ، وليست هى بترياق الساعة الذى يقال فى أساطير السحر انه يبرىء الادواء لساعته ويخلفها بالصحة السابغة والشباب الخالد .. وقصاراها من الهداية انها كالمصابيح التى تنير المسالك امام السالك وتبطل العذر لمن يسلك أسوأ الطريقين على علم بما فيه من السوء والعوج وما فى غيره من السداد والاستقامة ، وهى على هذا كسب عظيم لبنى الانسان يضيرهم أن يفقدوه . فالناس يخالفون القوانين والآداب كل يوم ولا يقال من أجل هذا انهم لم يكسبوا شيئا بتدوين القوانين والمطالبة برعايتها ، وانهم فى الزمن الذى يخالفون فيه القانون لا يزالون كما كانوا

فى زمن الهمجية السائمة لا يميزون بين المحرم والمباح ولا يعرفون أنهم خالفوا القانون أو لم يخالفوه

والمسلمون قد تعلموا أصول « القانون الدولى » قبل ظهور القانون الدولى فى الغرب بأكثر من عشرة قرون ، فخالفوه كثيرا فيما بينهم وخالفوه كثيرا فيما بينهم وبين غيرهم ، وتمحلوا المعاذير احيانا لتسويغ الحرب التى لا تسوغ ونقض العهود التى يوصيهم الدين برعايتها ، وظهر بينهم المجرمون الدوليون كما يظهر المجرمون والعصاة مع كل قانون وكل عرف مأثور. الا أن هؤلاء المجرمين ـ كثروا أو قلوا ـ لم يبطلوا فضيلة دينهم ولم ينسخوا أحكامه بعصيانهم ، وذهبوا وبقيت تلك الاحكام ماثلة أمام ولاة الامر يطيعونها أو يسول لهم الطمع أن يتعدوا حدودها ، فلا يجسروا على تعديها جهرة الا أن يتمحلوا لها معاذيرها ويبدلوا معالمها ، ومن لج به البغى فتعدى حدودها ولم يكترث لعواقب العدوان لم ينج من تلك العواقب فى مصيره وانتهى به البغى الى نهاية كل جامح عسوف مستبد برأيه

ولما تجاورت دول الاسلام ودول الغرب حول البحر الابيض المتوسط كانت شريعة الدول الغربية فى القانون الدولى هى الشريعة التى خلفتها لها دولة الرومان :

من جاورك فهو عدوك تخضعه أو يخضعك وتبدأ بالحرب متى استطعت أو يبدؤك هو بالحرب متى استطاع ...

وكانت هذه الشريعة على أشدها فى معاملتهم لبلاد المسلمين لانهم أفردوها بعداء واحد فوق كل عداء ..

واذا وضع الميزان بين هذه الدول فى هذه الفترة ذهبت كل غدرة من جانب الدول الاسلامية بغدرة مثلها من جانب الدول الغربية وبقيت فى كفة الغرب غدرات كثيرة لا نظير لها ولا مسوغ لها غير شريعة العداء الدائم فى جميع الاحوال ..

والترك العثمانيون هم مضرب المثل عند الغربيين للشريعة التى تجوز فى معاملات الغرب ولا تجوز فى معاملات الامم الاخرى . ومنهم من يخلط بين كلمة التركى وكلمة المسلم فيظن أن المسلمين كلهم من الترك ، ويكتب كتابهم يومئذ عن قسوة التركى وذمة التركى ولباس التركى ولغة التركى وهو يشمل بالكلمة جميع المخالفين للاوربيين من المسلمين . وحقهم فى عرف القوم انهم لا حق لهم معروف بين حقوق الادميين

ولكن هؤلاء الترك لم يكن من شريعتهم قط أنهم يعاملون اناسا سلبت حقوقهم واستبيحت دماؤهم وأموالهم لهم بلا سبب ولا مسوغ غير الخلاف فى الدين . وطالما هم سلاطين الترك باكراه المسيحيين فى بلادهم على الاسلام أو تستباح دماؤهم وأموالهم فنهاهم عن ذلك شيوخ الاسلام وقيدوهم بالفتاوى الشرعية التى لا تبيح للسلطان المسلم أن يقتل ذميا أو يقتل مخالفا يقبل أداء الجزية بعد تخييره بينها وبين الاسلام .. ولولا هذه الفتاوى لاستطاع سلاطين الترك أن يحولوا أوربة الشرقية الى الدين الاسلامى فى جيل واحد أو جيلين ، ولولا ان الفتوى الشرعية كانت لها رهبتها فى ضمير السلطان المسلم لما اكترث لها أولئك السلاطين الاقوياء المتحكمون فى ممالكهم ولا سيما أيام الفتوح التى أضافت الى قوتهم عظمة المجد وخيلاء الظفر والسطوة . فقد كانت رهبة الفتوى من العالم العارف بأوامر الدين ونواهيه تخيف بطل الحرب الذى لا تخيفه الجيوش والمعامع لانها رهبة من الله سيد السادة وملك الملوك القادر على أن يخذل المنتصر وينصر المخذول ، بل كانت هذه الرهبة تزلزل العروش تحت أربابها وتطيح بهم من فوقها ، وكثيرا ما لجأ اليها المنكرون لحكم السلطان فاستندوا اليها فى جواز خلعه ، وكثيرا ما لجأ

اليها السلاطين أنفسهم لاجازة ولاية بعدهم لاتجيزها لهم قوة السيف والمال ، أو لاجازة العقاب الذى يحلونه بالعصاة ولابد له من سند شرعى يسوغه لولى الامرالقادر عليه ، وما استطاع السلطان ان يوقع بجمع « الانكشارية » المتمردين على الاصلاح الا بسند من تلك الفتاوى يحتمى به من غضب الله وغضب رعاياه

ومن أضاليل فقهاء الغرب فى القانون الدولى أنهم أسقطوا حقوق الترك فى المعاملات الدولية لانهم مغيرون على البلاد الاوربية فى غير مسوغ للاغارة عليها ، وهم ـ أى هؤلاء الفقهاء ـ لا يشق عليهم أن يعلموا مسوغ تلك الاغارة لو كان لهم ميزان واحد للمعاملات بين الدول يزنون به حقوقها جميعاً على سواء • فان العالم الاوربى ـ باتفاق ملوكه وأمرائه وبابواته ـ قد شهر الحرب على العالم الاسلامى فى حروبه الصليبية قبل زحف الترك العثمانيين على اسيا الصغرى فى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد وكانت أخبار مذابح المسلمين فى بيت المقدس وفى المغرب الاندلسى تجوب افاق القارة الافريقية الى أقصاها جنوباً ، وتتغلغل فى انحاء العالم الاسلامى من الحجاج والمهاجرين فى كل عام ، فلا تدع مسلماً فى الارض بمعزل عن الشعور بحالة الحرب الداهمة لانه يعلم أنها مشهورة عليه • ولعل فقهاء الغرب يجهلون عمق هذا الشعور الذى ملأ جوانب العالم الاسلامى عدة قرون لانهم يجهلون مدى انتشار الخبر الذى يهم شعوب المسلمين على افواه القوافل المترددة فى آسيا وافريقيا من الحجاج والمهاجرين • وعمق هذا الشعور هو الذى قوض دولتى الاسبان والبرتغال فى آسيا قبل سائر المستعمرين لانهما وصلتا الى الشرق الاسلامى مسبوقتين بسمعة العداوة التى لا عداوة مثلها لشعوب الاسلام • أما أن يعلم فقهاء الغرب عمق هذا الشعور فى

بلاد العالم الاسلامى ثم يستكثروا على شعب من شعوبه أن ينظر الى الغرب نظرته الى محارب يقتص منه فلا عذر له الا الاثرة العمياء التى تجيز لصاحبها أن يقتحم بلاد غيره ثم لا يفهم من اقتحام بلاده بعد ذلك الا أنه عدوان بغير سابقة وبغير حجة !

وتأبى الحوادث الا أن تجىء عفوا بما ينقض دعوى هؤلاء الفقهاء عن رعاية الاسلام للقوانين والعهود ، فيطلق الغرب نفسه لقب « سليمان القانونى » على سلطان من أكبر سلاطين القسطنطينية لم يشتهر بعمل من اعماله الحربية كما اشتهر بأعماله القانونية التى أقامت المعاملات بين الغرب وبلاده على سنن التشريع والمعاهدة ، وهذه هى السنن التى اعترف بها فى ابان مجده وقوته منحا سخية للغرب فما زالت حتى أصبحت مع الضعف قيودا وأغلالا يتحكم بها المستعمرون الغربيون فى أعناق الشرقيين !

***

ونحن نكتب هذه السطور عن حقوق الامم فى الاسلام وعن حقوقها عند فقهاء الغربيين بعد أن تنبهوا الى البحث فيها منذ أوائل القرن السابع عشر ولا ندرى ما مصير هذه الحقوق من الوجهة العملية فى عالمنا الحديث

فقد تقهقرت دول الغرب فى بعض احكام القانون الدولى الى ظلمات القرون الوسطى ، واسقطت حرمته فى اخطر الحقوق وهو حق المفاتحة بالحرب او حق الاغارة على الامم بغير اعلان

وان تقدم العالم الانسانى بالقانون الدولى لهو ضرورة قاسرة ليس فيها كبير فضل من نصوص واحكام ولا كبير فضل للمقاصد والنيات . فان اشتباك العالم فى المصالح بعد اقتراب انحائه بالمواصلات وتسامع الاخبار قد خلق بين الامم علاقات مقصودة وغير مقصودة ترغم القوى على

محاسنة الضعيف ، وتجعل الخطر فى بعض أطراف الكرة الارضية محسوسا به فى ابعد اطرافها من بلاد الاقــوياء والضعفاء ..

فهذه العلاقات مرجوة الخير مبتدئة بالامم فى طريق لا يسهل عليها النكوص عنه وهى آمنة على سلامتها وسلامة العالم الانسانى فى جملته ، فاذا صح فيها رجاء العــــالم الانسانى فهو رجاء يساق الغرب فيه بســــائق الضرورة العمياء ويقل فيه فضل السعى والتدبير ، ولكنـــه رجاء يتلقاه المسلم تصديقا لايمانه بالله ولعقيدته فى حكمته . لانه يؤمن بأن التعارف بين الناس هو الحكمة الالهية من خلق الشعوب والقبائل واختلاف الاجناس والالوان

حق الإمـام

الامام فى الاسلام هو وكيــل الامة فى اقامة حــدود الله . فحقه مرادف لحق الامة ماقام بهذه الامانة . لانه يتولى الامامة لايتاء كل ذى حق حقــه ، ويملك الامر وتجب له الطاعة فيما تدعو مصلحة الامة فيه الى تشريع جديد

وطاعته مقرونة بطاعة الله ورسوله :

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ)

(سورة النساء)

وفى الحديث الشريف : « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الامير فقد أطاعنى ومن يعص الامير فقد عصانى . اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كان راسه زبيبة »

وليس للامام أن يعطل حدا من حدود الله

وليس له أن يقيم حدا منها فى غير موضعه

واقامته فى غير موضعه أن يقام حيث لاتثبت أركانه ولا تدرأ شبهاته . فالامام الذى يعطل الحد مخــالف لاوامر الله ، والامام الذى يقيم حدا ليس ثابت الاركان ولا مدروء الشبهات مخالف لاوامر الله

وعلى الامام تقع تبعة الامة كلها فى تقدير مصالحها وضروراتها وتقدير مايترتب على هـذه المصـالح والضرورات من اجراء الاحكام أو وقفها أو التوفيق بينها وبين أحوالها ...

وليس هذا من الاجتهاد الذى يجوز فيه الخلاف ، لان الاجتهاد اعتماد على تقدير لم يرد فيه نص صريح ، وأما رعاية الضرورات فقد وردت فيها نصوص صريحة لاتفهم على معنى من المعانى ان لم يكن معناها أن للاضطرار حكما غير حكم الاختيار ، وان تقدير الاضطرار فى تطبيق الشرع موكول الى ولى الامر ساعة حصوله :

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ) .

(سورة البقرة)

***

(وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَاحَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَااضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ)

(سورة الانعام)

***

(فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

(سورة المائدة)

والامر بالتفكير نص صريح فى القرآن الكريم . كهذه النصوص عن الضرورات ، فليس من الدين أن يتلقى المسلم آيات ربه فى كتابه وآيات ربه فى خلقه بغير تفكير :

(فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .

(سورة الاعراف)

***

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

(سورة النحل)

***

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

(سورة النحل)

***

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

(سورة الروم)

***

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ »

(سورة الانعام)

***

«وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» . (سورة البقرة)

***

وليس فى القرآن الكريم أمر واجب على الانسان أكثر

من واجب العقل والتفكير ، وليس فيـه نعى على قوم أشد من النعى على الذين لايعقلون ولا يتفكرون ..

فرعاية الضرورات نص صريح ، والامـر بالتعقـل والتفـكير نص صريح ، ومن قال بغـير ذلك فهو الذى يجتهد برأى من عنده يخالف صريح النصوص ..

***

اما موضع الاجتهاد الذى يطلب من الامام فى مسائل التشريع فهو الذى فصله الفقهاء فى أبواب القياس أو الاستحسان أو الاستصلاح . وقد أجملها العالم الفاضل الاستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه عن مصادر التشريع الاسلامى فيما لا نص فيه فقال « انه اذا عرضت للمكلف واقعة فيها حكم دل عليه نص فى القرآن أو السنة أو انعقد عليه اجماع المجتهدين من المسلمين فى عصر من العصور وجب اتباع هـذا الحكم ولا مجال للاجتهـاد بالرأى فى حكم هذه الواقعة . واذا عرضت واقعة ليس فيها حكم بنص ولا اجماع ولكن ظهر للمجتهد أنها تساوى واقعة فيها حكم بنص أو اجماع فى العلة التى بنى عليهـا حكم النص أو الاجماع فانه يسوى بين الواقعتين فى حكم النص لتسـاويهما فى العلة التى بنى عليها ، وهـذه التسوية هى القياس وهو أول طرق الاجتهاد بالرأى ، لان المجتهد يستنبط علة حـكم النص باجتهـاده برأيه ويتحقق من وجودها فى الواقعة المسكوت عنها باجتهاده برأيه

« واذا عرضت واقعة يقتضى عموم النص حكما فيها أو يقتضى القيـاس الظاهر المتبادر حكما فيها أو يقتضى تطبيق الحكم الكلى حكما فيها وظهر للمجتهد أن لهـذه الواقعة ظروفا وملابسات خاصة تجعل تطبيـق النص العام أو الحكم الكلى عليها أو اتباع القياس الظاهر فيها

يفوت المصلحة أو يؤدى الى مفسدة فعدل فيها عن هذا الحكم الى حكم آخر اقتضاه تخصيصها فى العلم او استثناؤها من الكلى أو اقتضاه تخصيصها فى العلم أو فهذا العدول هو الاستحسان . وهو من طرق الاجتهاد بالرأى لان المجتهد يقدر الظروف الخاصة لهذه الواقعة باجتهاده برأيه ويرجح دليلا على دليل باجتهاده برأيه

« واذا عرضت واقعة ليس فيها حكم بنص ولا اجماع ولا قياس ولا يتعارض فيها دليلان وظهر للمجتهد ان هذه الواقعة فيها أمر مناسب لتشريع حكم اى أن تشريع الحكم بناء عليه يحقق مصلحة مطلقة لانه يجلب نفعا أو يدفع ضررا فاجتهد فى تشريع الحكم لتحقيق هذه المصلحة فهذا هو الاستصلاح ، وهو من طرق الاجتهاد بالرأى لان المجتهد يهتدى الى الامر المناسب فى الواقعة برأيه ويهتدى الى الحكم الذى يبنيه عليه برأيه

« فواقعة القياس واقعة ليس فيها حكم بنص أو اجماع ألحقت بواقعة فيها حكم بنص واجماع ، وواقعة الإستحسان واقعة تعارض فى حكمها دليلان . وعدل المجتهد فيها عن حكم أظهر الدليلين لسند استند اليه فى العدول ، وواقعة الاستصلاح واقعة بكر لا حكم فيها بنص ولا اجماع ولا قياس ، وشرع فيها المجتهد الحكم لتحقيق مصلحة معينة »

***

واجتهاد الصحابة باذن النبى عليه السلام هو السند الذى يرجع اليه الفقهاء فى جواز الاجتهاد أو وجوبه عند الاضطرار اليه ، واشهر وصاياه عليه السلام لكبار صحبه وصيته لمعاذ بن جبل وعمرو بن العاص

وقد روى الامام احمد بسند مرفوع الى أصحاب معاذ من أهل حمص فقال : ان رسول الله صلى الله عليه

وسلم حين بعثه الى اليمن قال : كيف تصنع اذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله ، قال : فان لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال : اجتهد رأيى لا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله

وروى عن عمرو بن العاص أنه جاء خصمان يختصمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : ياعمرو اقض بينهما . قال : أنت أولى بذلك منى يانبى الله . قال : وان كان . قال : على ماذا أقضى ؟ قال : ان أصبت القضاء بينهما فلك عشر حسنات وأن اجتهدت فأخطأت فلك حسنة

ويلاحظ بعض رواة الاحاديث أن حديث معاذ مرفوع الى أصحاب له مجهولين فيقول الامام ابن القيم فى كتابه أعلام الموقعين ردا على هذه الملاحظة ان الحديث « وان كان عن غير مسمين فهم أصحاب معاذ فلا يضره ذلك لانه يدل على شهرة الحديث وأن الذى حدث به الحارث ابن عمرو عن جماعة من أصحاب معاذ لا واحد منهم ، وهذا أبلغ فى الشهرة من أن يكون عن واحد منهم ولو سمى . كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذى لايخفى ولا يعرف فى أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح ؟ بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم لايشك أهل العلم بالنقل فى ذلك . كيف وشعبة حامل لواء هذا الحديث ، وقد قال بعض أئمة الحديث : اذا رأيت شعبة فى اسناد حديث فاشدد يديك به ... قال أبوبكر الخطيب : وقد قيل ان عبادة بن أنس رواه عن عبد الرحمن بن غنيم عن

معاذ ، وهذا اسناد متصل ورجاله معروفون بالثقة . على أن أهل العلم نقلوه واحتجوا به فوقفنا بذلك على صحته عندهم كما وقفنا على صحة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا وصية لوارث ، وقوله فى البحر : هو الطهور ماؤه والحل ميتته ، وقوله : اذا اختلف المتبايعان فى الثمن والسلعة قائمة تحالفا وترادا البيع ، وقوله : الدية على العاقلة ، وان كانت هذه الاحاديث لاتثبت من جهة الاسناد ، ولكن لما تلقنهـا الكافة عن الكافة غنوا بصحتها عندهم عن طلب الاسـناد اها ، فكذلك حديث معاذ لما احتجوا به جميعا غنوا عن طلب الاسناد له ... »

وقد عنى الامام ابن القيم بمناقشـة مخالفيه على ديدن فقهاء الاسـلام فى التحرج من ابداء الرأى أو معارضته بغير دليل والحرص على ابراء الذمة فى كل قول يأخذون به أو ينقدونه ، فأجاب المتشككين فى اسناد الحديث بالحجة التى اصطلح عليها علماء الاثر ، ولكنه كان فى غنى عن ذلك بأدلة الاجتهاد الكثيرة من أعمـال النبى عليه السلام وأعمال الخلفاء الراشدين رضـوان الله عليهم . وفى هذا الامر خاصة ــ أمر معاذ رضى الله عنه ــ كان الامام ابن القيم فى غنى عن مناقشة السـند باثبات حقيقة واحدة لاشك فيها وهى أن معاذا ولى القضاء قبل تمـام التنزيل ولما تتنزل الآية الشريفة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا .. » ولو لم يكن من حق الامام أن يقضى بما يراه موافقا للقرآن الكريم لما أمكن أن تسند الولاية الى أحد وفى القرآن الكريم بقية يجهلها الولاة . وكيفما كان تأويل المتأولين فى جواز الاجتهاد فما يكون لصاحب رأى فى الاسلام أن يزعم أن الناس أمروا بالنصـوص

الكتابية كما تؤمر الآلات التى تساق الى عملها ولا تدرى حكمته ولا تفقه معنى لتحريم الحرام وتحليل الحلال ، وانهم لم يؤمروا بالنصوص كما يؤمر العقلاء المكلفون بالنصوص المتواترة أن يتدبروا أوامر الله ونواهيه ويتدبروا آيات الله فى الكتاب وآياته فى الارض والسماء . وبئس مثل المتعالمين الذين يحتجون بالكتب ولا يفقهونها ، فانهم كما جاء فى القرآن الكريم :

« كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ »

(سورة الجمعة)

على أن الادلة على جواز الاجتهاد ، بل على وجوبه ، كثيرة كما قدمنا فيما ثبت من أعمال النبى عليه الصلاة والسلام وأعمال خلفائه الراشدين ، ولا سيما الخليفة الثانى الذى تولى خلافة النبى فى دولة واسعة الاطراف تتطلب من الامام أن يتصرف فى تطبيق النصوص كلما عرضت له المشكلات بجديد لم يكن على عهده به قبل اتساع الدولة

فالنبى عليه السلام تدرج فى ايجاب التكليف ، وجاء فى رواية الامام أحمد : « أن وفد ثقيف اشترطوا على رسول الله الا يحشروا ولا يعشروا ولا يجمعوا ولايستعلى عليهم غيرهم ، أى لايخرجوا للغزو ولا يؤدوا الزكاة ولا يصلوا ولا يولى عليهم أحد من غير قبيلتهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم ولا خير فى دين لا ركوع فيه »

وقبل النبى منهم ما اشترطوه وهو يقول كما جاء فى رواية أبى داود انهم « سيصدقون ويجاهدون » ... أى انهم سيؤدون فرائض الاسلام متى ثبت الايمان فى

قلوبهم وشاهدوا غيرهم من المسلمين يتصدقون ويخرجون للجهاد ..

وروى أبو داود عن عبد الله بن فضالة عن أبيه قال « علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيما علمني : وحافظ على الصلوات الخمس . قلت ان هذه ساعات لى فيها أشغال فمرنى بأمر جامع اذا أنا فعلته أجزأ عنى . فقال : حافظ على العصرين ـ وما كانت من لغتنا ـ فقلت : وما العصران ؟ فقال : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ..

ومثل هذه الرواية أن رجلا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فأسلم على أنه لايصلى صلاتين فقبل ذلك منه ..

وروى البخارى عن أم عطية أنها قالت : « بايعنا صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا : الا يشركن بالله شيئا ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة يدها فقالت : أسعدتنى فلانة فأريد أن أجزيها . فما قال لها صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلقت ورجعت فبايعها . وفى رواية النسائى أنه عليه الصلاة والسلام قال : فاذهبى فأسعديها فذهبت فساعدتها ثم جاءت فبايعت (١)

وقد صنع رسول الله ذلك ترغيبا للمشركين فى الاسلام وتأليفا لقلوبهم وتدرجا بهم فى الصبر على فرائضه وفضائله وتعويدا لهم أن يطيعوا أوامر دينهم عن رغبة فيها واقتداء حسن بمن يطيعونها

وتعددت مسائل الاجتهاد التى قضى بها الفاروق فى مدة خلافته ، فأعفى من العقوبة وأسقط سهم المؤلفة

---

(١) راجع كتاب اجتهاد نبى الاسلام لصاحب الفضيلة الاستاذ عبد الجليل عيسى ابو النصر

قلوبهم ، وفرض الخراج ، وأنشأ من المكافآت والعقوبات مالم يكن معمولا به قبل خلاقته

كان يقول : لاتقطع اليد فى عذق ولا عام سنت ، وسرق غلمة لحاطب بن أبى بلتعة ناقة لرجل من مزينة وأقروا بالسرقة فقال عمر لكثير بن الصلت : اذهب فاقطع أيديهم ، ولمح فى وجوههم شحوبا فأمر بردهم وقال : أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى أن أحدهم أكل ما حرم الله عليه حوله لقطعت أيديهم. وايم الله اذ لم افعل لاغرمنك غرامة توجعك . ثم قال : يا مزنى ! بكم اريدت منك ناقتك ؟ قال بأربعمائة . قال عمر : اذهب فاعطه ثمانمائة ...

وسئل الامام أحمد بن حنبل : أتعمل به ؟ قال : أى لعمرى . لاتقطع يد السارق ان حملته الحاجة على ذلك والناس فى مجاعة وشدة

واسقط عمر سهم المؤلفة قلوبهم ، وكان النبى عليه السلام قد أعطى أبا سفيان والاقرع بن حابس وعباس بن مرداس وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن كل واحد منهم مائة من الابل . وطلب عيينة بن حصن والاقرع بن حابس أرضا من أبى بكر الصديق فكتب لهما بها . فلما رأى عمر الكتاب مزقه وقال : ان الله أعز الاسلام وأغنى عنكم . فان ثبتم عليه والا فبيننا وبينكم السيف

ومن سوء الفهم أن يقال ان الفاروق خالف النص فى هذه القضية ، وانما يقال انه اجتهد فى فهم النص كما ينبغى وانه بحث عن المؤلفة قلوبهم فلم يجدهم ، لأن تأليف القلوب انما يكون مع مصلحة للاسلام والمسلمين ، فان لم يكن تأليف لم يكن هناك مؤلفة يستحقون العطاء . ولو أن عيينة والاقرع وأصحابهما سئلوا يومئذ : أهم

من المؤلفة قلوبهم يستحقون العطاء لانهم ضعاف الايمان لما قبلوا أن يثبتوا فى ديوان العطاء

ولما فتحت أرض الجزيرة وما وراءها لم يشــأ أن يقسمها وقال : كيف بمن يأتى من المسلمين ؟ يجد الارض قد قسمت وورثت عن الآباء . ماهذا برأى . ثم أرسل الى عشرة من الانصار وقال لهم : انى لم أزعجكم الا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أمركم ... قد رأيت أن أحبس الارضين بعلوجهـا وأضـع عليهم الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعـدهم . أرأيتم هـذه الثغور ؟ لابد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ؟ لابد لها أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم . فمن أين أعطى هؤلاء اذا قسـمت الارضين والعلوج ؟ فقالوا جميعـا : الراى رأيك ، فنعم ماقلت ومارأيت . ان تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم يتقوون به ــ رجع أهل الكفر الى مدنهم

وقد أخذ عمر بتمييز السابقين الى الاسلام بالمكافأة على الذين تبعوهم كرها ولم يشـهدوا من الغزوات ماشهدوه . وانفذ فتوى على رضى الله عنه حين أفتى بمعاقبة شارب الخمر بعقوبة القاذف لأن المخمور لايملك لسـانه اذا سـكر وهذى ، وأمضى كثيرا من المكافآت والعقوبات على هذا القياس

ولم يتحرج الخليفة الاول من الاجتهاد بالرأى عنـد وجوبه ، وانما كثر الاجتهاد فى عهد الخليفة الثانى لكثرة دواعيه ، وكان الصديق يقدم على الاجتهاد أحيانا حين يحجم عنه صاحبه كما حدث فى حروب الردة حيث أمر

الصديق بحرب مانعى الزكاة وتردد عمر فى جواز حرب المسلم الناطق بالشهادتين

وسئل الصديق عن الكلالة فقال : انى سأقول فيها برأيى فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمنى ومن الشيطان . أراه ما خلا الوالد والولد

واجتهد عثمان وعلى كما اجتهد ابو بكر وعمر رضوان الله عليهم . فمن اجتهاد عثمان أنه يأمر بكتابة المصحف على حرف واحد منعا لاختلاف الألسنة فى القراءة ، ويوشك أن يكون لعلى رضى الله عنه رأى فى كل معضلة عرضت للخلفاء من قبله ، ربما رأى الرأى ثم عدل عنه ثم عدل عن عدوله كما حدث فى فتواه ببيع أمهات البنين . فقد كان اتفق مع عمر على منع بيعهن ، ثم قال لقاضيه عبيدة السلمانى كأنه يخيره بين البيع ومنعه . فقال عبيدة : يا أمير المؤمنين ! رأيك ورأى عمر فى الجماعة أحب الينا من رأيك وحدك . فقال : اقضوا بما كنتم تقضون ، فانى أكره الخلاف

ولم ينته الاجتهاد بعد الخلفاء الراشدين . لان الاجتهاد انما أوجبه أنه ضرورة تعرض للامام المسئول مع تقلب الاحوال وتجدد الطوارىء والمناسبات ، وأحرى أن يكون للتابعين ألزم منه للأولين الذين كانوا على مقربة من معاهد التنزيل وجيرة النبى صاحب الرسالة

غير أن أهل الذكر الذين يوليهم المجتمع الاسلامى أمانة العلم والامر بالمعروف قد بادروا الى دعم أسس التشريع واستنبطوا له الضوابط والاداب من آيات الكتاب وأحاديث الرسول ومأثور السلف الصالح فخلصت لهم من ذلك نخبة قيمة من القواعد والشروط يحق لنا أن نسميها قوانين التقنين ، وهى تقابل اليوم

مايسمى فى عرف المشترعين الغربيـــين بالحكم وجوامع الامثال Maxims

ومن هذه القواعد ان اليسر مفضل على الحظر فى أوامر الشرع ونواهيه . فحيثما أمكن السمــاح فهو أفضل من الحجر والتقييد ، لقوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ولما اثر عن النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث السيدة عائشة انه : « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين امرين الا اختار أيسرهمــا مالم يكن اثما ، فان يكن اثما كان أبعد الناس عنه »

ومن قواعد التشريع أن المعروف عرفا كالمشروط شرطا، وما رآه المسلمون حسنا فهو حسن ، وانه « لايجوز اقامة الحد مع احتمال عدم الفائدة » و « أن الضرورات تبيح المحظورات » وانه « لا ضرر ولا ضرار » و « ان اختيــار أخف الضررين مصلحة » و « البينة على المدعى واليمين على من انكر » و « الصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا » و « لايمنعك قضاء قضيته بالامس أن تراجع الحق » و « اياك والغضب والقلق والضجــر والتأذى بالناس »

ومن ضوابط التشريع فصل السلطات وفصل عمــل الحكم عن عمل التنفيذ ، وفى ذلك يقول احمد بن القرافى فى الذخيرة : « ان ولاية القضاء متناولة للحكم لا يتــدرج فيها غيره وليس للقاضى السياسة العــامة .. واما قوة التنفيذ فأمر زائد على كونه حاكمــا ... وليس للقاضى قسمة الغنائم وتفريق أموال بيت المال على المصالح واقامة الحدود وتركيب الجيوش وقتال البغاة » .

ومن ضـــوابط التشريع حق النقض « فيما خالف نص آية ، أو سنة ، أو اجماع ، أو ما يثبت من عمــل أهل

المدينة أو القياس الذى لا يحتمل الا معنى واحـــدا او الدليل القاطع الذى لا يحتمل اختلاف الاراء »

وتفصيل ذلك مستفيض فى كتب الفقهاء ..

فالامامة ، بهذه الضوابط والاداب ، مصـــدر دائم من مصادر التشريع لكل زمن بما يستجد فيه ، ولكل حالة بما يناسـبها ، يواجه به الاسلام ضرورات التشريع بغير حجـــر على الامـــام أو على الامة ، وحقهـــما فى ذلك سواء لان الامام وكيل الامة فى حمـــاية الحقـــوق ولان اجماع الامة هو الحجة التى يستند اليها الامام كلماتيسر الاجماع التام فما تيسر منهكاف فى اجراء أعمال الامامة .. ولا تقع فى الحسبان ــ بهذه المثابة ــ قضية واحدة يقـال ان مصادر التشريع الاسلامى تضـــيق عن حكمها الذى يناسب زمانها وأحوالها ، ولا يجـوز مع هذا أن نحسب الشريعة الاسلامية من الشرائع المتحجرة التى لاتقبـــل المرونة ، وان كانت كذلك لاتحسب من الشرائع الرخــوة التى لا تتماسك على أساس متين ..

وقد حاول حاكم من أكبر حــكام الغـــرب أن يلصق بالتشريع الاسلامى مظنة التحجـــر فى العصر الحاضر ، فشاء القدر أن يجرى عليه قصاصا كان ينعاه على التشريع الاسلامى فى معاقبة المفسدين ، لانه أمر باحراق عصـــابة من اللصوص فى مزرعة من القصب لاذت بهـــا وتحصنت فيها من مطارديها ، فى جهة البلينا من صعيد مصر ، فأمر الحاكم مفتشه من قومه بأن يشعل النار فى المزرعةويتصيد من يهرب منها ضربا بالرصاص ..

ذلك الحـــاكم هو لورد كرومر قيصر قصر الدوبارة فى القاهرة كما يلقبونه فى زمنه وقد أخذ على الشيخ العباسى مفتى الديار المصرية أنه سئل عن عقاب العصابات فذكره كما جاء فى الاية الكريمة :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الارْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

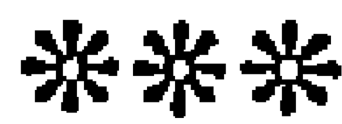
(سورة المائدة)

وهذه عقوبات فرضت فى الجزيرة العربية قبل استفتاء الشيخ العباسى (سنة ١٨٩٠) بثلاثة عشر قرنا وفيها التخيير بين القتل وقطع الاطراف وبين السجن أو الاقصاء من الديار ، وفيها العفو عمن تاب واستقام وليس فيها الاحراق الذى كان للحاكم مندوحة عنه ، لو انه آثر ان يصبر على محاصرة المفسدين حتى يستسلموا له طائعين ..

وقبل الاحتلال البريطانى لمصر ـ أثناء الاحتلال الفرنسى فى القرن الثامن عشر ـ حكم قضاة نابليون على سليمان الحلبى قاتل القائد كليبر بالقتل على الخازوق وقطع يديه ورجليه يدا بعد يد ورجلا بعد رجل ثم احراقه حيا بعد هذا التعذيب ..

أما الذين حاكمتهم محاكم التفتيش فى القرن الثالث عشر للميلاد ـ أى بعد بعثة النبى العربى بسبعة قرون ـ فحكمت عليهم بالاحراق فعدتهم مئات وألوف ، منهم العلماء والادباء والقساوسة والمتهمون بالسحر ومحالفة الشيطان، وليس منهم سفاح ولا قاطع طريق ، وذنبهم كله أنهم يحللون من المعرفة ما يحرمه رجال الدين ...

ولا نعلم أن أحداً من قضاة التفتيش أو قضاة نابليون ندم على احراق الناس بقية الحياة ، ولكننا نعلم أن خليفة مسلما عاقب لصا من عتاة الجناة المفسدين غدر بعهد الامان وقتل الابرياء وتحدى ولى الامر وأعوانه واستحق حكم الموت فأحرقه الخليفة بالنار . ذلك هو الفجاءة بن اياس بن عبد ياليل الذى وفد على الخليفة أبى بكر الصديق يسأله سلاحا يحارب به المرتدين ويحمى به الطريق ، فلما أعطاه السلاح خرج به يقطع الطريق وينهب السابلة ويحارب المسلمين ، فطارده الخليفة حتى ظفر به فألقى به فى النار ، وعاش بقية حياته يندم على هذه المثلة لأنها من غضب الحدة ، وان كان غضبا لا يعاب ..



والعبرة فى معظم هذه الاخطاء التى يقع فيها نقاد الشريعة الاسلامية من ساسة الغرب أنهم يرغبون فى توجيهها ولا يكلفون أنفسهم أن يتعمقوا فيها ، ولولا ذلك لما وجهوا نقدهم الى موضع الاستيفاء والضمان من هذه الشريعة . لانهم لم يسألوا أنفسهم قط فى أمر العقوبات التى يستعظمونها : هل هم على يقين أنها لم تكن فى حالة من الحالات رادعة او لازمة للتحذير والتخويف ؟ وهل أوجبتها الشريعة الاسلامية فى جميع الحالات، ولم توجب معها عقوبة أخرى تصلح للأخذ بها فى زمانها وفى غير زمانها ؟ وهم خلقاء أن يترددوا فى النقد اذا كلفوا أنفسهم بعض هذه الاسئلة ، لانهم ينكرون على الشريعة الاسلامية شرط التشريع الذى يزعمون أنهم يطلبونه وهو الوفاء بحاجة الزمن والمطابقة لجميع الاحوال ويسقطون من حسابهم مصدر التشريع الدائم فى الاسلام وهو مصدر الامامة ومن ورائه حق الامة أو حق الاجماع . فان هذا المصدر أوفى من أكبر المصادر العصرية التى يعولون عليها

وهو مصدر السيادة . اذ كانت السيادة معززة بحق ولاة الامر وحق الاستفتاء العام ، وكانت الامامة شاملة لهذه الحقوق جميعها وتزيد عليها قداسة الدين واتفاق الامة فى جميع أزمنتها ، كأنها وحدة عامة لاتتقيد بارادة الاحياء فى فترة واحدة

ولا حاجة للأمة فى عصر من عصورها الى مصدر من التشريع أوفى من مصدر السيادة بهذا المعنى الواسع المحيط بكل حرمة من حرمات الشرع فى غير حد ولا حجر على حرية الاحياء ولا حرية الاجيال المقبلة . لان التبعة على قدر السلطة فى كل جيل من أجيال الاحياء ..

وما من جهة واحدة يستند اليها حق الامامة كله فى الاسلام ، ولا استثناء فى ذلك لصاحب الرسالة وأمين التبليغ نبى الاسلام عليه السلام » :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » . (سورة آل عمران)

« إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » . (سورة الكهف)

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » . (سورة ق)

***

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » . (سورة آل عمران)

ويؤمر النبى بمشاورة المسلمين :

« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » (سورة آل عمران)

ويؤمر المسلمون بالمشاورة بينهم :

« وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » . (سورة الشورى)

***

فحق الامامة اذن أعم من حق السيادة لانه فى جانبى التشريع والتنفيذ مستمد من أوامر الله وسنة رسول الله واجتهاد أولياء الامر واجتهاد الجماعة الاسلامية كلها برأيها على أتم صورة يثبت عليها

ولهذا وجبت للامامة طاعة تناسب هذه القداسة .. فلا حدود لها الا أن يامر الامام بالخروج من الدين أو بمعصية الخالق فهو لا يطاع اذن لانه ليس بأمام . وقسطاس العهد بين الامام ورعيته كما جاء فى حديث عبادة بن الصامت : « بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى ألا ننازع الامر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » ويتمم الحديث فى رواية أخرى « ألا ننازع الامر أهله الا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان .. »

ويقول النبى عليه السلام : « ان الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » ..

وفى الاثر « ان السلطان ظل الله فى أرضه يأوى اليه كل مظلوم من عباده فاذا عدل كان له الاجر وعلى الرعية الشكر ، واذا جار كان عليه الاصر وعلى الرعية الصبر »

***

وليس حق الامامة بالبداهة حق الامام لشخصه ولا هو

من الحقوق التى يمكن أن تحصر فى جهـة واحدة ، وانما يحق للامام منه ما هو حقه بموجب البيعة والامانة العامة . فهو مطيع فى هذه الامانة مطاع

ومن ثم وجب أن يتولى الامام عمله باختيار رعاياه . ولابد من البيعة العامة لكل امام مسئول تجب له الطاعة ، يرشحه من استطاع من أولى الحل والعقد وينعقد له الامر بعد اجازة هذا الترشيح بالبيعة العامة ويجوز أن يرشحه واحد أو يشترط فى ترشيحه اتفاق عدد من المسلمين تجوز لهم صلاة الجماعة . الا أن الاتفـــاق على عدد المرشحين لا يغنى عن المرجع الاخير وهو اتفاق الجمــاعة بلا خلاف أو اتفاقها على القـــدر الذى ترجح به الكفة وتمتنــع به الفتنة . ومن اقدم على الفتنـــة فاثمها عليه يقضى فيـــه الامام المختار أو يقضى فيه سلطان الجماعة حيث استقام لها سلطان مشروع



ومن تمام التكافل « والتضامن » فى المجتمع الاســلامى أن أمانة « الامامة » لا تعفى الامة من واجب النصيحـــة لأمامها ، وقد جمع نبى الاسلام الدين فى كلمتين اذ قال : « الدين النصيحة » وسئل : لمن يارسول الله ؟ فقـــال : « لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم »

وقال عليه السلام فى حديث آخــر : « افضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »

وازاء هذا الواجب من الرعية واجب يتممه من قبــل الامام ، ويتأسى فيه الأئمة بصـــاحب الامامة الاولى الذى قال لرجل أصابه وجل عند لقائه : « رويدك ياهذا . انما أنا بشر : أنا بن امرأة أعرابية كانت تأكل القديد »

وفى كتاب الله خطاب للنبى ولكل امام متبوع :

« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » (سورة الحجر)

***

« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »

(سورة الشعراء)

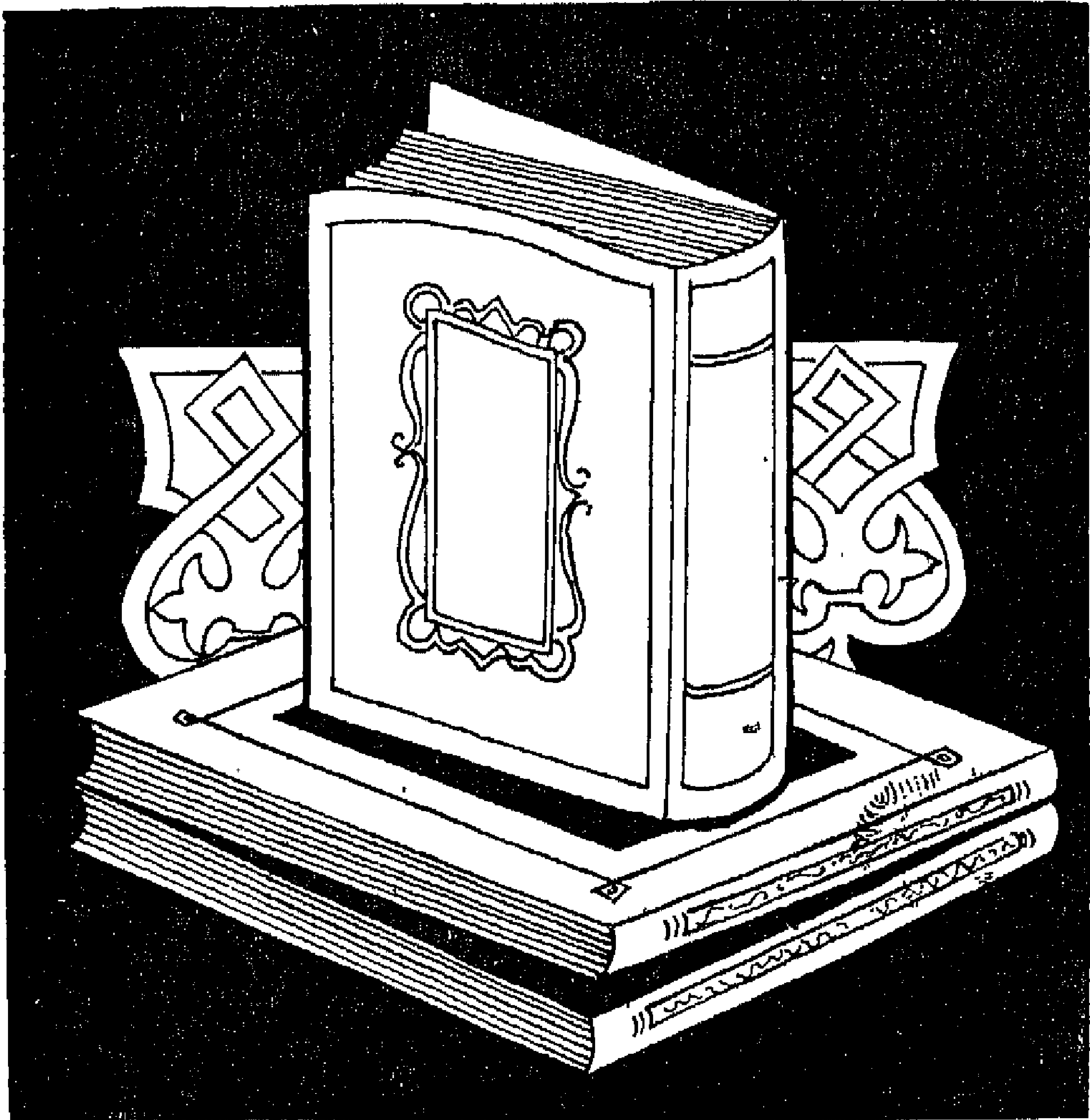
***

وختام القول فى هذا الحق المحيط بجميع الحقوق ــ حق الامامة ــ أنه باب مفتوح للتشريع فى كل عصر وكل مجتمع وانه يكفل للأمة الاسلامية مايكفله حق السيادة وزيادة .. فلا منفذ لنقد التشريع الاسلامى فى جميع مصادره ما بقى له هذا المصدر مستمدا من ضمير الانسان وحكمة الله ..

الأخلاق والآداب

الفصل الرابع

- النقائض المزعومة
- أخلاق الفتوة
- الأخلاق المحمودة
- مقياس الأخلاق والآداب
- هدى الأسماء الحسنى
- خاتمة



النقائض المزعومة

التناسق ظاهرة عجيبة فى الاسلام ، يلمسها من تأمل فيه والقى عليه فى مجموعه نظرة عامة بين عقائده وعباداته وبين ما يشرعه من المعاملات والحقوق ويحمده من الاخلاق والآداب ..

هنالك وحدة تامة أو بنية واحدة يجمعها ما يجمع البنية الحية من تجاوب الوظائف وتناسق الجوارح والاعضاء ..

ويندر أن تقرأ فى كلام ناقد من الاجانب عن اللغة العربية شيئا من مآخذ التناقض فى الاسلام الا بدا لك بعد قليل أنه مخطىء ، وأن مرد الخطأ عنده الى جهل الاسلام أو جهل اللغة العربية ، وبعضهم يجهلها وهو من المستشرقين لانه يستظهر الفاظها ولا يتذوقها ولا ينفذ الى لبابها من وراء نصوص القواعد والتراكيب ..

قرأنا لبعضهم أخيرا كتابا عن الشيطان يلم فيه بصفة ابليس فى الاسلام ويستغرب فيه — من هذا الدين — أن يقول عن الله انه أمر الملائكة بالسجود لآدم .. مع انه الدين الذى اشتهر بغاية التشدد فى انكار الشرك وتكفير كل ساجد لغير الله ..

ومرد الخطأ فيما بدر الى الكاتب من التناقض بين

التوحيد وبين السجود لآدم أنه فهم السجود بمعنى الصلاة دون غيرها من معانى الكلمة فى اللغة العربية .
وفاته أن الكلمة عرفت فى اللغة العربية قبل أن يعرف العرب صلاة الاسلام ، ولم يفهموا منها أنها كلمة تنصرف الى العبادة دون غيرها ، لانهم يقولون « سجدت عينه » أى أغضت ، واسجد عينه أى غض منها وسجدت النخلة أى مالت ، وسجد : أى غض رأسه بالتحية ، وسجد لعظيم : أى وقره وخشع بين يديه . ولا تناقض على معنى من هذه المعانى بين السجود لآدم وتوحيد الله .
وانما السجود هنا هو التعظيم المستفاد من القصة كلها ، وهو تعظيم الانسان على غيره من المخلوقات

وبعضهم يرى أن الاسلام مناقض بطبيعته للعمل والسعى فى سبيل الحياة .. لانه يفهم من الاسلام أنه التواكل وتسليم الامر الى الله بغير حاجة الى الحول والقوة ، لانه لا حول ولا قوة الا بالله ..

وجهل هؤلاء بالفهم أكبر من جهلهم باللغة .. لأن الاسلام الى الله وحده وتحريم الاسلام لغيره يأبى على المسلم أن يسلم للظلم أو يسلم للتحكم من الناس أو من صروف الحياة ، وينهاه أن يستسلم للخيبة وللقسمة الجائرة ، وأن يستسلم لكل قضاء لا يرضاه ويعلم أن الله لا يرضاه

وبعضهم يرى أن الاسلام والسلم نقيضان ، لانه يفهم من كلمة أسلم أنها التسليم فى الحرب Surrender أو التسليم قبل الحرب خوفا من القتال . فكل مسلم فهو خاضع للسيف هزيمة بعد الحرب أو خوفا من الحرب قبل اشهارها عليه

وهؤلاء المتحذلقون على اللغة التى يجهلونها يفوتهم

أن كلمة « أسلم » فى ميدان الحرب هى نفسها مأخوذة من اعطاء اليد أو بسطها للمصافحة ، وأن المقصود بهذه الكلمة فى الدين انها استقبال الله والاتجاه اليه ؛ فمن أسلم وجهه لله فقد استقبل طريقه وأعطاه وجهه ولم يتحول عنه الى غيره . وكل المتدينين قبل الدعوة المحمدية موصوفون بأنهم مسلمون كما جاء فى سورة البقرة :

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (سورة البقرة)

وفى القرآن الكريم أن المسلمين وصفوا بالاسلام فى الكتب الاولى كما جاء فى سورة الحج :

« وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ»

(سورة الحج)

وأكثر ما اطلعنا عليه من النقائض المزعومة فهو من قبيل هذه الاخطاء فى التفرقة بين الكلمات على معانيها المطلقة وبين هذه الالفاظ على معانيها التى قيدها الاصطلاح أو خصصتها لغة القرآن الكريم

وفيما عدا هذه النقائض وما اليها يروع الباحث فى الاسلام ذلك التناسق بين عقائده وأحكامه أو بين عقائده وأخلاقه . ولعل هذا التناسق أظهر ما يكون بين الاخلاق المتعددة التى حمدها الدين من المسلم ، وهى متفرقات تجمعها وحدة لا تستوعبها وحدتها الاسلامية .. فهى فى جملة وصفها أخلاق اسلامية وكفى

هل هي أخلاق قوة ؟ هل هى أخلاق محبة ؟ هل هى أخلاق قصد واعتدال ؟ هل هى أخلاق أجتماعية ؟ هل هى أخلاق انسانية ؟

هى كذلك أحيانا ولكنها ليست كذلك فى جميع الاحيان، لان أخلاق القوة قد تفهم على وجوه متعددة ، أو متناقضة ، يحمد الاسلام بعضها ولا يحمد بعضها ، أو يذمها جميعا اذا فهمت على مذهب فلاسفة القوة فى العصر الاخير ..

وقد توصف الاخلاق فى الاسلام بأنها « أخلاق محبة » لان أصول العلاقات بين الناس قائمة فى الاسلام على شرعة المحبة والاخوة كأنهم من أسرة واحدة . ولكن الاسلام ينكر من المسلم أن يحب الخبيث كما يحب الطيب ، ويعرف العداوة فى الحق كما يعرف الصداقة فيه ..

وليس قوام الاخلاق كله فى التوسط أو فى القصد والاعتدال على مذهب الفلسفة اليونانيةأو فلسفة ارسطو على الخصوص . وليس مآل الاخلاق كله فى الاسلام الى وحى المجتمع أو وحى الانسانية برمتها ، لان المجتمع قد يدان بأخلاقه كما يدان الفرد ، ولأن الانسانية لا ترتفع الى ما فوق جوانب الضعف فيها ان لم يكن لها من المثل العليا ما يسمو عليها أو تسمو هى اليه جيلا بعد جيل

أخلاق القوة

أخلاق القوة فى العصر الاخير مقترنة باسم « فردريك نيتشه » رسول السوبرمان الذى كاد ايمانه بالسوبرمان أن ينقلب الى عداوة للانسان

فالسوبرمان لا يرحم ولا يغفر ولايعرف للضعيفنصيبا من « الانسان الاعلى » غير نصيب الزراية والاذلال ، أو الابادة والاستئصال ، محافظة على سلامة النوع من عدوى الضعف وعواقب الابقاء على الضعفاء ، وهم فى عرفه أولى بالاجتناب من مرضى الجذام

والاخلاق عنده قسمان : قسم للسادة لا يقبله العبيد، وقسم العبيد لا يقبله السادة . فليس بين الفريقين جامعة انسانية تلتقى بهم فى صفة من الصفات ، بل هم أعداء يتسلط منهم القادر على العاجز ، ولا يحسن بالمتسلط أن يقبل من العاجز غير الخنوع والهبوط فى الذلة من هاوية الى هاوية ، لا نهاية لها غير الانقراض والفناء ..

والأخلاق القوة عرفت قبل نيتشه بتفسير لا تفسير فيه عند الحاجة الى تفسير ، لأنه يجعل القوة مرادفة للاستحسان ، ولا ندرى منه لماذا يكون هذا الاستحسان ..

وتفسير الفيلسوف هوبز Hobbes للقوة من هذا القبيل ..

فالناس على زعم هؤلاء المفسرين يحمدون الرحمة ، لانهم يحمدون القوة ، ويرون فى الرحمة دليلا على قوة الرحيم لانه يتفضل بها على الضعيف ويترفع بها عن معاملته كما يعامل الانداد والنظراء ..

والناس يحمدون العفو ، لان الذى يعفو عن المسيء اليه يعتد بقوته ويأمنه ان وفى له بالشكر أو غدر به على السواء ..

وهم يحمدون الكرم ، لانه عطاء . ولا يملك ما يفضل من حاجته ويجود به على المفتقر اليه غير الأقوياء ..

وهم يحمدون الصبر ، لان القوى جليد يتماسك لصدمة المصاب ولا يتضعضع تحت وقره الثقيل . فهو يصبر على بلائه لانه قوى يحتمل منه ما لا يحتمله الضعيف . ولا يكون القوى جزوعا وان عظم عليه المصاب ..

وهم يحمدون الدهاء ، لانه قوة فى العقل يتمكن بها صاحب العقل القوى من تسخير الأقوياء بالاجسام ، ويحمدون الذكاء والحذق والمعرفة والبراعة فى صناعة من الصناعات ، لانها علامة من علامات القوة على نحو من الانحاء ..

وهذه الفضائل ، أو المزايا ، تفيد أصحابها قوة كما تنم فيهم على القوة التى تصدر عنها .. فهى محمودة لما تدل عليه ، ولما تؤدى اليه

أما العظمة والمجد والشجاعة فلا حاجة بها الى تفسير عند من يرجعون بالاخلاق جميعا الى القوة على هذا الاسلوب .. لانها ظاهرة بقوتها معترف بسبب الاعجاب بها بين الأقوياء أو الضعفاء ..

وقبل الرجوع بالاخلاق المثلى الى القوة على مذهب هوبز أو على مذهب نيتشه ـ كانت المدرسة اليونانية تعتبر الاخلاق الفاضلة وسطا بين طرفين ، أو تحث طالب الفضيلة على الاعتدال فى جميع الامور والاتجاه الى الحسن من كل خلق على قدر حظه من الاعتدال ..

فالشجاعة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين الاسراف والبخل ، والصبر وسط بين الجمود والجزع ، والحلم وسط بين النزق والبلادة ، والرحمة وسط بين القسوة والخور . وكل فضيلة على هذا القياس فهى مسألة توسط فى المسافة بين غايتين ..

وفى زماننا هذا يغلب على مدارس الاخلاق أنها تؤول بالفضائل كلها الى باعث واحد وهو باعث المصلحة الاجتماعية ، أو باعث الغرائز النوعية التى يتصل بها بقاء نوع الانسان . ومن هذه المدارس ما يحصر المصلحة فى الطبقة الغالبة على المجتمع . فلا مصلحة للمجتمع كله فى الاخلاق الفاضلة التى يحمدها المجتمع فى عهد من العهود ، ولكن المصلحة فيها للطبقة المتحكمة فيه بثروتها وسطوتها . فما تراه حسنا فهو الحسن بالنسبة اليها لاستبقاء منافعها ، وهى اذن تسوم الطبقات الاخرى أن تستحسنه على المحاكاة والتقليد وان لم يكن لها خير فيه ..

القوة والاعتدال

والاسلام يحمد كثيرا من الاخلاق المحمودة فى هذه المذاهب ، ولكننا لا نستطيع أن نجمع الاخلاق الاسلامية كافة فى نطاق مذهب منها ، ولا سيما مذهب القوة فى فلسفة نيتشه ومذهب الطبقة الاجتماعية فى فلسفة الماديين

فمذهب القوة فى رأى نيتشه يناقض جميع الاديان الالهية ، ولعله يوافق دينا يعتقد اتباعه أنه دين اله واحد يختارونه ويختارهم فيستبقيهم ويمحق غيرهم من العالمين .. ولكنه لا يوافق الاديان التى تدعو الى اله واحد للاقوياء والضعفاء ، وقد تكون الاخذ بمذهب القوة فى رأى نيتشه هدما لهذه الاديان من قواعدها واقتلاعا لها من جذورها ، اذ لا قيمة للدين ما لم ينشىء أمام القوة الطاغية قوة تكبحها وتهذبها وهى قوة الضمير ، ولا رسالة للدين بين البشر ان لم تكن رسالته أن يربى فيهم وازعا للقوة البدنية وقوة المطامع والشهوات . وقد تعلم الناس دهرا طويلا أن حماية المريض غير حماية المرض ، وأن العناية بالمرضى تؤول على الدوام الى عناية بالصحة ، يستفيد منها الاصحاء كما يستفيد منها المصابون . وليس بالعسير عليهم أن يتعلموا كذلك أن حماية الضعيف غير حماية الضعف ، وأن العناية بالضعفاء تؤول الى عناية شاملة يستفيد منها الاقوياء والضعفاء . أو تكون فائدة الاقوياء منها مقدمة على فائدة الضعفاء

وتفسير « هوبز » للقوة لايقرب مذهب القوة كثيرا الى حقيقة الاخلاق الاسلامية . لأن الاسلام لايحمد من الاخلاق أنها حيلة ملتوية أو مستقيمة الى طلب القوة ، بل يحمد منها فى كل شأن من شئون الانسان أنها وسيلة الى طلب الكمال ، ويحبب الى الانسان أحيانا أن يؤثر الهزيمة مع الكمال على الظفر مع القوة ، اذا كان الظفر وسيلة من وسائل القوة الباغية التى لاتتورع عن النجاح بكل سلاح

ومذهب الفلسفة اليونانية ينتهى بنا الى مقياس للأخلاق شبيه بمقاييس الهندسة والحساب بعيد عن

تقدير العوامل النفسية والقيم الروحية فى الاخلاق العليا على التخصيص . وقد تصدق هذه الفلسفة اذا كان المطلوب من الانسان أن يختار بين رذيلتين محققتين . فانه فى هذه الحالة يحسن الاختيار بالتوسط بين طرفين متقابلين كلاهما مذموم ومتروك . الا أننا لانقول من أجل ذلك أن الكرم نقص فى رذيلة البخل ، أو نقص فى رذيلة السرف ، ولا نقول من أجل ذلك أن الكرم اذا زاد أصبح سرفا ، وان السرف اذا نقص أصبح كرما . بل تكون الزيادة فى الكرم كرما كبيرا ، والنقص فى السرف سرفا قليلا ، ولا يكون الكرم أبدا درجة من درجات السرف ، ولا البخل أبدا درجة من درجات الكرم . بل هى أخلاق متباينة فى الباعث متباينة فى القيمة ، يتقارب الطرفان فيها أحدهما من الآخر ، ولا يتقارب الطرف من الوسط كما يظهر من قياس الهندسة أو قياس الحساب

وقد رأينا فى مباحث العلل النفسية التى كشفها العلم الحديث أن الشذوذ يقرب بين المسرفين والبخلاء فى أعراض متشابهة ، وأن العلة الكامنة فى التركيب قد تظهر فى الاسرة الواحدة بخلافى أحد الاخوين ، وسرفا فى الاخ الآخر . أو تظهر فى أحدهما هوسا بالاقدام والاقتحام ، وتظهر فى أخيه هوسا بالحذر والاحجام . فلا افراط هنا ولا تفريط فى « كمية » واحدة تقاس بمقياس الهندسة والحساب ، ولكنها خلائق متباينة تختلف بالباعث لها وتختلف بقيمتها فى معايير الاخلاق

ولو صح مذهب الفلسفة اليونانية أو مذهب أرسطو على الاصح لما جاز للانسان أن يطلب المزيد من فضيلة الكرم ـ مثلا ـ لانه ينتقل على هذا الرأى الى رذيلة السرف والتبذير . الا أن زيادة الكرم لاتكون الا زيادة فى فضيلة مشكورة ، ولابد من التفرقة بين زيادة الكرم

وزيادة العطاء . فانهما فى الواقع أمران مختلفان ، وقد قيل لا خير فى السرف ولا سرف فى الخير . وفى القول الثانى توضيح لازم للقول الاول ، لأن زيادة الخير الى اقصى حدوده واجبة لاتخرج به عن كونه خيرا محمودا يزداد حمده مع ازدياده ، ولا يحسب من السرف على وجه من الوجوه

وانما يلتبس الامر على أصحاب مدرسة التوسط فى جميع الامور لانهم ينظرون فىتقدير الكرم الى المالالمبذول والى مصلحة الباذل فى حساب المال ، ولا التباس فى الامر اذا نظروا الى الباعث والموجب والمصلحة فى عمومها ولو ناقضت مصلحة الباذل فى بعض الاحيان

فمن كانت طاقته أن ينفق ألف دينار ولا يتقاضاه الواجب أو تتقاضاه مصلحته أن ينفق ألفين فهو مسرف ما فى ذلك خلاف .. لانه يفعل شيئا يضره ولا توجبهعليه مصلحة أكبر من مصلحته . أما اذا كان باعث الانفاق شيئا غير مصلحته وغير هواه وكان حبس المال فى يديه ضارا وخيم العاقبة على الناس وعليه فىالنهاية ـ فالكرم ان يزداد فى الانفاق على حسب المصلحة العظمى ، وعلى قدر التضحية وانكار الذات يكون حظ البذل منالفضيلة المحمودة أو حظه من الخير الذى لا سرف فيه

وتصعب المقارنة بين التطرف والتوسط حين تكون المسألة مسألة درجات ولا تكون هناك مقادير تعد بالارقام . فاذا ترخصنا فقلنا ان الكريم هو الذى يبذل الف دينار ، وان المسرف هو الذى يبذل ألفين أو ثلاثة آلاف ، والبخيل هو الذى يبذل مائة أو لايبذل شيئا على الاطلاق ـ فمن هو الشجاع ومن هو المتهور ومن هو الجبان ؟

.. ليست هنا مقادير تعد بالارقام . فاذا عرفنا أن

الجبان هو الذى يحجم عن الخطر فمن هو الشجاع ؟ ومن هو المتهور ؟ ان التهور ليكونن أفضل من الشجاعة اذا قلنا أن الشجاع قليل الاقدام على الخطر وان المتهور كثير الاقدام عليه ، أو قلنا ان درجة الخطر الذى يقدم عليه المتهور أعظم من درجة الخطر الذى يقدم عليه الشجاع . ولكننا حين نقول ان الشجاع هو الذى يقدم على الخطر حيث يجب الاقدام عليه ، نرجع بالفضيلة والرذيلة الى مقياس الواجب وتقديره ، وتصبح المسألة هنا مسألة قدرة على فهم الواجب والعمل به ، وليست مسألة اعداد أو أبعاد ... فالمتهور والجبان كلاهما عاجز عن فهم الواجب والعمل به ، والشجاع هو القادر على الفهم والعمل ، ولا يستقيم فى التعبير اذن أن نقول ان المتهور أكثر شجاعة من الشجاع ، وأن الجبان أقل شجاعة منه ، لانهما معا خلو من الشجاعة الواجبة بغير افراط أو تفريط .

ولن يشذ الانسان عن الاعتدال فى الطبع اذا هو آثر أن يذهب فى كل فضيلة الى نهايتها القصوى ، فماذا يعاب فى جمال الوجوه — مثلا — اذا انتهى الى غاية لا غاية بعدها فى معهود الابصار ؟ وماذا يعاب فى جمال الاخلاق اذا انتهى الى مثل تلك الغاية فى معهود البصائر ؟ ان كلمة من كلمات اللغة العربية العامرة بمدلولاتها النفسية والفكرية لتهدينا الى قسطاس الحمد فى كل حسنة مأثورة . فكلمة « ناهيك » حين نقول ناهيك من رجل أو ناهيك من عمل أو ناهيك من خلق — هى قسطاس الثناء فيما تنشده النفوس الانسانية من كل فضل منشود . فهو الفضل الذى ينتهى بنا الى النهاية فلا نتطلع بعده الى مزيد

غير أن مذهب الاعتدال — مع هذا — اقرب المذاهب

الى فهم الاخلاق المحمودة فى الاسلام ، على اعتبار أن خلق الاعتدال فضيلة مستقلة تدل على طبع سليم وعقل وشيد يقدران لكل عمل قدره ولا يمنعهما الاعتدال أن يذهبا به الى غاية الكمال ، اذا كان له هذا القدر بين أقدار الاخلاق

مقياس الاخلاق والآداب

ومذهب المصلحة الاجتماعية لا يناقض مكارم الاخلاق الاسلامية كل المناقضة ولا يوافقهــا كل الموافقة ..

مجمل الرأى فى الاسلام أن المجتمع يقاس بالدين وليس الدين يقاس بالمجتمع ، فقد يسفل المجتمــع فتنفق فيه الآراء والاهواء على مصلحة يأباها الدين ويحسبها مضرة أو مفسدة يؤنب المجتمع من أجلها كما يؤنب الافراد

وربما كانت مصلحة النوع الانسانى أصدق المقاييس للخلق المحمود فى الاسلام . ولكن النوع الانسانى يترقى فى العلم بمصالحه حقبة بعد حقبة ، ومن حــــوافزه الى الترقى أن تكون أمامه أمثلة عليا للاخلاق أرفع من مألوف الاخلاق التى يسترسل معها بغير جهد وبغير رياضــة وبغير تربية مفروضة عليه ، يعتقد أنه يتلقاها ممن هو أكبر من الانسان وأحق منه بالطاعة والاصغاء الى هدايته وتعليمه ..

لابد من الفضـــــائل الالهية فى تعليم الانسان مكارم الاخلاق ، وما اكتسب الانسان أفضـــل أخلاقه الا من الايمان بمصدر سماوى يعلو به عن طبيعته الارضية

وهذا هو المقياس الاوفى لمكارم الاخلاق فى الاسلام ..

ليس مقياسها الاوفى أنها أخلاق قوة ، ولا أنها أوساط بين أطراف ، ولا أنها ترجمان لمنفعة المجتمع أو منفعة النوع الانسانى بأجمعه فى وقت من الآوقات ..

وانما مقياسها أنها أخلاق كاملة ، وان الكمال اقتراب من الله ..

وقد يكون الكمال كالجمال مقياسا غير متفق عليه قابلا للتفاوت ــ بل للتناقض ــ كما تتفاوت مقاييس العرف وتتناقض فى كثير من المعقولات والمحسوسات ... لكننا نقول قولا مفيدا حين نقول ان الانسان يحب أجمل الوجوه ، أو أجمل الشمائل ، أو أجمل الخصال ، ونقول قولا مفيدا حين نضع الكمال فى موضع الجمال ..

الا أن الاسلام يقرن المثل الاعلى فى كل فضيلة بالصفات الالهية ..

... ولله المثل الاعلى ...

وكل صفة من صفات الله الحسنى محفوظة فى القرآن الكريم ، يترسمها المسلم ليبلغ فيها غاية المستطاع فى طاقة المخلوق ..

ولا تكلف نفس الا وسعها كما جاء فى غير موضع من الكتاب الحكيم

ليس للاخلاق الاسلامية مقياس جامع من القوة ، ولا من التوسط بين الاطراف ، ولا من منفعة أمة قد تناقضها منفعة أمة غيرها ، ولا من منفعة الامم جميعا فى عصر يتلوه عصر غيره بمنفعة أكرم منها وأحرى بالسعى اليها ..

فالدين الاسلامى بعقائده وآدابه ، أو بجملته وتفصيله ، يستحب القوة للمسلم ويأمره باعداد عدتها من قدرة الروح والبدن ، ولكنه يستحبها قوة تعطف على الضعيف وتحسن الى المسكين واليتيم ، ويمقتها قوة تصان بالجبروت والخيلاء ولا ينال الضعفاء منها غير الهوان والاذلال ..

« إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » (سورة لقمان)

« فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ » (سورة النحل)

«أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ» (سورة الزمر)

ولا يستحب الاسلام القوة للقوى الا ليدفع بها عدوان الاقوياء على المستضعفين العاجزين عن دفع العدوان :

« وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » (سورة النساء)

ولم يوصف الله بالكبرياء فى مقام الوعيد للكبرياء بالنكال والاذلال ، الا ليذكر المتكبر الجبار أن الله أقدر منه على التكبر والجبروت

والاسلام يزكى مذهب التوسط فيما يقبل التوسط بالمقادير أو بالدرجات كالانفاق الذى ينتهى الاسراف فيه الى اللوم والحسرة :

« وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً » (سورة الاسراء)

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً » (سورة الفرقان)

« كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» (سورة الانعام)

« وَكلوا وَاشْرَبُوا وَلَا تسْرِفوا إِنَّهُ لايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »

(سورة الاعراف)

***

ولكن القسطاس فى فضائل الاسلام لايرجع الى المقدار والتوسط فيه ، بل يرجع الى الواجب وما يقتضيه لكل أمر من الامور . فاذا وجب بذل المال كله وبذل الحياة معه فى سبيل الحق فلا هوادة ولا توسط هنا بين طرفين ، وانما هو واجب واحد يحمد من المرء أن يذهب فيه الى أقصاه . .

ولا يصدق هذا على شئون القوة والكرم وحسب ، بل يصدق فى شئون الرحمة حيث تجب لمن هو أهل لها . .

فالاسلام على كراهته الذل لأتباعه يستحب منهم الذل فى الرحمة بالوالدين الشيخين :

« وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ »

(سورة الاسراء)

لأن الذل هنا زيادة فى الرحمة يأتى من كرامة فى النفس ولا يأتى من هوان فيها . .

وملاك الاعتدال فى الخلق الاسلامى أن المسلم يؤمر بالعمل لدنياه كما يعمل لدينه ، ويؤمر بصلاح الجسد كما يؤمر بصلاح الروح . فلا يكون فى هذه الدنيا روحا محضا ولا يكون فيها جسدا محضا . ومن أبى عليه دينه أن يكون فى هذه الدنيا جسدا محضا فمن العنت أن يقال انه يعمل ليكون جسدا محضا فى عالم الرضوان : عالم الروح والصفاء . .

وقد ضلل بعض المغرضين من دعاة الاديان عقولا كثيرة فى شتى الاقطار حين زعموا أن الخطاب بالمحسوسات فى أمر الجنة والنار مقصور على العقيدة الاسلامية ، وأن

المؤمنين بالدين لا يؤمنون بالنعيم المحسوس الا اذا كانوا من المؤمنين بالقرآن

والانبياء والقديسون فى جميع الاديان الكتابية قدتمثلوا النعيم المحسوس فى رضوان الله ووصفوه على هذه الصفة فى كتب العهد القديم والعهد الجديد وفى كتب التراتيل والدعوات . ففى العهد القديم يصف اشعياء يوم الرضوان فى الاصحاح الخامس والعشرين من سفره فيقول :

« يصنع رب الجنود لجميع الشعوب فى هذا الجبل وليمة سمان ووليمة خمر على دردى سمان ممخة : دردى مصفى ويفنى فى هذا الجبل وجه النقاب الذى على كل الشعوب والغطاء المغطى به على كل الامم . يبلغ الموت الى الابد ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه »

وفى العهد الجديد يقول يوحنا اللاهوتى فى الاصحاح الرابع من رؤياه :

« بعد هذا نظرت واذا باب مفتوح فى السماء والصوت الاول الذى سمعته كبوق يتكلم قائلا : « اصعد الى هنا فأريك ما لابد أن يصير بعد هذا . وللوقت صرت فى الروح ، واذا عرش يعرض على فى السماء وعلى العرش جالس . وكان الجالس فى المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد وحول العرش أربعة وعشرون عرشا . ورأيت على العروش أربعا وعشرين شيخا جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم اكليل من ذهب . ومن العرش تخرج بروق ورعود وأصوات وأمام العرش سبعة مصابيح متقدة على سبعة أرواح لله . وقدام العرش بحر زجاج شبه البللور ، وفى وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيونا من قدام ومن وراء ، والحيوان الاول شبه الاسد والحيوان الثانى شبه عجل والحيوان الثالث له وجه انسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر »

ويقول فى الاصحاح العشرين :

« متى تمت الالف السنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الامم الذين فى اربع زوايا الارض ، جوج وماجوج ليجمعهم للحرب وعددهم مثل رمل البحر ... فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم ... وابليس الذى كان يضلهم طرح فى بحيرة النار والكبريت ، وكل من لم يوجد مكتوبا فى سفر الحياة طرح فى بحيرة النار »

ويقول فى الاصحاح الحادي والعشرين :

« ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة لان السماء الاولى والارض الاولى مضيئتان والبحر لا يوجد فيما بعد ، وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هوذا مسكن الله مع الناس »

وكانت آمال النعيم المحسوس تساور قلوب القديسين فى صدر المسيحية فضلا عن عامة العباد بين غمار الدهماء ومن أشهر هؤلاء الاقطاب المعدودين رجل عاش فى سورية. فى القرن الرابع للميلاد وترك بعده تراتيل مقروءة يتغنى بها طلاب النعيم وهو القديس أفرايم الذى يقول فى أحدى هذه التراتيل :

« ورأيت مساكن الصالحين رأيتهم تقطر منهم العطور وتفوح منهم العبير تزينهم ضفائر الفاكهة والريحان ... وكل من عف عن خمر الدنيا تعطشت اليه خمر الفردوس ، وكل من عف عن الشهوات تلقته الحسان فى صدر طهور »

واتفق أحبار الغرب وأحبار الشرق فى وصف النعيم بهذه الصفة فقال القديس أرنيوس Irenius أسقف ليون فى القرن الثانى (سنة ١٧٨ للميلاد) :

« انما السيد المسيح أنبأ يوحنا اللاهوتى أن ستأتى أيام يكون فيها كروم لكل كرمة عشرة آلاف غصن ولكل غصن عشرة آلاف فرع ، ولكل فرع عشرة آلاف عسلوج ، ولكل عسلوج عشرة آلاف عنقود ، ولكل عنقود عشرة آلاف عنبة وتعصر العنبة منها فتدر من الخمر مائتين وخمسة وسبعين رطلا » (١)

ولم يبلغ الاسلام هذا المبلغ من التمثيل بالمحسوسات ولكنه يشفعها بعقيدته التى تمنع المسلم أن يقيس نعيم الرضوان على نعيم الدنيا :

« فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

(سورة السجدة)

---

(١) راجع كتاب الفلسفة القرآنية للمؤلف

أو كما جاء فى الحديث الشريف : « فيها مالا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر »

***

ونحن لا نعرض لهذا البحث فى موضوع الاخلاق الاسلامية الا لأن الاديان جميعا تنظر الى النعيم الالهى كأنه المثل الاعلى للحياة الدنيوية ، وليس فى المثل الاعلى فى الحياة — فى عقيدة المسلم — ما يجعله على زعم المضللين من أعداء الاسلام جسدا محضا فى أخلاقه وآدابه ، أويجور على الجانب الاخلاقى فيه ، ومن أبى عليه دينه ان يكون فى الارض جسدا محضا فمن السخف ان يقال انه يرتضى لنفسه أن يكون جسدا محضا فى جوار الله الذى بلغ به الاسلام غاية ما يتصوره العقل والضمير من التنزيه

وهذا قسطاس لا يخطىء فى تقويم كل خلق حسن يستحبه الدين فى المسلم . فانه مأمور الا ينسى نصيبه من الحياة الجسدية ، ولكنه مأمور فى الوقت نفسه أن ينظر الى صفات الله الحسنى كما تجلت فى اسمائه التى وردت فى القرآن الكريم . فهى قبلته التى يهتدى بها فى كل مكارم الاخلاق لا يكلف أن يدرك منها شأو الكمال الالهى ، ولكنه يكلف منها بما فى وسعه كأنها قطب السماء الذى يهتدى به ملاح البحر وهو يعلم انه فى فلكه الرفيع بعيد المنال

الاسماء الحسنى

والاخلاق التى يهتدى اليها المسلم بهدى الأسماء الحسنى كثيرة وافية بخير ما يتحراه الانسان فى مراتب الكمال المطلوبة لكمالها ، مع عموم نفعها فى حياة الفرد والجماعة . ومنها : العزة ، والقدرة ، والمتانة ، والكرم ، والاحسان ، والرحمة ، والود ، والصبر ، والعفو ، والعدل ، والصدق ، والحكمة ، والرشد ، والحفاظ ،

والحلم ، واللطف ، والولاء ، والسلام ، والجمال
وكلها منشود لأنه كمال لا يقاس الا بمقياس الكمال ، وانه ليوافق مقاييس القوة والتوسط والمصلحةالاجتماعية في أجمل مطالبها واصحها على هدى الفكر وهدى الضمير ثم لا تستوعبه مدرسة خاصة من هذه المدارس المتفرقة كما تستوعبه مدرسة الاسلام ، أو مدرسة الكمال بهداية الاسماء الحسنى

وخير للمجتمع الانساني ان تقاس الاخلاق فيه بهذا القسطاس ولا تقاس بمنفعة تفسد بفساد المجتمع نفسه، وتنحرف مع انحراف نظرته الى منافعه ومضاره . فان المجتمع قد يصاب بآفات الذل والعجز والهزال والبخل والسوء والقسوة والبغضاء وسائر الافات الموبقة من نقائض الخلائق الالهية ، فيصلحها الترياق من الدين ، أو يصلحها ان تقلع عنها ولا يصلحها ان تتمادى فيها

ان أدب الاسلام يخرج للمجتمع الانسان الكامل فيخرج له الانسان الاجتماعي الكامل في أقوى صورة وفي أجملها

يخرج له السوبرمان الذى لا يطغى على احد ، ويخرج له الجنتلمان الذى لا يسيء الى أحد

ومن عناية الاسلام بالتفصيل والاستيفاء في كل أمر من الامور أنه يشفع الاصول بفروعها في مسائل الاخلاق ومسائل الفرائض والعبادات .. فمما لا خفاء به ان الرجل الذى يعرف العزة والصدق واللطف « جنتلمان » على اجمل ما تكون «الجنتلمانية» في رأى الرجل المهذب الكريم ولكن الاسلام يستوفى صفاته بتفصيلاتها لانه يخاطب الناس كافة ويتوجه بالارشاد الى أحوج الناس اليه ، فلا يدع الارشاد الى الآداب الاجتماعية في أدق تفصيلاتها التى تحسب من آداب المجاملات في اللقاء والتحية بين الناس أو في عرف السلوك في المحضر والمغيب

لا يدخل أحد بيتا حتى يستأذن :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » . (سورة النور)

ولا يحيى بتحية الا أجابها بمثلها أو بأفضل منها :

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنهَا أَوْ رُدُّوهَا » .
(سورة النساء)

ولا يحسن بالمرء ان يقول للناس الا قولا حسنا :

« وَقُولوا لِلنَّاسِ حُسْناً » (سورة البقرة)

ولا يحسن به ان يسخر ممن يستصغره ويستطيل عليه :

« لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ » (سورة الحجرات)

ولا يحسن ان يقول عن الناس سوءا فى المحضر أو المغيب :

« وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً »
(سورة الحجرات)

ولا خفاء بصفات الكمال فى القرآن الكريم ، ولـــكن الاسلام فى مجموعه بنية حية متسقة تصدر فى العقــائد والاخلاق من ينبوع واحد . فمن عرف عقيدة المسلم عرف أن الخلق الذى يحمده الاسلام هو الخلق الذى يرتضيه انسان يؤمن بأن الله رب العالمين ، وأن النبوة تعليـــم لاتنجيم ، وان الانسان مخلوق مكلف على صورة الله ، وأن الشيطان يغوى الضعيف ولا يستولى عليــه الا اذا اولاه زمامه بيديه ، وان العالم بما رحب أسرة واحدة من خلق الله ، أكرمها عند الله أتقاها لله

خاتمة

نختتم بهذه الكلمة فصولا كتبناها عن حقائق الاسلام واباطيل خصومه فى العصر الحاضر . ونحن نعلم ان هذه القوة الروحية الخالدة فى مفترق طريق وعرة تقف لديها لتثبت وجودها فى مستقبلها بعد أن أثبتت وجودها فى ماضيها

ولقد وقف الاسلام مرات فى مثل هـذا المفترق امام خصومه منذ قيام الدعوة المحمدية ، وصمد لحملات عنيفة كهذه الحملات التى يشنها عليه خصومه فى العصر الحاضر ، ولكنها على أكثرها كانت من قبيل الحملات المادية ، أو الحملات الحربية ، التى شنها عليه منافسوه من أرباب الدولة والسلطان ، وقل أن وقف الاسلام طويلا امام قوة يحفل بها لانها تتصدى له من الوجهة الروحية . اذ كانت القوى الروحية التى تصدت له فيما مضى تنظر الى ماضيها فتلمس فيه الفارق بينها وبينه ولا تأمن عاقبة الجولة فى هذا المجال ، وهى مجردة من عدة الدولة والسلطان ، وكانت من جانبها مشغولة بخصوماتها ومنازعاتها بين نحلها ومذاهبها ، تتجرد للحملة عليه الا أن تتأهب للغلبة عليه بقوة السلاح ..

أما حملات العصر الحديث فأهونها فيما نرى حملات الدولة والسلطان ، وهى الحملات التى شنها عليه الاستعمار

ثم ظهر منها بعد حين أنها لم تفتل فيه قوة المقاومة ولم تمنعه أن يصمد لها فى ميدان البأس والحيلة فكان صمود الإسلام لمحنة الاستعمار آية من آيات القوة الروحية التي تسعد المعتصمين بها حين تخذلهم قوة السلاح وقوة السياسة وقوة العلم وقوة المال . ولو لم يكن فى هذه العقيدة الخالدة سر اعمق جدا من أسرار العقائد الشائعة لما اعتصم المسلمون منها بمعتصم نافع أمام هذه القوى المتضافرة عليها مجتمعات

ولنا اذن أن نقول ــ على ثقة ــ ان القضية الروحية بين الاسلام والاستعمار قضية بلغت حلها المأمول او كادت أن تبلغه فهى قضية مفروغ منها فى هذا القرن العشرين

ولنا منذ الساعة ان نقول على ثقة ان حملات الخصوم الذين يهاجمون الاسلام صائرة الى هذا المصير .. الا أننا ننظر الى قوى معروفة من الجانبين ، ونرى ان فرصة الإسلام فى هذه الجولة خليقة أن تبعث فى الصدور املا اكبر من الامل فى مجرد الثبات والصمود ، وبخاصة حين نذكر أن العدة التى يعتد بها خصوم الاسلام فى حملاتهم عليه هى عدة سلبية لا يعتمدون فيها على حجتهم وبيناتهم كما يعتمدون فيها على ضعف العقائد عامة فى عصر المادية الطاغية على العقول والضمائر . فهم ضعفاء يجردون الحملة على الاسلام لظنهم ان الشبهات المادية زلزلته من داخله وفتحت بين أهله ثغرة ينفذ منها المهاجم وان ضعف وضعفت معه حجته وبيناته . فإذا انكشفت هذه الرغوة عن زبدتها وعرضت قوى الاسلام وقوى خصومه عرضا يناسب هذا العصر الحديث فالذى يتقدم هو الاسلام والذى يرتد أو يذعن للحقيقة هو الخصم المستعد للانصاف

يتلقى الاسلام أشد الحملات فى العصر الحاضر من منكريه لانهم يحترفون التبشير بدين آخر ، أو من منكريه

لانهم ينكرون جميع الاديان
وكلا الخصمين لا يستطيع أن ينال من الاسلام اذا وزن بميزان واحد وأخذ بمعيار واحد فيما يؤيده من دعواه وفيما ينكره من دعوى الاسلام . .
لا يستطيع المبشر المحترف ان ينال من الاسلام بما يدعيه عليه من التحريف والتشويه للاديان التى سبقته، فان عقائد الاسلام فى الاله وفى النبوة وفى الخير والشر وفى حقوق الانسان ارفع واصلح مما جاءت به الاديان التى سبقته اذا وزنت كلها بميزان واحد يأخذ هنا بما يأخذ به هناك . وليس فى عقائد الاسلام ما يعتبره المنصف نكسة الى الوراء أو يعتبره تطورا فى عقيدة تترقى مع الزمن حسبما يعرض لها من الظروف والملابسات . فان من هذه العقائد – كالعقيدة فى رب العالمين – ما ينقض عقائد الشرك وعقائد العصبية والاستئثار ، ويصدر من بيئة مشحونة بمفاخر العصبيات والسلالات ، وانه لمن تعسف القول ان يقال انها هى البيئة التى يتطور فيها الايمان بآله القبيلة ليصبح الها واحدا يؤاسي بين الشعوب والقبائل ،يحاسبها بأعمالها ولا يحاسبها بآبائها وانسابها ، او بما سلف من خطايا الاباء والاسلاف .. ومن ينكر النبوة على صاحب الدعوة لعلة من العلل الماجنة التى يتمحلونها فهو مرغم على انكار نبوات كثيرة يتقبلها ولا يشك فى مصدرها السماوى ومعاذيرها المقبولة عند الله ..
والمؤمنون بالعهد القديم يؤمنون بما جاء فيه عن داود عليه السلام ، ويؤمنون برضوان الله عنه واختصاصه بالبشارة الالهية من ذريته ، ويقرأون ما جاء فى الاصحاح الخامس عشر من سفر صموئيل الثانى عن قصة داود مع قائده « أوريا » وزوجته التى بنى بها بعد تعريضه للقتل وهو فى خدمته يهجر داره ويجازف بحياته لمحاربة أعدائه .. يقول راوى القصة كما جاءت فى الاصحاح

الخامس عشر من كتاب صموئيل الثانى :

« ... قال داود لاوريا : أقم هنا اليوم أيضا وغدا أطلقك . فأقام أوريا فى أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود فأكل امامه وشرب وأسكره ، وخرج عند المساء ليضطجع فى مضطجعه مع عبيد سيده والى بيته لم ينزل . وفى الصباح كتب داود مكتوبا الى يوآب وأرسله بيد أوريا وكتب فى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ، وكان فى محاصرة يوآب المدينة انه جعل أوريا فى الموضع الذى علم ان رجال البأس فيه ... فلما سمعت امرأة أوريا انه قد مات رجلها ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها الى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا واما الامر الذى فعله داود فقبح فى عينى الرب .. »

فمن كانت هذه القصة فى عقيدته لاتغض من النبوة ولا تدعو الى انكارها فليس له أن ينكر نبوة رسول الاسلام لما يتعلل به من أحاديث زواجه ولو صح منها كل مايدعيه وهو غير صحيح . وليس له — وهو يزن النبوات بميزان واحد — أن يستنكر النبوة على صاحب رسالة ترتقى بالعقيدة الالهية وبالرسالة النبوية ذلك المرتقى الذى لايخفى على بصير يفتح عينيه ولا يغمضهما بيديه.

أما الذين يحملون على الاسلام من غير المتدينين فهم جماعة الماديين الذين ينكرون الاسلام لانهم ينكرون جميع الاديان ، ويرفضون وجود الله فيرفضون الايمان بصدور شىء من الاشياء من عند الله.

وآفة هؤلاء الماديين ضيق الافق العقلى أو ضيق حظيرة النفس فى حالتى التصديق والانكار .

فهم ينكرون الرسالة النبوية لانهم لايقدرون على تصورها فى غير الصورة التى يرفضونها ، ولعلهم يلذ لهم أن يتصوروها على هذه الصورة لانها تتمشى فى طبائعهم مع شهوة الانكار التى تتسلط على عقول المسخاء ، ولا سيما المسخاء من أدعياء العلم والتفكير

ولا يراد من هؤلاء أن ينبذوا العقل ليدركوا حق

الاسلام . ولكن يراد منهم أن يوسعوا أفق العقل فيعلموا من ثم أن العقل لايمنعهم أن يدركوا حق الاسلام بل لايمنعهم أن يقبلوا عقلا أنه وحى من عند الله

فمن حقائق العقل والعلم أن الشكوك لا تبطل فرضا من الفروض الا اذا كانت قاطعة فى بطلانه، لايجوز فيها الاخذ بأخذ الرأيين المختلفين .. فما هى شكوكهم التى يوردونها على الاسلام فتمنع أن يكون دينا صالحا أو تمنع أن يكون دينا من عند الله

لا يجوز أن ينكروه لما فيه من التعبيرات الرمزية . لان التعبيرات الرمزية متمثلة فى كل حاسة من حواس الاحياء ، متمثلة فى شعوره الوجدانى وشعوره الذى يعول فيه على البصر أو على الخيال . ولا يجوز لهم أن ينكروه لأن الجهلاء يفهمونه كما يفهم الجهلاء كل شيء . فكل حقيقة كبرت أو صغرت لابد أن يفهمها الجهلاء فهما يخالف ما يفهمه منها العارفون وذوو البصر والدراية . ولا يجوز لهم أن ينكروه لأن العصور المتعاقبة تتدرج فى فهمه والنفاذ الى سره . فكهذا ينبغى أن تتدرج العصور فى النفاذ الى سر الدين الذى تدين به أجيال بعد أجيال ، وهكذا يكون الخطاب فى الاديان لانها لاتدين النفوس اذا توجه بها الخطاب اليوم ليلغى بعد يوم من الايام

فاذا وجد الدين الصالح فلن يكون فى وسع العقل أن يتصوره فى غير هذه الصورة من التعبيرات الرمزية ومن اختلاف العلماء والجهلاء فى فهمه ومن تفاوت الاستعداد له على حسب الاستعداد بين الاجيال والامم . وانه لعقل بديع ذلك العقل الذى ينكر الشيء ثم لايستطيع أن يتصوره حقا الا على الصورة التى أنكرها .. !

ونحن لم نكتب فصول هذا الكتاب لنبشر بالاسلام هؤلاء الماديين المتعطشين الى انكار كل معنى شريف من

معانى الحياة البشرية ، ولكننا كتبناه للمتدين المنصف الذى يستطيع أن ينظر الى دينه والى هذا الدين نظرة واحدة ، وكتبناه أولا وآخرا للمسلم الذى يتلقى حملات خصوم الاسلام من المتدينين وغير المتدينين ، ليعلم أنه خليق أن يطمئن الى حقائق دينه فى هذا العصر سواء نظر اليها بعين العقل أو بعين الايمان ، وانه خليق أن يواجه الغد بما يؤمن به من عقائد دينه ومعاملاته وحقوقه وآدابه وأخلاقه فلا يعوقه عائق منها أن يجارى الزمن فى المستقبل الى أبعد مجراه

واذا وفى المسلم بأمانة الشكر وعرفان الجميل فلا ينسى أنه مدين لهذا الدين الحنيف بوجوده الروحى ووجوده المادى فى حاضره الذى وصل اليه بعد عهود شتى من عهود المحنة والبلاء . ولولا قوة بالغة يعتصم بها المسلم من هذه العروة الوثقى لضاع بوجوده الروحى ووجوده المادى فى غمار يمحوه ولا يبقى له على معالم بقاء .. ومن حق هذا الدين عليه أن يسلمه الى الاعقاب قوة يعتصم بها العالم فى مستقبله بين زعازع المحن التى ابتليت بها الانسانية فى هذا الزمن العصيب .. فلعله من نصيب هذا الميراث فى غده القريب أن يكون مصادقا لنبوءة الاسلام بحكمته جل وعلا فى خلق عباده شعوبا وقبائل متفرقين ، ولعل هذا الدين القويم الذى دعا أول دعوة الى رب العالمين أن يكون دين الشعوب والامم متعارفين متسالمين مسلمين . ولا تكونن أمانة الدين يومئذ سياسة حسنة نخدم بها نحن المسلمين حاضرنا ومصيرنا ، بل هو الايمان بارادة الله كما تتجلى لخلقه يؤديها كل من عرفها بمقدار ما عرف منها ، وسيذكرها كل من ينجو بها من أمم العالم فيذكر الرسالة الالهية التى تفتتح باسم الله الرحمن الرحيم وتختتم بحمد الله رب العالمين

فهرس

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

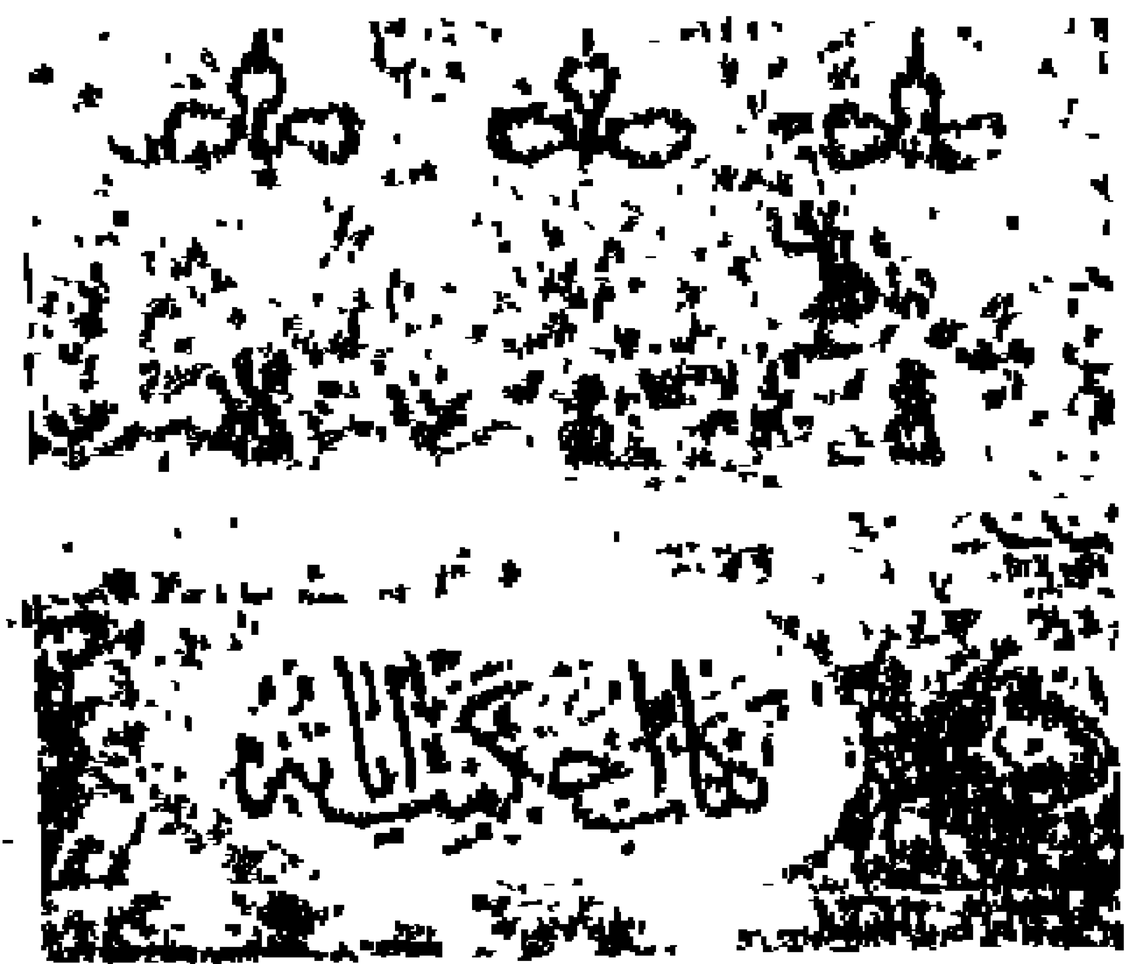
جـــــدة : السيد هاشم بن على نحاس – ص٠ب ٤٩٢٠

البحـرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد – ص٠ب ٢١

البـــرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Sao. Paulo, BRAZIL

سنغافورة : Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Almaktab Attijari Assharat,
P.O. Box 2205,
SINGAPORE

انجـــلترا : ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND



هذا الكتاب

« جاء الاسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة فى الاله الواحد الاحد ، صححت فكرة الفلسفة النظرية كما صححت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين — فى جانب النقص منها — أعظم المعجزات التى اثبتت له فى حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة انه وحى من عند الله ..

« ووجهتنا التى نتجه اليها فى الدراسات التى ينطوى عليها هذا الكتاب ، اولا : أن الاسلام يوحى الى المسلم عقيدة فى الذات الالهية وعقيدة فى الهداية النبوية وعقيدة فى الانسان لايعلو ما عقيدة فى الديانات ولا فى الحكمة النظرية أو الحكمة العملية . وثانيا : ان احكام الاسلام لاتعوق المسلم عن غاية تفتحها امامه أشواط العلم والحضارة ، وثالثا : ان فى الاسلام زادا للامم الانسانية فى طريق المستقبل الطويل يواتيها بما فيه غنى لها حيث نضبت الازواد من وطاب العقائد الروحية أو تكاد ..

المؤلف